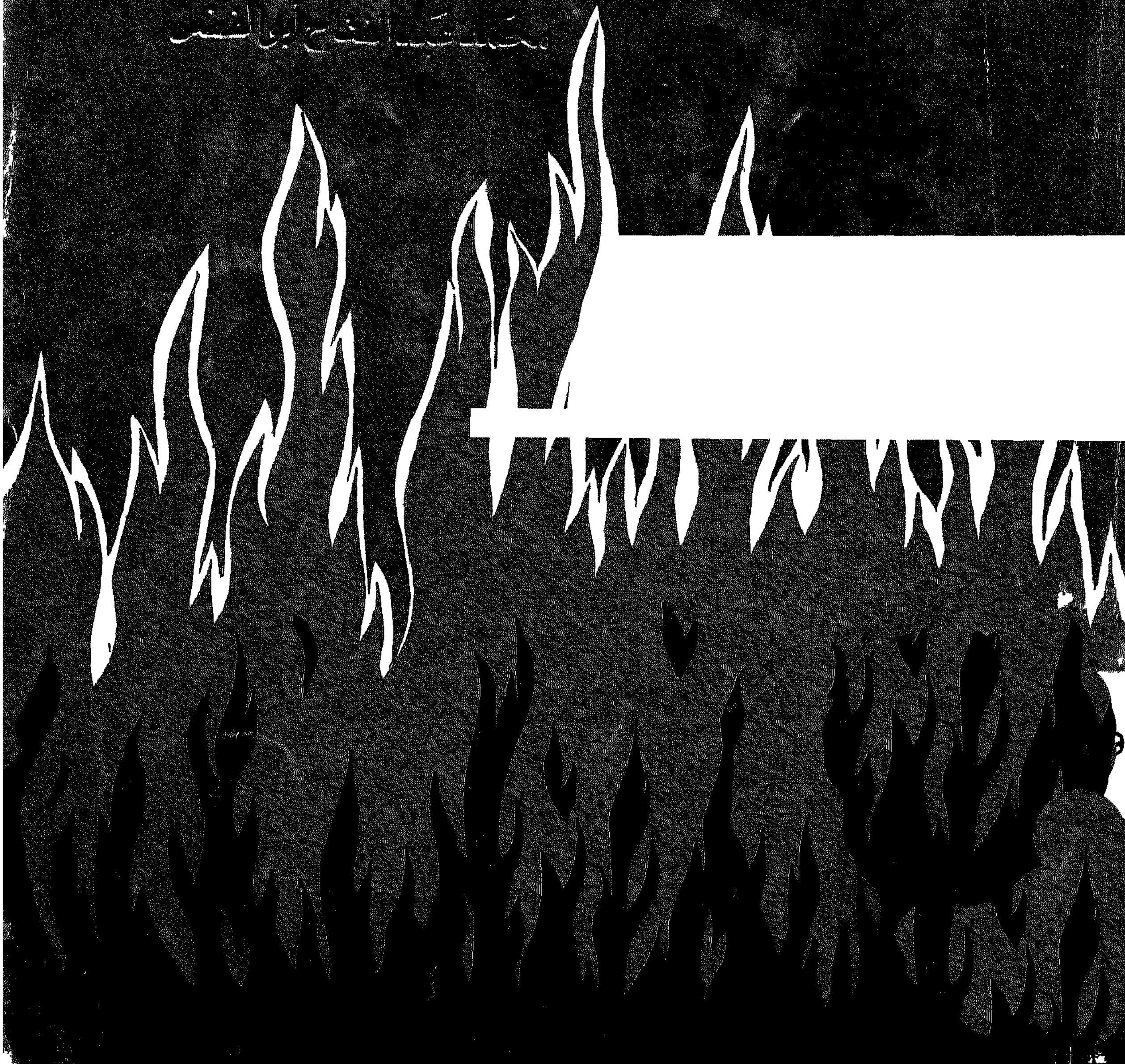
تأملات في

ثورات مصر

محمد عبد الفتاح أبو الفضل



تأملات فى

ثورات مصر

على ضوء قراءات تاريخية

(١)

مقاومة الحملة الفرنسية

محمد عبد الفتاح أبو الفضل

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

- فى مقاومة المصريين للحملة الفرنسية
- مقاومة الوجود البريطانى بعد جلاء الحملة الفرنسية
- الثورة على بقايا أمراء المماليك بعد جلاء الحملة الفرنسية
- الثورة على الأتراك والوالى التركى بعد جلاء الفرنسيين
- مقاومة الغزو البريطانى (حملة فريزر)

● ● مقـــدمة

الهدف الأســاسى من هذه السلسلة من الدراســات هو ابــراز دور الشعب المصرى منذ عرف مقاومة الظلم والاستغلال من خلال الثورات التى مارسها بدءا بمقاومته للحملة الفرنسية ثم للأتراك والمماليك وفى النهاية الانجليز فى حملة فريزر مع تناول بعض المواقف التى تمرد فيهـــا هذا الشعب أو جزء منه على الاســتبداد والقهر واســـتغلال الحكام الوطنيين أو المحليين أو الغرباء عنه لدرجة الثــورة عليهم وذلك فيما قبـــل الحملة الفرنسية ثم دراسة للثورة العرابية ثم ثورة ١٩١٩ وفى النهاية ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مع تحليل لمكونات الشخصية المصرية التى لم تستسلم أبدا للقهر والظلم رغم صبرها الطويل على المكاره فقد كان الشعب المصرى عقب فشله أو توقفه عن الثورة والتمرد فى كل مرحلة مقهورا بقوة البطش والقهر يضغط على نفسه لفترة قد تطول أو تقصر لأجل استئناف ثورته مرة أخـــرى دون ان يفقــد مقومات شـــخصيته المصرية المتميزة بالصبر واستمرار التمرد على القهر والذل والاستغلال ٠

وحيث أن أساس هذا البحث هو ثورات مصر فقد وجب التعريف بظاهرة الثورة وبالظواهر الأخـرى للأعمال الايجابية الشعبية فى مقاومة القهر والاستغلال بدءا من الانتفاضة أو الحركة الى الانقلاب :

- ويعالج الكتاب الأول مقاومة الحملة الفرنســية والثورة على المماليك والأتـــراك والانجليز ومقـــاومة الشعب المصرى لحمـــلة فريزر البريطانيـــة ٠
- ويتناول الكتاب الثانى الثورة العرابية فى مقاومة التسلط العثمانى والتدخلات الأجنبية واستبداد الحكام والنظار ٠
- والكتاب الثالث ثورة ١٩١٩ فى مقــاومة الشعب المصرى للمستعمر

البريطاني الذى اعتقد انه شوه تكوين الفرد المصرى ولكنه ثار واستمر في ثورته حتى وفاة الزعيم سعد زغلول ٠

- وفى الكتاب الرابع تصوير للارهاصات الثورية التى بدأت من تاريخ وفاة الزعيم سعد زغلول واتصلت حتى ثورة ٢٣ يوليو ٠

- أما الكتاب الخامس فيعالج قيام ثورة ٢٣ يوليو حتى نهاية العدوان الثلاثى والتى برز فيه دور المقاومة الشعبية المصرية والعربية بشكل واضح ٠

- أما الكتاب السادس ففيه التفاعلات المصرية والعربية وبروز ظاهرة القومية العربية ومقاومتها للتبعية الاستعمارية الجديدة حتى وفاة عبد الناصر ٠

(أ) الانتفاضة او الحركة

هى الظاهرة التى تحدثها المؤسسة القومية الوطنية لأمة ما بصفتها طليعة الأغلبية المقهورة وذلك باحداث حالة من الاحتجاج أو التمرد أو حتى المقاومة الايجابية العلنية والعنيفة دون ان تتمكن هذه الحركة من ازاحة المؤسسة الحاكمة من مراكزها السيادية ، وغالبا ما يكون هذا القصور نتيجة امتصاص السلطة السيادية المستبدة للغضب الشعبى اما بمزيد من القهر والعنف والردع لتطويل مدة المقاومة الشعبية حتى تمل هذه المقاومة وتضعف وتتخاذل وتبرد بفعل مرور الزمن أو بتعمد السلطة المستبدة الحاكمة الى احداث بعض التغييرات الشكلية والمظهرية الخادعة لارضاء غرور بعض الثوار وغالبا ما تنخدع المؤسسة الوطنية القائدة لهذه الحيل ولكن الغالبية الشعبية لاتنخدع أبدا فقد تغلب على أمرها ويتوقف الكفاح لبعض الوقت ولكن لايعتبر هذا التوقف هو نهاية الكفاح بل هو نواة لاستئناف النضال والجهاد من جديد ومثل هذا العمل الايجابى الذى يحدث بعض التغييرات يطلق عليه انتفاضة أو حركة ولكن جرت العادة والعرف على تسميته ثورة تجاوزا وسيبرز ذلك كثيرا فى بعض أجزاء هذا الكتاب ٠

(ب) الانقلاب

أما اذا تمكنت المؤسسة القومية الوطنية المتجاوبة مع الأغلبية المقهورة من احداث التغيير فى الهيكل الادارى فى مؤسسة الأقلية المستغلة الحاكمة وذلك بازاحة الحكومة السابقة من مراكزها الادارية والسياسية السيادية وتبوأت هى (أى المؤسسة الوطنية) بنفسها أماكن الحكام السابقين دون احداث تغيير فى اسلوب ممارساتهم الظالمة السابقة وذلك بالابقاء على

علاقات الانتاج وعلى الاسلوب الاقتصادى والسياسى الذى كان سائدا قبل هذه الحركة فيستمر القهر والمعاناة للأغلبية المحكومة رغم تغيير شخصيات الحكام فان مثل هذا العمل الايجابى الذى أحدث هذه الحركة المحدودة هو ما يطلق عليه انقلاب وفى معظم الأحيان فان الانقلابيين بعد استيلائهم على سلطة السيادة تكون ممارساتهم الظالمة الاستغلالية أسوأ من ممارسات سابقيهم ويفوقونهم فى الخداع والتزييف ٠

(ج) الثـــورة

أما اذا تمكنت المؤسسة الوطنية المعبرة عن أمانى وتطلعات الأغلبية الشعبية من التحرك الايجابى ضد الأقلية المستبدة الحاكمة وأحدثت التغيير الكامل فى قمة السلطة القديمة وازاحت هيكلها الادارى بكامل مؤسســاته من سلطة السيادة ثم عملت على اعادة سلطة الســيادة للشعب عن طريق اصدار الدساتير والقوانين والتشريعات واللوائح التى تؤكد على العلاقات الادارية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة مع شرط احترام هذه المؤسسة الجديدة لهذه التشريعــات فان مثـــل هذا العمـــل الايجـــابى المتكامل هو ما يستحق ان يطلق عليه « ثورة » ٠

وللعمل الثورى مراحل هى :

اولا : مرحلة اســـتغلال وتحكم واستبداد وظلم الأقليـــة الحاكمة للأغلبية المحكومة ٠

ثانيا : مرحلة شعور الأغلبية المحكومة بالمعاناة من ممارسات الأقليـــة الظالمة المتحكمة ٠

ثالثا : مرحلة الوعى وتكوين المؤسسة الوطنية التى تقوم بنشر الوعى وتخطط وتقود وتنظم العمل الايجابى القادر على التغيير ٠

رابعا : العمل الايجابى الكفيل باحداث التغيير الحقيقى فى العلاقات السياسية والاجتماعية لضمان استمرار الحركة السياســية والرفاهيـــة الاجتماعية وما يستلزمها من نظم اقتصادية ٠

وسنراعى تقسيم الثورات موضوع دراسات هذه السلسلة ٠ على أساس هذه المراحل ٠

تأملات فى ثورات مصر

على ضوء قراءات تاريخية

الكتاب الأول

مقاومة الحملة الفرنسية

شـــعب مصر

كباقى الأمم كان من القـدم مزيجا من غالب ومغلوب ومن سـكان أصليين وغرباء وقد كانت كباقى الأمم منهوبة مظلومة فكانت مصر تطيق الحاكم سواء كان من أبناء البلاد أو من غير أبنائها الى أن يتجاوز الحاكم حد الطاقة فتثور عليه (١) سواء كان من الأجانب أو من المواطنين ـ ومصر منذ القدم كانت تنفرد بشخصية متميزة فى هذه الطبيعة عن باقى الأمم فكان كلما حكمها أجنبى يحاول تطويع شعب مصر للحصول على طاعته فكان دائما يعجز عن تحقيق ذلك الا اذا انتحـــل ديانتهـــا ومارس عادات المصريين ومراســمهم وعقائدهم . وكان الحاكم الأجنبى يحفظ ماله فى أرض مصر ولا ينقله الى عاصمة بلاده الأصلية واذا خالف هذه الســـنه كان دائما عرضة للمقاومة والانقضاض عليه من المصريين ويكون دائما فى خطر وفى حذر من جموحها وانقلابها .. ولم تكن مصر أمة مستسلمة تميل الى الخضوع والاستكانة للأجنبى بعكس ما أشاعه أعداؤها عنها على مر الزمن .

وقد اشتهرت مصر تاريخيا بالتمرد ولا يعرف عنها الاستسلام وقد كان للعامل الجغرافى وللعقيدة الدينية والموروثات المصرية والأســاطير وظاهرة المؤسسة القومية دخل كبير فى تكوين هذه الشخصية المصرية .

---

(١) المجلد الثامن عشر (تراجم وسير) للأستاذ العقاد ص ١٤ وص ١٥ .

العامل الجغرافى

مصر اقليم تحده حدود واضحة أكدت على مر العصور (٢) وحدته وتكامله فالصحراء الغربيـة تحـد الوادى الزراعى غـربا والبحر الأبيض المتوسط يحده شمالا والبحر الأحمر والصحراء الشرقيـة يحدانه شرقا وشلالات النوبة جنوبا وقد أعطى ذلك حدودا ومعالم اجتماعية للشخصية المصرية ، بالاضافة الى انتظام فيضان النيل والذى أوجد نظاما موحدا للرى مع نظام اتصال يربط الوادى من الجنوب الى الشمال بسهولة الملاحة فى نهر النيل لاعتمادها على التيار من الجنوب الى الشمال وعلى الرياح الشمالية لتسهيل الملاحة من الشمال الى الجنوب ولذلك كان النيل من أدوات الربط المحكم بين أجزاء مصر ومن وسائل توحيدها سياسيا فكان غالبية سكانها من الزراعيين (الفلاحين) أو الصيادين ونسبة قليلة من الرعاة ثم مجتمع حرفى يخدم متطلبات هذا المجتمع ، وكل ذلك كان يتم فى تعاون وترابط وتكامل اجتماعى وعلاقات انتاج دون صراع حاد ۰ وبذلك تمكنت مصر من المحافظـة على الوحـدة السياسية للبـلاد بصرف النظر عن تغيير الأسر والأجناس التى سيطرت على مصر ۰ ونظرا لحدود مصر ببحارها وصحاريها فقد أدى ذلك الى العزلة الجغرافية الطبيعية وبالتالى فان شعب مصر يتميز بالعزلة التى جعلتـه يغـالى فى الشعور بالذات الى حد الاستغراق الذاتى كما ان الشعور المشترك بالأخطار الخارجية المتتابعة جعلته شعبا متماسكا وولد فيه الوعى بالاعتزاز بهذا الوطن وبحدوده منذ القدم ـ جموع الفلاحين الهائلة التى كانت تحشد من مختلف أنحاء البـلاد فى مشاريع السيطرة على النهر أو الرى أو بنـاء المعابد والقصـور والأهرامات أو فى جيوش الدفاع عن البلاد كانوا يتعرفون من بعضهم البعض على النواحى المختلفة من هذا الوطن الذى يجمعهم ـ كل ذلك حقق طابعا وطنيا عاما يتمثل فى وحدة الديانة والطقوس والمراسيم والعادات والملابس والسكن وأساليب الزراعة ووحدة وانضباط مواسـمها وبعض الحرف كصناعة الأوانى والكتـان والزيوت وغيرها وحقق ذلك حياة قومية موحدة ولغة مشتركة ۰ والمصرى لم يكن يستطيع أبدا أن يعيش حيـاة فردية حيث كانت القرية هى دائما عالمه حيث يعمل فيها عملا جماعيا يعود عليه فى شئون الرى والسيطرة على الفيضان وحماية زراعته من غارات البدو ۰ وهذه الجماعات كانت تواجه القهر بكثير من التحمل وهذا هو السر فى صبر المصرى الطويل ولكنه كان دائما يتحرك فى الوقت المناسب وبشكل جمـاعى وبهذه الشخصية كانت تنفرد بقدرتها على التجمع فى لحظة واحدة يحسبها المرء نهاية بينما هى

---

(٢) الشخصية المصرية الوطنية د۰ طاهر عبد الحكيم (دار الفكر) ص ٦٢ و ٦٣ و ٦٤ و ٦٥ ۰

بداية جديدة ويستمد من كل ذلك الثقة بالنفس والقدرة على اكتشاف ذاته وهذا هو الذى جعل مصر لا تقبع أبدا •

العامل الدينى

المصرى الأول كان ينظر الى الشمس التي تلازمه طوال النهار نظرة امتنـــان وتقديس تطورت الى التاليه لقدرتها على انضـــاج محاصيله ولعدم وجود عناصر أخرى أقوى منها ولذلك اختص الشمس بهذا التقديس ثم انصرف بعد ذلك كل تفكيره فيما هو أبعد من الموت أى البعث وشكل ذلك العناصر الرئيسية (٣) للديانة المصرية القديمة وبمرور الوقت فقد وجد ان هذه العقيدة تعتبر علاقة فردية تخص الفـرد دون حاجة الى وســـــاطة المؤسسة الدينية والتى كانت تتمادى فى احتكار الطقوس الدينية لصالحها تقربا الى الحكام على حساب المحكومين ولأجـل التخلص من تحكم الكهنة ورجال الدين انصرف المصرى وتخلى عن هذه الوســاطة الكهنوتية دون أن يرى ذلك انتقاصا من ايمانه • وهذا تفســـير لماذا اقترنت بعض ثورات المصريين القدامى بموقف متمرد ضــد بعض رموزهم الدينية وطالبوا فى بعض هذه الثورات بحقهم فى ممارسة بعض الشعائر الدينيـــة مستقلين حتى عن الفرعون وعن الكهنة • وبالتالى فان هذا يفسر لماذا غير المصريون دياناتهم ومذاهبهم بعد ذلك أكثر من مرة حينما تركوا دياناتهـم القديمة واعتنقوا المسيحية ثم الاســـلام • ثم تبنوا المذهب الشيعى واســـتعانوا بالفاطميين الشيعيين ضــد الدولة الأخشيدية السنية ثم عادوا وثاروا على الفاطميين وعادوا الى المذهب السنى حينما أمسك صـــلاح الدين الأيوبى بالسلطة المركزية ١١٧١ م وعندما تحول الحكم فى مصر الى المذهب الشيعى على يد الحكام الفاطميين رفض المصريون فيه جانبين مرفوضين من اسلامهم الأصلى وهما : جانب الامامة ، وجانب الموقف العدائى ضـــد الصحابة • وعندما وجد المصريون أن مصلحة بلادهم ووحدتها تدعو الى عدم التعصب التف الشعب المصرى أقباطه ومسلموه حول قيادة الثورة العرابية حيث نص البيان الأول لحزب الثورة العرابيـــة « انه حزب سياسى غير دينى » • كما التفت الجماهير بشكل جمـاعى مسلمون وأقبـاط حول حزب الوفد وقيادته القوميـــة فى الوقت الذى فشلت فيــه الأحزاب التى تحالفت مع القيادات الدينية لحساب الخديويين •

الأساطير والشخصية المصرية

ان المتعمق فى الأدب الشعبى المصرى يجـد انه بالعودة الى الدولة

---

(٣) الشخصية المصرية د• طاهر عبد الحكيم ص ٧٨ •

القديمة (٤) والذى يعبر عن معاناة الشعب المصرى من القهر والاستبداد والطغيان والظلم يجد ان الشعب المصرى كان فى أغلب الأحوال يواجهها مجتمعا وليس منفردا بل من خلال مؤسسة وطنية تعبر عن معاناة الغالبية المقهورة وعن آمالها فى أساطيره وهذه هى السمات التى سادت على امتداد تاريخ المصرى قديما ومن أقدم الأمثلة على ذلك :

(أ) أسطورة أوزوريس

والتى تعبر عن أمل الناس ان يولد منهم ولهم من أوزوريس الذى وهب لهم الحياة ومن ايزيس الأم من يخلصهم من الحاكم الظالم الذى قتل أوزوريس الأب وكان المخلص هو ذلك الابن « حورس » والذى نشأ وتربى بعيدا عن عمه الحاكم الظالم الذى قتل أباه أوزوريس وبعد أن شب وترعرع نشب بين حورس وعمه قاتل أبيه الحاكم (ست) صراع انتهى باسترداد عرش أبيه وهذه الأسطورة كان يتوارثها المصريون جيلا بعد جيل ٠

وكان الشعب يؤمن بأن الملك أوزوريس هو الملك الاله (٥) الذى أضفى عليه المصريون كل الفضائل والصفات الطيبة فهو الذى يثبت دعائم العدل والحقيقة فى كل الأماكن وهو الذى صنع هذه الأرض بيديه وهو الذى يرويها وهو صانع المياه كلها والرياح والعشب والقطعان والطيور والزواحف وذوات الأربع وهو الذى يبدد الظلمة بالضياء وهو الذى يجرى النيل من عرق أصابعه ويهب الناس الحياة من أنفاسه وتنمو فوقه الأشجار والنباتات والحبوب وجميع الثمار ٠

(ب) نبوءات الكاهن « نفرو هو »

وفى القصص الشعبى المصرى القديم نبوءة (٦) الكاهن « نفرو هو » وفيها اشارة متكررة الى غزو الآسيويين والرعاة فى فترة غزو الهكسوس لمصر فى أواخر الدولة الوسطى ٠ وكانت نبوءات الكاهن « نفرو هو » تتفجر ألما وحسرة وشكوى « انصت يا قلبى الى واقع تلك الأرض التى فيها نشأت لقد أصبحت هذه البلاد خرابا ، قل من يهتم بها ، ولا من يتكلم عنها ولا من يذرف الدمع لقد حجبت الشمس فلا تضىء حتى يبصر الناس ٠٠ وأصبح نيل مصر جافا فيمكن للانسان أن يخوضه بالقدم ٠٠٠ وكل

---

(٤) الديانة المصرية القديمة ياروسلاف تشرنى ترجمة الدكتور أحمد قدرى ص ١١٧ ـ ١٢٦ ٠

(٥) نفس المصدر ٠

(٦) الشخصية الوطنية المصرية د٠ طاهر عبد الحكيم ص ٧١ ، ٧٢ ، ١٨٣ ٠

طيب إختفى وصارت البلاد طريحة الشقاء » · والجديد فى هذه النبوءات هي الروح المصرية الوطنية التى استثارها وقوع مصر لأول مرة في قبضة حكام أجانب « ظهر الأعداء فى مصر فانحدر الآسيويون الى مصر والبلاد تتألم فالمالك صار فى حاجة والأجنبي أصبح غنيا والأرض قد نقصت وتضاعف عدد حكامها وصارت الحبوب شحيحة في حين ان المكيال الخاص بجابي الضرائب صار كبيرا وان منطقة عين شمس لن تصير بعد مكان ولادة كل اله » ولكن نبوءته الوطنية والتى تعبر عن نداء الشعب المصرى المقهور في طلب المخلص من الغزو الأجنبى المستغل تقول « سيأتى ملك من الجنوب اسمه « أمينى » وهو ابن امرأة نوبية (أى من الشعب وليس من سلالة الملوك أو الأمراء أو الكهنة) وقد ولد فى الوجه القبلى — سينشر السلام فى الأرضين (يعنى الوجهين البحرى والقبلي) وسيفرح أهل زمانه ، وسيجعل ابن الانسان اسمه باقيا أبد الآبدين ، أما الذين تآمروا بالشر ودبروا الفتنة فسيطبقون أفواههم خوفا منه ، وسيقتل الآسيويين بسيفه وسيحرق الليبيين بلهيبه وسيخضع العصاه لبطشه ، والعدالة ستعود الى مكانها وينفى الظلم من الأرض فهنيئا لمن سيرى ذلك » وبذلك صار لأول مرة فى الأدبيات المصرية القديمة تعبير عن الوجدان والوعى الشعبى بأن المخلص سيكون من الشعب وليس فرعونا أو من سلالات الآلهة · ليكون الخلاص بأيدى الشعب ولا ينتظرونه من خارج صفوفهم ·

(ج) قصة الفلاح المصرى الفصيح (٧)

وملخص شكوى الفلاح المصرى الفصيح هو ان الفلاح المصرى « خون آنوب » من منطقة وادى النطرون حمل حميره ملحا وساقها جنوبا متجها الى « اهناسيا » ليبادل الملح بالقمح حتى اذا وصل الى منطقة « بيرفيوفى » شمالا الى بلدة اسمها (مدينة) وجد هناك رجلا يقف على الشاطىء اسمه « دحجوتى نخت » يعمل عند مدير المقاطعة المدعو « رنس مرو » وتحايل الموظف « دحجوتى نخت » حتى استولى على حمير الفلاح وحمولتها من الملح بحجة ان الحمير أكلت من قمحه ولما احتج الفلاح انهال عليه الموظف ضربا بعصاة قطعها من شجرة وقال للفلاح « لا ترفع صوتك يا فلاح والا قتلتك » فقال الفلاح ·· « أتضربني وتسرق متاعى وتكاد تقتلنى » واستمر الفلاح يشكو أمام باب « دحجوتى نخت » لمدة عشرة أيام وحاول اقناعه برد حميره وبعد أن يئس اضطر أخيرا ان يتوجه الى مدير المقاطعة نفسه (رئيس ديوان فرعون المدعو « رنس مرو » والذى

(٧) نفس المصدر السابق ص ٧٢ ، ٧٣ وشكوى الفلاح الفصيح منقوشة على بردته فى متحف برلين · كما عثر على سقف حجر جيرى مدون عليها فقرات من شكوى الفلاح الفصيح ·

بعد ان حقق فى الشكوى أمر برد حميره وحمولتها من الملح ومعاقبة مرؤوسه « دجحوتى نخت » • وكانت كلمات الفلاح الفصيح الى مدير المقاطعة تعبيرا صادقا عن الشخصية المصرية حيث جاء فيها « انه يجب على رجال الحكومة ان يقضوا على الظلم ويقيموا العدل ويوفروا الطعام والملبس والدفء لأفراد الشعب وأن يقفوا الى جانب الفقير ضد الظالم فالصــــالح المؤمن هو من يهتم بأرزاق الناس ويحميهم من المعتــدين على أرزاقهم » ثم يحذر الفلاح فى شكواه رئيس الديوان الملكى « من انه اذا لم يستجب لشكواه ويقف الى جانبه فان كفة ذنوبه ســتكون هى الراجحة يوم الحساب و « معات » اله الحق والعــدل لن يخلد الا أســـم من يقيم العــدل ، وانه اذا لم يستمع الى شكواه فانه سيستجير منــه « بأنوبيس » حامل ميزان العدالة فى محكمة اوزوريس فى العالم الآخــر » • ومن هذه القصـــة نستطيع أن نتعرف على بعض السمات الأساسية للشخصية المصرية :

أولا : ان الفلاح عنيد ودؤوب وصبور فى صراعه من أجل استعادة حقوقه فبعد عشرة أيام من الصبر على الوقوف أمام باب « دجحوتى » يحاول اقناعه برد حميره دون جدوى فيتحول الى السعى لمقابلة المدير ويرده الموظفون ويصورون لرئيس البلاط الأمر بما يتفق مع مصالح زميلهم « دجحوتى » الا أن الفلاح لا ييأس ويواصل الجهد حتى ينجح أخيرا فى مقابلة المدير « رنس مرو » ويشرح له شكواه بشجاعة •

ثانيا : فى كلمات هذه الشكوى نلمس وعى شعبى لما يجب أن تكون عليه أمانة وسياسة وتصرفات الدولة وموظفيها ازاء عامة الشعب •

ثالثا : فى هذه الشكوى ملامح مفهوم دينى يشكل ظاهرة تبرز فيها العقيدة الدينية الشعبية فالفلاح فى شــكواه يذكــر الآلهة ولا يذكر غيرها فالذين يمكن أن يكونوا ذوى نفع له وهم « توت » الحكيم و « معات » آلهة الحق والعدل و « أنوبيس » حامل الميزان فى محكمة « أوزوريس » • فالانسان المصرى فى مواجهة الاستبداد والسلطة المركزية لايقف عند حدود الشكوى والمناجاة بل يتعداها الى الفعل بل الى التمرد والثورة بعكس ما دأب عليه معظم الباحثين المعاصرين المتحيزين على وصف الفلاح المصرى بالخضوع والسلبية وهذا غير صحيح بالمرة •

رابعا : ان هذا الفلاح الفصيح لجأ الى المخلص الانسان فى شكل المدير الفرعونى وهدده بالمخلص الاله فى حالة عدم انصافه فهو فى نفس الوقت الذى استنجد بالالهة فى حالة يأسه من الانصاف نال هذا الانصاف على يد المخلص الحاكم العادل وذلك نتيجة نضــاله ودأبه فى طلب الحق وشجاعته فى مواجهة الحكام مهما علت مرتبتهم وهدد بانتقام الالهة فى حالة انحياز الحاكم الى الظلم •

(د) المناجاة التى كتبها الكاهن « مع خبر رع سنب »

ومنذ ظهورها حوالى عام ٢٠٠٠ ق٠م شاعت حتى أوائل الدولة الحديثة والتى اتخذت طابع الموال الشعبى والتى يقول فيها (٨) « كل يوم يستيقظ الرجال فى الصباح لكى يعانوا وليس للفقير قوة تنقذه من الذى يغرقه ٠٠ وتمر المصائب كل يوم ولكن أحزان الغد لم تمض بعد » واكتشف كثيرا مثل هذه المناجاة التى يستنزل فيها كاتبوها اللعنات على فرعون ورجاله وكذلك موقف الانسان المصرى من استبداد السلطة الحاكمة المتحكمة ٠

ظاهرة المؤسسة القومية

فى تاريخ مصر منذ القدم توجد ظاهرة المؤسسات القومية الوطنية فهى ظاهرة متكررة وجاءت نتيجة البنية الاجتماعية المصرية والتى أوجدت « الوعى بالذات ككيان واحد (٩) متماسك لهذا المجتمع والنزوع لتأكيد الذات فى مواجهة ما هو خارج عنها وكانت هذه الظاهرة ملموسة بدرجة قوية فى كل مراحل تطور المجتمع المصرى وكانت بمثابة الدرع الواقى الذى تتحصن داخله الشخصية المصرية فى مواجهة عوامل متسلطة داخلية أو خارجية وذلك صونا لنفسها أو فى محاولتها للتحرر أو التطور نحو أوضاع أفضل ولذلك نجد ظاهرة المؤسسات القومية فقد كانت منذ القدم ٠

(أ) ديانة أوزوريس أشبه بمؤسسة قومية فى مواجهة كهنة آمون حينما أصبحوا كهنة وحكاما وملاكا فى آن واحد ٠

(ب) وكان كهنة آمون عندما هاجروا الى صحراء سيوه بمثابة مؤسسة وطنية فى مواجهة الغزو المقدونى ٠

(ج) وكانت الكنيسة المصرية مؤسسة قومية فى مواجهة الرومان والبيزنطيين وفى الوقت الذى كان يفتقد فيه المجتمع المصرى مثل هذه المؤسسات القومية كانت ثورات الفلاحين هى التعبير القومى عن رفض السيطرة الأجنبية أو الأقلية المحلية المسيطرة ٠

(د) وكانت هناك مؤسسة علماء الأزهر فى مواجهة السيطرة المملوكية ومظالم الحكم العثمانى المتآمر مع النظام المملوكى ٠

(هـ) ثم دور علماء الأزهر فى الرفض ثم الثورة ضد السيطرة

---

(٨) نفس المصدر السابق ص ٧٤ ٠

(٩) نفس المصدر السابق ص ٩ ٠

الأجنبية فى فترة الاحتلال الفرنسى ثم فى مواجهة الغزو البريطانى لمصر فى معركة رشيد (حملة فريزر) ثم فى مواجهة بعض شطحات محمد على الاستبدادية ٠

(و) ثم بعد ذلك كان هناك مؤسسة الحزب الوطنى الأول (التنظيم السرى للثورة العرابية) والحزب الوطنى الثانى (مصطفى كامل) ثم حزب الوفد ثم الحركة القومية التى كان يقودها جمال عبد الناصر ٠

طبيعة الشخصية المصرية (١٠)

١ ـ مصر أمة طويلة التاريخ قديمة عهد بالمدنية فى أرض زراعية ٠

٢ ـ مصر ليست أمة بداوة تتطلع الى الحرب كباب للرزق أو استعدادا لصد غارات الجار المخيف المعتدى ولكنها أمة حضارة مستقرة ومنظمة المعيشة ولا تلجأ للحروب الا لأنها ضرورة لا مفر منها اتقاءا لنكبة أكبر أو مصيبة أعظم من الحرب نفسها ٠

٣ ـ ومصر أمة لا تطيع حكامها كما يطيع البدوى زعماءه طاعة عمياء ولكنها أمة توارثت الديانات والأساطير الأخلاقية جيلا بعد جيل وأصبح كل ذلك تراثا تحافظ عليه أشد من المحافظة على المنفعة والمصلحة وتغار عليه أشد من غيرتها على المال والثروة ٠

٤ ـ مصر أمة ذات أرزاق ثابتة ومعيشة مستقلة لا يعنيها صلاح الحاكم كما يعنيها صلاح مصادر الانتاج وما يؤثر عليها من أرض وسماء ونيل وفيضان أو قحط وعوارض وأجواء فاذا دعاها الحاكم الى الحرب فلا يعنيها ذلك لأن هذا شأن الحاكم نفسه وليس شأن المصرى ذاته ، أما اذا أصيب المصرى فى عقائده وموروثاته أو جار أحدهم على أرزاقه وعلى مصادر انتاجه عندئذ يستعصى قياده كأشد ما يستعصى قياد أمة وعندئذ تصمد مصر للحرب أشد من صمود المقاتل المحترف ٠

٥ ـ اشتهر أهل مصر بالتمرد (١١) على الظلم ولم يشتهروا بالاستسلام والخضوع كوصف بعض أعدائها الحاقدين والحاسدين لحضارتها ٠ وقد يبدو المصرى غير معقول فى ثوراته وهياجه المفاجىء

---

(١٠) المجلد الثانى عشر للأستاذ العقاد ٠ « سير وتراجم » سعد زغلول ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ٠

(١١) نفس المصدر السابق ٠

لدرجة أنه فى جميع ثوراته كان محل تعجب من باقى الأمم قائلين « أمثل هذا الشعب الوادع المستقر يثور كل هذه الثورة الغير متوقعة ؟ » ، فالمصرى يستمتع بفرصة التمرد والثورة بعد طول التحمل للقهر ويسترسل فى هذا الاستمتاع الى أمد بعيد · ويرجع ذلك الى قوة تحمله وصبره على المكاره والقهر ولكن الى حين مثله فى ذلك مثل نهر النيل شريان حياته حيث يخرج من منابعه هادئا وديعا مستسلما لمجراه مادام المجرى سهلا كريما ولكن عندما تعترضه السدود والشلالات والجنادل يثور ويفور ويتغلب على أشق المواقع ويتحايل عليها ويحدث بقوته وفورانه طريقا ينحته بين الصخور ليخرج منتصرا مصمما على السير الى أهدافه ·

٦ ــ الشعب المصرى مجبول على حب الأسرة ومولع بمنزله وبيته (١٢) ويحافظ على صلات الرحم وعلى العلاقات الأسرية والأخلاق السائدة والأسرة عنده عظيمة الشأن وذلك واضح فى آداب ومأثورات قدماء المصريين ففى وصايا « بتاح حتب » يقول الوزير لتلميذه « اذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب قرينتك الحب الجميل ، واطعمها واكسها وادخل السرور على قلبها طول حياتها » كذلك جاء فى وصية « عانى » ــ محفوظة فى مخطوطات الأسرة الثانية والعشرين يقول الحكيم « اتخذ لك زوجة فى شبابك لتنجب لك ولدا تربيه وأنت فى حياتك وتعيش حتى تراه فى عداد الرجال ، وما أسعد الرجل الذى له عشيرة كبيرة ، فان الناس يوقرونه من أجل بنيه » · وفى هذه الوصايا يقول الحكيم أيضا « ضاعف لأمك خبزها واحملها كما حملتك ··· وظل ثديها ثلاث سنوات فى فمك ··· وهى لم تأنف من تنظيفك ··· الخ » ·

فهذه الرحمة البيئية قديمة ولم تتغير الى وقتنا هذا ·

٧ ــ والمصرى اجتماعى من ناحية الأسرة (١٣) وبسبب عراقة المعيشة الحضرية التى كان يعيشها بحكم بيئته الجغرافية والاجتماعية والمعيشية وبذلك فهو اجتماعى من ناحية انتظام العادات وانتظام العلاقات منذ أجيال وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع سواء عندما كان مجتمعه هو العشيرة ثم عندما تطور الى أمه ثم بالحياة القومية فكان ارتباطه بالمجتمع أقوى من ارتباطه بالنظام السياسى والمراسيم الحكومية ·

٨ ــ المصرى جبل على الصدود عن الحكومة والنظر اليها دائما بعين الشك ، وأقصى ما يعرفه المصرى من أمر الحكومة انها شىء يجب ان

---

(١٢) نفس المصدر السابق ص ٣٢ ·
(١٣) نفس المصدر السابق ص ٣٣ ·

يداريه ويستفيد من سطوته وجاهه وسلطانه ما تيسرت الفائدة ، ولا بأس لديه ان يرضيها بالهدايا والمجاملات حتى على شكل ضرائب أو التزامات أو حتى سخرة فالحكومة لديه شر لابد منه ولا مانع لديه من التظاهر بمجاراتها ومسايرتها كما كان يجارى ويساير آلهة الشر ويتزلف اليها بالصلوات والقرابين .

٩ ـ المصرى دائما يتظاهر انه منقاد في السياسة والحقيقة انه على وعى كامل بأبعاد ما ينفعه وما يضره من هذه السياسة لأنه غالبا ما يبقى فى الصفوف لأنه يفضل ذلك عن الوحدة والتفرد ولأنه حتى فى ثورته أو قتاله يفضل ان يكون بين الصفوف ويراها ويحسها حوله ولا يريد ان يكافح أو يقاتل أو يقاوم أو حتى يسير فى الطريق وحده .

١٠ ـ يقال أن المصرى ساذج ويتظاهر بالغفلة فى بعض الأحيان تمويها وبخاصة على حكامه الأجانب وأصدق مثل على ذلك بعض الأفراد الذين يتخذون الدروشة اسلوبا لحياتهم حول المساجد والمزارات وفى الموالد ويتظاهرون بالبلاهة والغفلة ويخلطون فى كلامهم بين الحكمة والهلوسة واستمروا سنين طويلة يقودون حملات الكراهية للحكام المتحكمين الغرباء عن المصريين من مماليك وأتراك الذين كانوا يغدقون عليهم العطايا والصدقات ولا يفهمون كلامهم ولغطهم ولكن الشعب المصرى هو الوحيد الذى يفهم وبعمق ما يقصدون ويفرق بين هلوستهم وحكمتهم ودعوتهم فى أثناء اذكارهم وأناشيدهم فكانوا فى الحقيقة دعاة تمرد وثورة وهياج ضد القهر والظلم والتحكم ويخلطون بين السذاجة والشيطنة والوعى الكامل فى اسلوب عميق بالدعوة للثورة لايفهم أبعاده الا المصرى الصميم الذى يبدو للظالم وكأنه فى غيبوبه .

١١ ـ الذهن المصرى عملى واقعي ومنطقى فى نظرته الى الدنيا (١٤) وحكمه على الأمور والناس شأن أبناء الأمم الزراعية فالغلة والأرض والنيل والفيضان والقحط والكوارث كلها لديه من الوقائع المحسوسة المحسوبة عقليا ولا تتصل بعالم الغيب . وليس أدل على ذلك من أمثلة الفلاح المصرى عند تعليقه على تسلسل الوقائع فى تسلسل الشهور القبطية من أمثلة بليغة صادقة عن التغيرات الجوية ومطابقة لتغير الفصول (١٥) لايتصل بعالم الغيب حيث كان من الأزل يتطلع الى التدين والايمان والانتظار فى أناة وبشيء يبدو أنه تسليم ولكنه تبعا لموروثات وأساطير ومعتقدات وعادات حتى استغرق فى عالمه السماوى ولكنه جعله عالما أرضيا عمليا

(١٤) نفس المصدر السابق ص ٣٥ .

(١٥) الأمثلة العامية التى تصاحب أسماء الأشهر القبطية يضبط بها الفلاح عمله الزراعى طبقا لبرنامج الطبيعة من أمطار وبرد ورطوبة ورياح وهبوب وخلافه .

ملموسا على الأرض ايمـــانا منـــه بالبعث حيث كان يحنط جثث موتاه ويزودهم فى مقابرهم باللازم من المأكولات وباللازم للحياة الثانية انتظارا للبعث ٠

١٢ ـ المصرى فى حياته عامل مجد وفى الوقت نفسـه عملى فى نظرته الى الحياة يعشق أرضه ويستكين الى تراب وطنه ولا يعشق الهجرة كباقى سكان معظم البـلاد الأخرى حيث اعتاد الانتظار وتحمله كما ينتظر المواسم الزراعية ٠

وينتظر كل شىء فى أوانه فهو صبور طويل البـال لايعجل بالشر ولا يتعجل الانتقام ولكنه يصبر لينتقم فى الوقت المناسب أو ينتظر عدوه اما ان يرحل عنه طواعية أو ينتظر عدوه مصابا يداهمه على يد غيره وهو لايقنع فى الثأر بما دون الايلام والايجاع ٠ وهذا الصبر الفردى ينعكس أيضا على الصبر الأسرى ٠

١٣ ـ المصرى يعتز بالشهامة ويقدرها ويتمسك بها وينجد الملهوف ويحمى المستجير وينصر الضعيف المغلوب على أمره ويكره الظلم والظالمين لذلك كانت سخريته فى تعليقاته وقفشـاته ونكاته تنصب كلهـا على مهاجمة الغطرسة والغفلة فمثال الرجل الكامل عندهم هو اللبق اليقظ الذى يتجنب الخشونة ويفطن الى الخداع والمراوغة ولا تجور عليه الحيلة ويرجع معظم هذه الطباع الى كثرة تحمله للمظالم وذلك أحوجه الى الحيلة وحسن التخلص من الشرور واضطراره الى التصرف بحذر وبكياسة توافق مصلحته وتليق بآدابه وموروثاته وتحميه من جشع وغش التجار الغرباء٠

مصر الثائرة

لكل ما ذكرناه من أبعاد وطبيعة وعوامل تكوين الشخصية المصرية فانها شخصية جبلت على الصبر على المكاره ولكنهـا لاتسكت الى مالانهاية على الظلم ولكنها تقاوم القهر والظلم وتتمرد فجأة بشكل مبالغ فيه على غير انتظار من المستبدين الظالمين ويرجع الفضـل فى ذلك الى تمسكها بهذه الصفات ٠ ولما كانت مصر بخيراتها ومكوناتها وسماحة أهلها فقد كانت مطمعا لحكامها من الأجانب والأصليين وتعرضت لكثير من استغلال هؤلاء الحكام لمستوى الظلم والاستبداد والقهر الذى لايحتمل فلم يتوقف الانسان المصرى عن التمرد ضد استبداد السلطة المركزية ولم يقف عند حدود الشكوى والمناجاة بل تعداها الى التمرد والثورة دفاعا عن مصالحه الاجتماعية والاقتصادية وتعددت هذه الثورات على مر التاريخ ٠

١ ـ الثورة الفلاحية الأولى حوالى عام ٢٢٨٠ ق٠م (١٦)

فى عهد آخر ملوك الأسرة السادسة (بيبى الثامن) شـهدت مصر فيها ثورة الفلاحين الشـاملة وفيها امتنع الفلاحـون عن دفـع الضرائب وهجموا على مخازن الحكومة واسـتولوا على ما بهـا واقتحموا المكاتب الحكومية وبعثروا محتوياتها واتلفوا سجلات الحاكم وقتلوا موظفى الدولة ومزقوا برديات القوانين فى الطرقات وأحرقوا قصور الملك والأغنيـاء وفتحوا قبورهم وبعثروا أشـلاءهم ٠ وجـاء فى بردية « نفرتى » تصوير للأحوال التى أدت الى اندلاع هذه الثورة يقول فيها « انظروا الى الصناع انهم لايعملون ، فقد أضاع أعداء البلاد ما فيها من حرف ٠ ان الذى يحصد الحصاد لايعلم عنه شيئا وذلك الذى لم يحصـد يملأ مخـازنه بالغلال وحيث ان هذه الثورة كانت ضد تآمر الكهنة مع الحكومة المركزية ضـد مصلحة الشعب فقد حققت هذه الثورة مكاسـب للفلاحين فى الاتجـاه للاستقلال عن المؤسسة الدينية الرسمية المستغلة فصار من حق الفلاحين ان يبنوا المقابر لموتاهم وان يشاركوا في المواكب الدينية وحق استخدام الرموز الدينية التى كانت مقصورة على الملوك وكانت حكرا عليهم ٠ وهذا النزوع الى الاستقلال فى العلاقات الدينية كان انتقاما من سلطة المؤسسة الدينية الرسمية والتى كانت ترفع الملوك الى مستوى الآلهة ٠

٢ ـ اضراب الفلاحين بالمحاجر (١٣٥٠ ـ ١٢٠٠ ق٠م)

فى أيام رمسيس الثانى ثانى ملوك الأسرة التاسـعة عشر أضرب الفلاحون المجندون للعمل فى المحاجر وتوقفوا عن العمل لسوء معاملتهم واستغلالهم واضطر رمسيس الثانى ان يتوجه اليهم فى مقر العمل ويلقى فيهم خطابا يضمنه ما يمـكن ان نعتبره **أول قانون عمـل فى التاريخ** حدد فيه رمسيس للعمال حقوقهم فى الطعام والماء البـارد للشرب وفى الملبس والعطر وحدد مدة العمل بشهر واحد بالتناوب لكل فلاح وحق أهلهم سواء كانوا فى الوجه البحرى أو الوجه القبلى فى الحصـول على الحبوب والفول والملح وما الى ذلك ٠

٣ ـ ثورة عمال المقابر (١١٦١ ق٠م٠)

فى عهد رمسيس الثالث توقف الفلاحون أثناء بناء المقابر الملكية عن العمل بسبب قلة الطعام الذى كان يصرف لهم ولم يعودوا الى العمـل الا بعد أن صرفت لهم مخصصاتهم كاملة ٠ وقد حققت هذه الثـورات

---

(١٦) الشخصية الوطنية المصرية د٠ طاهر عبد الحكيم ص ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ ٠

مكاسب أخرى لهم فأصبح لهؤلاء العمال ولكل العامة من المواطنين الحق في ادخال أبنائهم المدارس المخصصة لأولاد الموظفين ·

٤ ـ حرب احمس (١٥٠٠ ق·م)

على اعتبار ان هذه الحرب كانت حرب تحرير ضد الغزاة الهكسوس فانها كانت تعتبر ثورة · وقد شن احمس هذه الحرب التحريرية ضد الغزاة الهكسوس (١٥٠٠ ق·م) فكانت ثورة تحرر وطنى ·

٥ ـ حرب بساماتيك (حوالى ٦٦٣ ق·م) ·

والتى شنها بساماتيك لتحرير مصر من الآشوريين ·

٦ ـ ثورات فى عهد البطالسه (من ٣٣٢ الى ٣٠ ق·م)

فى أثناء حكم البطالسة الاغريق على مدى ٣٠٠ سنة كانت هناك ثلاث ثورات تحريرية ضد البطالسة بقيادة أمراء طيبة ·

٧ ـ حريق الاسكندرية (١٧)

عندما نزل الرومان شواطىء الاسكندرية قام الشعب المصرى باشعال النيران فى الاسكندرية لمقاومة هذا الغزو ·

٨ ـ ثورات المسيحية المصرية

كانت المسيحية المصرية عبارة عن ثورة وطنية دائمة ضد حكم الرومان والبيزنطيين (٣٠ ق·م الى ٦٤٠ م) ·

ثورات مصر فى العصر الحديث

لكى نتفهم ثورات مصر فى العصر الحديث وهو عصر التوسع الاستعمارى الأجنبى الطامع فى مصر فعلينا ان نتفهم فى ايجاز الغزوات التى تعرضت لها مصر والثورات التى اندلعت بها نتيجة هذه الأطماع الاستعمارية وما مارسته فى مصر من نهب وظلم واستبداد وعدوان على مقدسات البلاد ويمكن دراسة هذا التاريخ على ضوء السياسة الدولية وعلاقتها بهذه الظروف التى مرت على مصر · وهذه الدراسة تعتبر المدخل الأساسى لفهم الأحداث التاريخية فمنذ الحرب الصليبية والغرب يؤمن بأن من يملك مصر يملك مفتاح الباب الذى يؤدى للسيطرة على وسائل النقل

(١٧) خطط على مبارك جزء ٨ ص ٣٤ ·

البرى بين البحرين الأبيض والأحمر (قبل شق قناة السويس) وأصبح الغرب من وقتها يتربص ويخطط لغزو مصر والسيطرة عليها لما تتمتع به مصر من مركز جغرافى ممتاز وزعامة روحية اسلامية فكان الغرب منذ هذا التاريخ يتلمس الأسباب والعلل للاستيلاء على مصر تحت أكثر من ستار. فلم تكن مشروعات غزو مصر الا الانفجار الطبيعي لهذه الأفكار بحيث اعتبر الغرب ان مصر هي أقرب غنيمة يستهدفها في زحفه نحو الشرق • وحرص الاستعمار على خلق جو لتحقيق خطط الغزو واعتقد ان في مقدوره غزو مصر عن طريق الرشوة ونشر الفساد وتدبير المؤامرات وتحريض طوائف المصريين بعضهم على بعض وبذلك لايعدم الوسيلة التى تبرر لتدخله لتحقيق أهدافه • وكان الاستعمار يرى ان من يغزو مصر تتحقق له السيادة على الشرق ويكون له مركزا ممتازا يمكنه من فرض سيادته على جزء كبير من العالم حيث يمكنه وضع يده على وسائل التوسع في أفريقيا • لذلك كان غزو مصر عبارة عن منافسة دائمة بين فرنسا وانجلترا ، وكانت بريطانيا أكثر الدول الاستعمارية حرصا على انفرادها بغزو مصر لأجل حماية مستعمراتها فى آسيا والهند بصفة خاصة • ولم تكن الحملة الفرنسية ١٧٩٨ بقيادة بونابرت والحملة البريطانية بقيادة فريزر ١٨٠٧ الا تعبيرا عن هذه المنافسة واستمر ذلك حتى جاء محمد على واستولى على حكم مصر وعمل منها دولة قوية عسكريا واقتصاديا تأجل فى هذه الفترة التدخل الغربى فى شئون مصر ولكن لم تتوقف الأطماع الاستعمارية فأعادت الممارسات الاستعمارية والتدبيرات لاعادة غزو مصر بعد أن تأكدت من ضعف شئون مصر وضعف السلطة العثمانية المفروض أن مصر كانت خاضعة لها فكانت التدخلات الأجنبية السافرة منذ حكم الخديوى اسماعيل وكان ذروتها الخلل الاقتصادى والسياسى وحكم توفيق مما تسبب فى :

١ ـ الثورة العرابية

وهى ثورة المصريين فى مواجهة التدخل الأجنبى وسيطرته على خديوى مصر بما يضر بمصالح الأمة المصرية •

٢ ـ ثورة ١٩١٩

وفيها ثار المصريون على الاحتلال البريطانى الذى هزم الجيش المصرى وقضى مؤقتا على الثورة العرابية ومارس أسوأ أنواع القهر والاهانة والاستهانة بمقومات الشخصية المصرية • وقد حققت ثورة ١٩١٩ الكثير حتى انتكست نتيجة المؤامرة البريطانية والمخطط البريطانى الطويل النفس والذى كان قمته مؤامرة قتل سردار الجيش المصرى وحاكم السودان •

٣ ـ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

وفيها ثار الشعب المصرى على الاحتلال البريطانى وعلى ملك البلاد والأحزاب المصرية التى كانت هى والملك يعاونون الاحتـــلال البريطانى بشكل أو بآخر على استمرار البقاء واحتلال البلاد ٠

٤ ـ ومن قبل ذلك كانت ثورة المصريين ضد الحملة الفرنسية ٠

٥ ـ وكذلك ثورة شعب مصر فى رشيد ضد حملة فريزر ٠

تمهيد واجب

ان المقاومة الشعبية التي اندلعت في مصر بعد أيام قلائل من احتلال الجيوش الفرنسية للقاهرة ومصر منذ يوليو ١٧٩٨ حتى آكتوبر ١٨٠١ (ثلاثة سنوات وثلاثة أشهر فقط) كانت هذه المقاومة الشعبية عبارة عن حرب تحرير للتخلص من القهر الأجنبى وحيث ان حروب التحرير تعتبر بجميع المقاييس ثورة على القهر والاستغلال والتحكم ولأجل فهم أبعاد هذه الثورة التى عبرت عنها المقاومة الشعبية فى مواجهة الحملة الفرنسية بعد ان قضى الغزو الفرنسى على المكانة السيادية لطبقة أمراء المماليك وعلى المظهر السلطانى العثمانى على البلاد وأصبح الشعب مباشرة فى مواجهة مع المحتل الفرنسى ، لذلك وجدت من اللازم كتمهيد لهذه الثورة المصرية ان أتناول وصفا للمجتمع المصرى وتنظيمه الادارى والسياسى والاقتصادى وعلاقة مصر قبل الحملة الفرنسية بالدول المجاورة والقريبة منها وبخاصة الدولة العثمانية . لذلك كان من الواجب تحليل جذور مختلف قطاعات سكان مصر فيما قبل الحملة الفرنسية من غرباء وسكان أصليين ، من حكام ومحكومين وهذه ضرورة لازمة قبل تناول ثورات مصر فى هذه الفترة بأقاليمها وعواصمها وثورتى القاهرة الأولى والثانية فى مواجهة الحملة الفرنسية على ضوء تعريف الثورة وتقسيمها الى مراحل :

مصر وحكم العثمانيين

بعد استيلاء السلطان سليم العثماني على مصر (١٥١٧ م) (٩٢٣ هـ) وانتصاره على جيوش السلطان الغوري في مرج دابق ثم انتصاره على خليفته طومان باي في معركة الريدانية لم يمكث السلطان سليم في مصر الا حوالى ثمانية أشهر فقط عاد بعدها الى مقر الامبراطورية العثمانية (١٨) ليحكم قبضته على أطرافها المترامية • وقبل ان يغادر مصر انشأ نظاما سياسيا جديدا للحكم في مصر استمر هذا النظام من ١٥١٧ م الى ١٧٩٥ م حتى انه عندما أراد نابليون تنظيم ادارة الحكم في مصر درس واستفاد من النظام الذى وضعه سليم الأول ولكن بسيطرة فرنسية • وقد كان التنظيم السياسي والادارى الذى انشأه السلطان سليم يحقق دوام سيطرة الدولة العثمانية على الحكم في مصر واستمرار تبعيتها لتاج السلطان العمثاني فكان التنظيم كالآتى (١٩) :

أولا : الوالى التركى ويلقب بالباشا

وكان بمثابة السلطان ومقره القلعة ويبلغ أوامر السلطان لرجال الحكومة ويراقب تنفيذها ولكن سلطانه كان مقيدا أو محدودا لمدة سنة مالم يصدر فرمان بتجديدها •

ثانيا : رؤساء الجند وهي الفرق العثمانية ووظيفتهم كانت حفظ

(١٨) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر للأستاذ الرافعي جزء أول ص ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ •

(١٩) بعض المراجع التاريخية تنسب هذا التنظيم الى السلطان سليمان الذى سن للدولة العثمانية نظمها وقوانينها والذى لقب لذلك بسليمان القانوني •

النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وكانوا موزعين بين القاهرة ومعظم المدن ومنتظمين فى ستة فرق · وبعد ان استقر هذا النظام انتظم فى هذه الفرق (الوجاقات) كثير من المصريين واندمجوا فيه وأصبح لها صبغة محلية وهي :

١ ـ وجاق المتفرقة

وكان أفراده من خيرة حرس الباشا وبعض البكوات وبعض سراة التجار المناصرين للباشا ومن بعض الجند من الوجاقات الأخرى ·

٢ ـ وجاق الانكشارية (٢٠)

ويسمون بالمستحفظان (المستحفظين) بمعنى حفظ الأمن ورئيسه يسمي (٢١) « الأغا » (أغا الانكشارية) أى القائد للحامية العسكرية ومع الزمن أصبح أهم الوجاقات ثم مع مرور الزمن دخل هذا الوجاق العنصر المصرى خصوصا بعد ان انصرفت تركيا عن ارسال الجنود العثمانيين الى مصر فى عهد تقهقر الامبراطورية وحتى الأتراك الأصليين من أفراد هذا الوجاق ومع الزمن استوطنوا مصر واندمجت سلالاتهم مع أهلها · وكان الانكشارية جيشا غريبا وأساس عناصره فى بادىء الأمر أطفال أيتام يؤخذون من أبناء الأسرى وشهداء الجند العثمانية فيصبحون من أولاد « الباويشاه » أى السلطان (٢٢) ويقضون طفولتهم فى التدريب الخلقي والدينى والعسكرى بلا انتماءات الا للعقيدة الاسلامية ولا ولاء الا للدولة العثمانية ولا ملكية لهم الا سلطانية الشوربة (الحساء) · والشوربة كلمة تركية مشتقة فى الأصل التركى من أصل عربى « شربة » وحتى أصبح رئيس أركان حرب يطلق عليه « شوربجى باشا » أى الذى له الحق فى أعطاء الأمر بعمل الشوربة · وهذه هى الانكشارية التى ضمت أكثر من خمسة ملايين من غير الأتراك خلال ٣٠٠ سنة وهم الذين أسسوا ببطولاتهم وأخلاقياتهم مجد الامبراطورية العثمانية · ولكن فيما قبل الحملة الفرنسية مباشرة كان حالهم قد تدهور تماما مع تدهور الدولة العثمانية ·

٣ ـ وجاق العزب

وهم من المشاه وكان دائم التنافس مع وجاق الانكشارية ·

---

(٢٠) وأشهر سلالاتهم هى الأسر التى اشتهرت بلقب (الجندى) ·

(٢١) حوار فى أنقرة للأستاذ جلال كشك ص ٢٥ ·

(٢٢) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الرافعى جزء أول ص ٣١ الى ص ٣٤ ·

٤ ـ وجاق الاسباهية

وهم من الفرسان ومستقلة عن الباشا الوالى واندمج فيه بعد ذلك وجاق الشراكسة ٠

٥ ـ وجاق الشاويشية

وهو من الجند المشاة ومنهم بعض النســاء اللاتى توفى أزواجهن أثناء الخدمة العسكرية ٠

٦ ـ وجاق الهجانة

وكان واجبه حراسة الحدود ٠

٧ ـ وجاق التفكجية

المسئول عن صيانة الأسلحة ٠

وكان يطلق على أكبر الضباط (الأغا) أى رئيس الفــرقة ونائبــه يسمى (الكخيا) أو (الكتخدا) وأقدم ضابط يسمى (باش اختيار) والدفتردار هو رئيس الشئون الادارية والمالية وضبط الخراج والدخل وبيده ملكية الأراضى والعقارات فى ســجلات وكانت وظيفته تشبه وظيفة وزير المالية ٠ و (الخازندار) أى أمين المخازن وحامل الخراج سنويا الى الاستانة و (الروزنامجى) وهو المكلف بحفظ السجلات ٠

ثالثا : مجلس شورى الباشا (الديوان)

يتكون من اجتماع رؤساء وضباط هذه الفرق (الوجاقات) (رؤساء الجند) وكان لهذا المجلس سلطات كثيرة لأن الباشا (الوالى) لا يستطيع ان يبرم أمرا الا بموافقة أعضــاء الديوان واذا وقع خــلاف بين الباشــا ورؤساء الجند أو الوجاقات يرفع الأمر الى السلطان فى الاستانة ولأعضاء الديوان الحق فى ان يطلبوا عزل الوالى فسلطة أعضاء الوجاقات بمثابة الرقابة والاشراف على سلطة الوالى ٠

رابعا ـ الأمراء المماليك

أوجد السلطان سليم بجانب سلطة الوالى ورؤساء الجند سلطة ثالثة تحفظ التوازن بين الاثنين وهى سلطة الأمراء المماليك فكان منهــم حكام المديريات (الأمراء المصرية) وكانت البلاد مقسمة الى خمس مديريات (سنجقيات) وهى جرجا والغربية والشرقية والمنوفية والبحيرة وحكامها

المماليك يطلق على كل منهم (سنجق) أما مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم فكان يطلق على حكامها (الكشاف) وهم وكلاء البكوات فى حكم المديريات وكان الكشاف أقل رتبة من السنجق وكان لكل مديرية ديوان خاص بها مؤلف من الشوربجيــة (أركانات حرب الانكشــارية وغيرهم من الوجاقات) ووضعهم استشارى مظهرى فقط ٠

القبـــودانات

كانوا ثلاثة قباطين لثغور دمياط والسويس والاسـكندرية ٠ وكان تعيين الكاتخدا أو قباطين الثغور يصدر بهــا مرســوم من السلطان فى الاستانة أما باقى البكوات والسناجق فيعينهم الديوان بتصديق الوالى نيابة عن السلطان وكان عدد البكوات فى مصر ٢٤ بيكا من أمراء المماليك (السناجق والكشافين) وكان المماليك الذين حدد السلطان سليم أمراءهم (السناجق) وهم بقايا دولة المماليك :

(أ) دولة المماليك البحرية (٢٣)

وأصلهم من صبيان وغلمان ســكان أواســط آسيا وشمالها ممن كانوا يقعون فى الأسر مــع أسرهم فى أيدى الغزاة التتــار فيباعون فى أسواق الرقيق حيث كان التتار يندفعون أمام الأتراك فى أراضى روسيا وقد اشترى الملك الصالح نجم الدين الايوبى الكثير منهم وجعلهم خاصة جنده وحاشيته فى مصر (الدولة الايوبية) وأسكنهم جزيرة الروضــة وكان النيل فى هذه المنطقة يطلق عليه البحر الأعظم ولذا سموهم المماليك البحرية وأقام هناك « دار الصناعة » للسفن وقد تطور اسمها بالأفرنجية الى دارسنال ثم عادت الى العربية العامية « ترســانة » وكذلك أمير البحر التى صارت « ادميرال » ٠

(ب) دولة المماليك البرجية

وأصلهم من بلاد الشركس (شمال شرق تركيا (٢٤) وهم مشهورين بالجمال) والقوقاز وقد اشتراهم وأحضرهم السلطان المنصــور قلاوون وعهد اليهم حماية القلاع بالتترس فى الأبراج فسموا بالبرجية (أو ملوك الشراكسة) وجعل منهم السلطان ٢٤ (بيكا) أو (سنجقا) وهو السلطان سليم وألف منهم فى نظامه (الادارة المحلية) للبلاد وكان منهم أيضا كبار موظفى الحكومة مثل الكخيا (نائب الوالى) والدفتردار (وزير المالية)

---

(٢٣) تاريخ الحركة القومية جزء أول للاستاذ الرافعى ص ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ ٠

(٢٤) ومصطلح البرجية يعود الى ابراج القلعة التى كانوا يدرسون فيها الدين وفنون القتال ٠

ومسئول عن سجلات الملكية وانتقالها وحجج الوقف • (وأمير الحج) لمرافقة الحجاج وتوزيع الصدقات وهدايا الحرمين الشريفين ومع استمرار تدرج تدهور السيطرة العثمانية على مصر كانت تتزايد سلطات البكوات المماليك • فأحكم البكوات المماليك قبضتهم على نظام الحكم فى مصر وكانت ذروة قوتهم فى الفترة السابقة مباشرة للحملة الفرنسية على مصر حيث كانوا قد احتووا الوالى التركى وعزلوه عن طريق (أوده باشا) (٢٥) الذى كان يقول له « انزل ياباشا » فيترك الباشا منصبه فورا • وهكذا استعاد البكوات المماليك سلطة الحكم التى كانت للسلاطين البحرية والبرجية (الشراكسة) واغتصبوا كل شيء حتى مخصصات وسلطات الوالى العثمانى نفسه وجعلوا هذا الأخير بلا حول ولا قوة (طرطورا) فاذا أرادوا عزله اجتمع ديوان المماليك برئاسة شيخ البلد (أمير البلاد) واتخذوا قرار العزل ينفذونه عن طريق (أوده باشا) الذى يذهب الى الوالى التركى فى القلعة فى موكبه ويدخل على الباشا بكل احترام وينحنى ثم يثنى طرف السجادة الجالس عليها الوالى ويقول له انزل يا باشا فلا يتردد الباشا الوالى فى ترك منصبه فورا وينزل من القلعة الى أحد منازل القاهرة الى أن يرحل الى الاستانة أو يذبح بمعرفة البكوات المتآمرين •

ناموس المماليك (٢٦)

والمماليك رغم انهم كانوا من أجناس بيضاء مختلفة ومن أصول أسرية متفرقة فانهم ورثوا ناموسهم المتميز بالغدر والدسائس والتآمر والدموية حتى أصبح قانونا واسلوبا لحياتهم وحكمهم فمنذ أن فتح سليم الأول مصر فقد اعتمد على خيانة خيربك (٢٧) نائب أمير مصر فى حلب للسلطان الغورى آخر حكام مصر من المماليك وبذلك حق له ان يعينه سليم نائبا عنه أى والى لمصر قبل أن يرحل السلطان عائدا الى الاستانة •

وكذلك من الحوادث المشهورة فى الغدر انه فى طريق عودة أمير المماليك السلطان قطز بعد انتصاره على التتار فى معركة عين جالوت أن قام أقرب أعوانه بيبرس البندقدارى بالتآمر على سيده الأمير قطز وتخلص منه وذبحه بعد أن أوهمه وهو ممتطى صهوة جواده بالسلام عليه باليد وتقبيل يده وفجأة جذبه وأسقطه على الأرض من على حصانه

---

(٢٥) كان يطلق عليه أبو طبق امعانا فى التحقير ونسبه الى غطاء رأسه الذى يشبه الطبق وهو من أتفه ضباط الوجاقات •

(٢٦) ودخلت الخيل الأزهر للأستاذ جلال كشك ص ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ •

(٢٧) صحة اسمه « خاير بك » وكان شريكه فى الخيانة هو « جان بردى الغزالى » • نفس المصدر السابق •

(لأن المملوك اذا كان على جواده كان فى قوة العفاريت وبالعكس يصبح لاحول له ولا قوة اذا سقط على الأرض) وسرعان ما قام باقى الاتباع من المماليك باغماد سيوفهم فى سيدهم الأمير قطز وقام بيبرس بنفسه بذبحه وسلخ رأسه طبقا لطقوسهم وعاد بها على صينية من الفضة وقدمها الى مجلس البكوات (الاتابك) فاعترفوا فورا بناء على هذه المراسيم المملوكية بتنصيب المتآمر الأمير بيبرس أميرا على البلاد الذى تلقب بعد ذلك بلقب « الملك الظاهر » ٠

أخلاقيات المماليك (٢٨)

ورغم ما ورثه المماليك من طبيعة تنشئتهم المملوكية من تآمر وغدر ودموية الا أن هؤلاء الأمراء كانوا ينشئون فتيانهم ـ صبيان المماليك ـ بعد شرائهم من الباسرجية على تعاليم الدين الاسلامى واحترام رجال الدين (رجال الأزهر) وكان هؤلاء الأمراء وأتباعهم يبالغون فى هذه الطاعة والخضوع للشرع واقامة المنشئات الاسلامية والخيرية من مساجد ومدارس ومستشفيات وكلها كانت تتميز بالفن الاسلامى الرفيع معتمدين فى ذلك على أيدى أبناء الشعب المصرى من مهرة الحرفيين والصناع ٠

رد على اكذوبة كثير من المؤرخين

دأب كثير من المؤرخين وبخاصة فى العصر الحديث على الزعم بأن مصر فيما قبل الحملة الفرنسية كانت فى حالة فوضى كاملة واستمرت كذلك عدة قرون دون وجود أى مظهر من مظاهر الحكم أو الحكومة ولكن بعد تناولنا للنظام الادارى الذى وضعه السلطان سليم فى مصر منذ دخوله مصر عام ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) كان رغم انه موضوع أساسا لتثبيت الحكم العثمانى بمصر لاطول مدة الا انه كان حسب تناولنا لهذا النظام كان نظاما اداريا متقدما بالنسبة لعصره ودليل على قوة الحكومة وتحقيق أكبر قدر من السيطرة الادارية والمالية والسياسية على البلاد ولم تكن مصر أبدا فى فراغ تنظيمى ادارى حتى فترة التدهور الشامل أثناء حكم مراد بك وابراهيم بك فيما قبل الحملة الفرنسية مباشرة ٠ ويدعى هؤلاء المؤرخون المشوهون لتاريخ مصر انه لم يكن هناك أى شكل من أشكال الحكومة أو النظام فى مصر الى أن جاء نابليون فى الحملة الفرنسية وانشأ أول نظام حكومى بانشاء الدواوين ٠ ولكن هناك وثيقة تاريخية فرنسية (سابقة على الحملة الفرنسية بحوالى تسعين سنة) هى تقارير القنصل الفرنسى مسيو دى ماليبه Malliet عام ١٦٩٢ م يصف

---

(٢٨) نفس المصدر السابق ٠

فيها هذا الديوان وانعقاده وحضوره احدى اجتماعاته بما يثبت رسوخ هذا النظام الحكومى المصرى منذ القدم وقبل الحملة الفرنسية بمدة طويلة ٠

اين مكان المصرى فى هذا التنظيم ؟

بنظرة تحليلية لهذا التنظيم السلطانى العثمانى لحكم مصر نجد انه تجاهل تماما دور الرعية وهو الشعب المصرى بمعظم طوائفه فلم يجعل لهم الا تمثيلا رمزيا فى تشكيل الديوان (مجلس الشورى) والذى لاينعقد الا نادرا وبأمر الوالى (٢٩) فكان ضمن تشكيل هذا الديوان رؤساء المشايخ (علماء الأزهر) والأشراف ورؤساء الطرق الصوفية ورؤساء المذاهب الأربعة أما الممثلون الآخرون فكانوا كلهم من الأجانب الغرباء عن شعب مصر وجاقية وعسكر وغير ذلك وكان عددهم يفوق بكثير بل أضعاف أضعاف ممثلى الشعب المصرى ٠

كان هذا التمثيل السلطانى العثمانى بجانب القوانين التى تؤدى بالمقام الأول الى دوام خضوع مصر الزراعية بخيراتها وطاقاتها وأموالها لصالح ورخاء الامبراطورية العثمانية وليس لرخاء وصالح مصر وشعبها ناهيك عن استفحال نشاط اللصوص والخطافة من العربان وغيرهم الذين كانوا يحيطون بوادى النيل والدلتا ويتقاسمون نهب ثروات وخيرات الريف المصرى وسكانه الفلاحين بالاضافة الى البكوات المماليك اللصوص ومندوبيهم من رؤساء المنصر من الملتزمين (جامعى الأموال الأميرية والضرائب) ٠ فقد كانت حكومة الدولة العلية العثمانية فى مصر لا تتحمل أى مسئولية تجاه اعاشة الشعب حيث كان التاجية الفلاحين والعمال الحرفيين والتجار تكفى السادة الحكام كما تكفى نصيب اللصوص ولصوص الحكام والسناجق (أمراء المماليك) وموظفى الحكومة وحتى رشاوى القضاة الذين كانوا يعينون من الاستانة بالفرمان السلطانى ومعهم المترجمون وكلها كانت على نفقة المتقاضين من الرعية البائسة ٠ وكانت مصر فيما قبل الحملة الفرنسية مباشرة مقسمة من الناحية الادارية الى ستة عشر مديرية أو اقليم (سنجقية) (٣٠) تسعة بالوجه البحرى وسبعة بالوجه القبلى وكان تعداد مصر حوالى ثلاثة ملايين نفس وكان الشعب مقسما اجتماعيا وطائفيا الى :

---

(٢٩) تاريخ الحركة القومية (الحملة الفرنسية) جزء أول للأستاذ الرافعى من ص ٢٩ الى ٥٩ ٠

(٣٠) نفس المصدر السابق من ص ٢٩ الى ص ٥٩ ٠

١ ـ العلماء ومشايخ الأزهر (المعممون) (٣١) :

وكأن الأزهريون فى مقام ممثلى الشعب الحقيقيين فكانوا محل ثقة واحترام الشعب بجميع فئاته رغم ان كثيرا منهم كانوا من أقطار العالم الاسلامى المختلفة • وكان العامة عندما يصيبهم ظلم أو استبداد المماليك ويفيض بهم الكيل يلجئون الى مشايخهم ـ علماء الأزهر ـ يستنجدون بهم فيقومون عن الشعب بمواجهة المماليك ، وفى أغلب الأحيان كان أمراء المماليك يستجيبون لشفاعة واحتجاجات هؤلاء المشايخ نيابة عن المظلومين• وفى نفس الوقت (٣٢) اكتسب هؤلاء العلماء القدرة على احداث حالة شلل احتجاجى بالبلاد اذا أرادوا ذلك كنوع من الضغط لمواجهة عناد أمراء المماليك فى بعض الأحيان وذلك بحكم سيطرتهم على العامة وهى الأيدى المنتجة سواء فى مجال الصناعة أو الزراعة أو التجارة وبذلك يتوقف الانتاج وذلك بمجرد توقفهم عن قيام المؤذنين باعتلاء المآذن اعلانا للسخط العام بالاضافة الى قدرة هؤلاء المشايخ على قيادة المقاومة الشعبية الايجابية ولو بالأسلحة البدائية من نبابيت ومساوق وفؤوس أو حتى حجارة • وهؤلاء المعممون كانوا لا يخشون فى الحق لومة أى أمير ولا حتى الوالى أو السلطان كل ذلك يرجع الى ما كانوا يتحلون به من أخلاقيات وتعاليم الاسلام فاستمر الأزهر لمئات السنين فى رفع شأن هذه الأخلاقيات وبالتالى هذه الزعامة والقدرة على ارهاب الحكام الظلمة حتى فى أحلك أيام تدهور العالم الاسلامى فرغم مظاهر التفكك فى المجتمع المصرى فى هذا الوقت الا ان ما جاء عن مؤرخنا الجبرتى من تعريف بأقطاب الأزهر فى وفياته يدل على المستوى الرفيع من تمكنهم وتمسكهم بتعاليم الاسلام دينيا ودنيويا وبتجربتهم فى العلوم الحديثة وبخاصة فى الفلك كل ذلك كان بمعزل عن مؤامرات وممارسات وتعنت وفجر أمراء وكبار السادة الأتراك والذين كانوا جميعا يحملون لهؤلاء العلماء قدرا كبيرا من الاحترام كما كانوا يحرصون على اقامة شعائر الدين •

٢ ـ أولياء الله الصالحين :

رغم ايمان السواد الأعظم من الشعب المصرى بهذه الفئة والتى كان لها دور كبير فى تفريج الكرب عن الناس واعطاء الأمل بما كانت تملكه من الشفافية فى الاحساس الدينى الا ان نشاطهم الروحى كان قاصرا على الناحية النفسية الذاتية وتأثيرها العميق فى الراحة النفسية سواء للعامة أو حتى لطبقة الحكام والأمراء فكان لهم عظيم الأثر النفسى ولكنهم لتجردهم عن المادة ومباهج الدنيا وترفعهم عن رضاء السلاطين أو حتى غضبهم وعدم

---

(٣١) المصدر السابق ص ٦٧ •

(٣٢) ودخلت الخيل الأزهر للأستاذ جلال كشك ص ٧٣ •

دخولهم فى شعاب ومنحنيات السياسة بحكم شدة تدينهم لدرجة كشف الحجب فلم يكن لهم التأثير السياسى المؤثر كتأثير علماء الأزهر وهذا لا يمنع ان الحكام والأمراء كانوا يستجيبون لشفاعتهم عندما يطلبونها للشعب المظلوم وبخاصة ان معظم هؤلاء السلاطين كانوا يتبركون بهم فكان كل أمير أو سلطان ينتسب الى أحد هؤلاء الأولياء فطومان باى كان ينتسب الى الشيخ أبو السعود الجارجي والسلطان سليم كان يعتقد فى الشيخ الشعرانى والظاهر بيبرس كان يخشى من نفوذ السيد البدوى • وفى شدة تعلق العامة بالأولياء فقد أطلق العامة على « الشيخ الحنفى » لقب « السلطان الحنفى » لأنه يذكر عنه أنه تسبب فى اصابة السلطان بورم شديد عند غضبه عليه ولما عفا عنه بعد ان هدده بأنه سوف « يملخ ودانه » اذا عاد الى « قلة الأدب » فشفى السلطان وتاب عن ظلمه للشعب •

٣ ـ الملاك والتجار :

كان جميعهم من المصريين تقريبا ومنهم الكثيرون من ذوى الثروات المتوسطة وعدد قليل من الأثرياء كما كان منهم فئة من كبار الأعيان وكان لهم عصبة وسطوة يرهبها الحكام الى حد ما وبخاصة المماليك ، وكان لهم فى بعض مناطقهم وأحيائهم شبه استقلال ذاتى • وحيث كانت مصر مركزا للتجارة العالمية بين بلاد آسيا وأفريقيا والمغرب العربى وأوروبا وبالعكس فقد كون بعض التجار من أهالى مصر ثروات ضخمة نتيجة التعامل التجارى فكانوا بصفة عامة أغنى طبقات الشعب (٣٣) ، ولو ان حالهم تدهور بعض الشىء فيما قبل الحملة الفرنسية مباشرة نتيجة تحول طريق السفن للدوران حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند •

٤ ـ الموظفون :

كانت معظم الوظائف فى دواوين الدولة يشغلها المسلمون والأقباط على السواء وتخصص الأقباط فى العمليات الحسابية وكانوا محل ثقة البكوات المماليك ويقومون برسم السياسة الضريبية وتقديرها وتوزيعها على الأطيان والحاصلات وكان منهم الصيارفة ورؤساؤهم ويطلق عليهم المباشرون وكبار الملتزمين واعتمد أمراء المماليك عليهم فى ادارة شئونهم العمرانية والمالية وكان منهم الكتبة والمساحون ووصلوا لأرفع المناصب فى الدولة (٣٤) وعندما حضر الفرنسيون انتهزوا فرصة انهم أقلية بين المسلمين واستخدموا هذا الوضع فى احداث الفتنة والفرقة فكانوا يتعمدون

---

(٣٣) الحملة الفرنسية للأستاذ عبد الرحمن الرافعى جزء أول ص ٦٠ •
(٣٤) عائلة غالى تنتمى الى « المعلم غالى الجوهرى » وكان شبه وزير مالية لمحمد على •

استخدام كل ما يفرق بين الأقباط والمسلمين باعطاء الأقباط المراكز التى تستفز المسلمين ولكن كثيرا ما كان الشعب يفطن الى هذه المخططات ويقطع عليها خط الرجعة ٠

٥ ـ الصناع والحرفيون :

وكانت هــذه الطبقة من الشعب تزاول الصناعات الصغيرة وقـد اكتسبوا مهارة وخبرة حيث كانت صناعاتهم الخاصة بالملبس من غزل القطن والكتان والصوف والحرير والفرو وقلاع المراكب والتطريز كان لكل ذلك شهرة عالميـة وكانت معظمها تصدر الى الخارج كما كانت هناك الصــناعات المتعلقة بمواد العمران كالطوب ونحت الأحجــار والجبس والمصيص والطلاء والزجاج والفخار بالاضافة الى الصناعات الغذائيـة ٠ وكانت هنــاك صــناعة بنــاء السفن وصناعة البارود والجلل (القنابل) وصناعة الأسلحة واصلاحها وصيانتها (التفكجية) وسك النقود ٠ وكان لكل طائفة من الحرفيين أو الصناع تنظيم يرأسه شيخ يسمى شيخ الطائفة ينظر فى شئونهم ومصــالح الطائفة ولكل شيخ نائب أو وكيل يعرفون بالنقباء ويختارهم الحكام للمشــاركة فى تكوين الديوان وهى السلطة التشريعية فى البلاد فى ذلك الوقت ٠

٦ ـ المزارعون والفلاحون :

ويتكون منهم الشطر الأكبر من الأمة وكانوا فى حالة يرثى لها من البؤس والفاقه والجهل ٠ وكانت الزراعة فى تقهقر وتأخر بسبب تخلف وسائل ومنشئات الرى والصرف ٠ وكان الفلاح هو المالك الحقيقى لوسائل وأدوات الانتاج الزراعى والغذائى وكن مهمة أمرائه المماليك مركزة على نهب أكبر قدر من انتاجه ٠ وعندما يحاول الفلاح أن يخفى من المملوك انتاجه أو جزءا منه أو من ثروته تهربا من دفع الضرائب الباهظـة الظالمة (وكان غالبا ما يخفيها ويحتفظ بها تحت الأرض) فكان وكلاء السناجق من جامعى الضرائب يمعنون فى اهانته وضربه واستمرار حبسه الى أن يظهر المخبوء ، فاذا تجـاوز الضرب والاهانة الحد كانت الأهالى تلجأ الى زعماء الشعب من رجال الأزهر والعلماء المعممين أو الأولياء الصالحين ليرفعوا أصواتهم وظلاماتهم الى البكوات السناجق وغالبا ما كانوا يستجيبون لهم ٠ وعنـدما يفيض الظلم عن الحد كان الفلاحون يهجــرون أرضــهم الى المدينة أو يثورون فى وجوه الحكام المماليك فينقلبون عليهم بالقتل والحرق بالنار ٠

٧ ـ الخطافة واللصوص (الجعيدية) :

وكان هناك قطاع كبير من أشباه المواطنين الفاسدين بما يطلق عليهم

بالجعيدية وهم لصوص من الأعراب الذين يعيشون على الحدود وعلى أطراف الدلتا والوادى فكانوا متعودين على الاعارة على المصريين الحضريين وينهبون الفلاحين أثناء تنقلهم وكانت عسكر الأمراء غير قادرة على مقاومة هذه العصابات أو مطاردتهم أو تعقبهم • وكان سكان المدن من الشعب يتقون شرهم بعمل بوابات على الحوارى ويقوم أفراد منهم بالتناوب على حراستها أثناء الليل •

٩ ـ الدراويش :

بجانب ما سبق من هذه التشكيلة الشعبية المتباينة كان هناك عددا كبيرا من الدراويش والمجاذيب الذين يخلطون الشعوذة بالشيطنة بالعبط بالحكمة والسحرية من الحكام الظلمة (أمراء وبكوات المماليك وممثلى السلطان) فكانوا يروجون الأناشيد الدينية ممزوجة بالتظاهر بالبلاهة للمشكلة فى قالب الحكمة وكلها كلمات فى حقيقتها ساخرة ساخطة على الحكام المماليك والأتراك بشتى صورهم ودعاية مؤثرة ضد ظلمهم ونفختهم الكذابة وتوفظ فى الشعوب صورة الانتقام والتمرد ولو سلبيا باتقاء شرهم والدعوة للوقوف خارج حلقات صراعهم ودمويتهم وتآمر بعضهم على بعض • كان هؤلاء الدراويش أو المجاذيب محل عطف من جماهير الشعب المغلوب على أمره فعاشوا فى شبه عالة على الانتاج خلاف الفلاحين والحرفيين وباقى أفراد عامة الشعب فقد كان الجميع يحسنون عليهم بمحض ارادتهم عطفا عليهم وتبركا بهم وتقديرا لدورهم الخفى ونقديرا لمغزى معانى كلماتهم التسبه مهووسة وهؤلاء المجاذيب أو الدراويش كانوا يتواجدون وينتشرون فى العاصمة وباقى عواصم المديريات بجوار المساجد وأضرحة أولياء الله الصالحين ويتجولون فى القرى ويتكدسون ويتجمعون فى مواسم الموالد ويتحدون السلطة بالانجذاب والدروشة ، وحلوا مشكلة الارتزاق والتكسب برفض الانتماء الى المجتمع وانضموا الى طابور آكلى انتاج الفلاح والعامل المصرى ولكن برضائهم ومباركتهم •

الصمود الشعبى والمحافظة على مقوماته :

كل هذا الخليط الشعبى المتميز بتقاليده المصرية الموروثة والتى لم تتغير ولم تتبدل رغم توالى وتغير أجناس وأشكال الحكام ما داموا كانوا يعتنقون نفس عقيدتهم فقديما كانت ديانات قدماء المصريين وآلهتهم ثم المسيحية ثم الاسلام • وكان الشعب المصرى على مر الزمن يواجه فساد وظلم حكامه بالسخرية للنيل من سمعتهم بالنكته كنوع من التمرد البديل عن الثورة المؤجلة ويشكل بذلك صورة من صور التمرد والاحتجاج ومن وقت لآخر كانت هناك كثير من الانتفاضات الشعبية وقد تتصاعد الى حد الثورة عموما فان سخرية الشعب المصرى من الدخيل المسلم، كانت مركزة

على حكامه الغافلين الأجلاف الذين يطلقون عليهم أمراء رغم انه المصريين جميعا كانوا يعلمون تمام العلم انهم من أحط الأنواع البشرية لأن أصلهم شبه عبيد يباعون ويشترون عن طريق الباسرجية ولذلك أطلق عليهم مماليك لأن الذى كان يدفع الثمن يملكهم • وكان الشعب يطلق على البكوات (٣٥) والسناجق الألقاب الهزلية « بارم ديله » و « المنفوخ » و « أبو نبوت » لأن على بك الكبير ضربه بالنبوت « سنجق سته » وسته هى أرملة عمر بك • وكانت تزوجت هذا الأمير المملوك بعد ان قتل سيده عمر بك فعينته مكان سيده وخضع للست تماما و « جلب القرد » و « أبو مناخير فضة » و « السبع بنات » (وهم سبعة أمراء أتباع على بك الكبير كانوا قد ساعدوا محمد بك أبو الذهب مملوك على بك فى خيانة سيدهم والاشتراك فى الاجهاز عليه بسيوفهم غدرا ووضاعة) •

وعندما كان الشعب يتمرد ويستعين بزعمائه للاحتجاج لدى المماليك فان كثيرا ما كان هؤلاء الأمراء الخبثاء يمتصون هذا الغضب الشعبى بالتظاهر بالترضية والاستجابة أو التجاهل بعض الوقت وكل ذلك لتبريد انفعال الشعب المتمرد وتثبيط حماسهم لمدة كافية لتبريد هذا الحماس لما عرف عنهم ان المصرى منذ القدم عندما تنخفض درجة حماسه غالبا لا يعود الى الانفعال من أجل نفس الشىء مرة ثانية وبذلك تنتهى الأزمة والثورة لصالح الحكام ودهائهم وهذا هو الذى وعاه الانجليز وطبقوه فى مواجهة ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ فقد أحسنوا استخدام مرور الزمن وتطويل المدة حتى أجهزوا على الثورة تقريبا •

على بك الكبير

وقبل الحملة الفرنسية بحوالى اثنين وثلاثين سنة (١٧٦٧م/١١٨١هـ) استقل الأمير المملوكى على بك الكبير بمصر وطرد الوالى ولأول مرة بعد انحطاط الحكم المملوكى تطلع على بك الكبير للنهوض بالبلاد وتحقيق الأمن والأمان للرعية والبلاد فنشر العدل والاصلاح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كل ذلك رغم دمويته فى تصفية منافسيه من بكوات المماليك وكان من قلائل أمراء المماليك الذين أخذوا بقسط من العلم فقد كان يطالع الأخبار والسير للملوك المصرية وملوك الجراكسة (٣٦) وسياسة حكم العثمانيين وكان يجالس أهل الوقار والحشمة والعلم والمسنين ولما ملك على بك الكبير الديار المصرية والأقطار الحجازية والبلاد الشامية وقتل

---

(٣٥) ودخلت الخيل الأزهر للأستاذ جلال كشك ص ١٠٠ •

(٣٦) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للشيخ عبد الرحمن الجبرتى الجزء الأول من ص ٢٥٢ الى ٣٨٥ •

المتمردين وقطع المعـاندين وشتت شـمل المنافقين وخرق القواعد وحزم العوائد وأخرب البيوت القديمة وكان يطارد المستبدين والظالمين واللصوص والرشوات والجعالات ويعاقبهم بالضرب الشديد والاهانة والقتل والنفي الى البـلاد البعيدة ولم يحـاب في ذلك أحدا سواء كان منعما أو فقيها أو كاتبا أو قاضيا أو غير ذلك ٠

فقد طارد وقضى على قطاع الطرق المنتشرين على أطراف وادى النيل من العرب الخطافة فانكمشوا عن قبائحهم وايذائهم فعم الأمان ٠ وكان على بك الكبير شـديد الفراسـة شـديد الحذق ويتقن أساليب الحكم ويقرأ التقارير والصكوك والوثائق ٠ وبعد ان عزل الوالى التركى وثبت نفسه امتنع عن دفع الخراج (١٧٦٩ م ـ ١١٨٣ هـ) للسلطان العثمانى ومنع وورود الولاة العثمانيين وضرب النقود باسمه ودانت له مصر بحريها وقبليها وكان من مماليكه وأتبعه احمد (باشا) الجزار ومحمد بك أبو الذهب واسماعيل بك وحسن بك الجداوى وابراهيم بك ومراد بك ٠ وكان على بك طموحا واسع الأطماع (٣٧) فجرد الجيوش وفتح الجزيرة العربية ونادى به شريف مكة (سلطان مصر وخاقان البحرين ٠ وأوفد محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا وفتح معظمها ولم يكد محمد بك أبو الذهب يتم فتح دمشق حتى انقلب على سيده وقامت بينه وبين سيده الحرب وانتهت بقتل على بك الكبير سنة ١٧٧٣ م فصارت مصر ولاية عثمانيـة ودانت امارتها لمحمد بك أبو الذهب (واستقر شيخا للبلد) ومكافأة له عينه سلطان تركيا حاكمـا على مصر وأرسلت تركيا الولاة كما كان قديما ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد محمد بك أبو الذهب الذى كان يختار الوالى الذى يرتضيه ومات محمـد بك أبو الدهب ميتة طبيعية (سـنة ١٧٧٥ م ـ ١١٨٩ هـ) على غير ناموس المماليك فلم يعط الفرصة لتلاميذه بالتآمر عليه وذبحه وسلخ رأسه كالعادة مخلفا فى مشيخة البلد ابراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك وهما الأميران اللذان عاصرا الحملة الفرنسية

ابراهيم بك ومراد بك

وكان كل منهما أسوأ من الآخر وان كان الأسوأ مراد لأن ابراهيم بك كان عاقلا وسياسيا بمقياس زمنه وعلى أيه حال فقد أعاد الاثنان الى حكم مصر الفساد والفوضى والاستبداد بالرعية واستنزاف ثروات البلاد والأهالى وبعد ان أمعن الأميران فى الاستهتار بالوالى (نائب السلطان) شاركاه فى حقه فى الخراج مما اعتبرته الاستانة خروجا على السلطان فأرسلت الاستانة حملة لتأديبهما بقيادة حسن باشا (القبطان ١٢٠١ هـ ـ

(٣٧) نفس المصدر السابق بالاضافة الى كتاب تاريخ الحركة القومية جزء أول للرافعى ص ٣٧ ٠

١٧٨٦ م) وبمجرد وصول الأسطول العثماني الى أرض مصر ساهم شعب مصر مساهمة مؤثرة في مطاردة الأميرين المارقين مراد بك وابراهيم بك فساعدوا جنود الحملة التركية في المطاردة حتى هرب الأميران الى الصعيد ولم يعودا الا بعد ان اضطرت الحملة التركية لمغادرة البلاد المصرية لنجدة الجيوش التركية في حربها مع عدوها التقليدي الروسي واستمر مراد بك وابراهيم بك في حكم مصر ١٣ سنة بنفس الاسلوب الفاسد الى أن حضرت الحملة الفرنسية في شهر محرم ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) واشترك الأميران مع الخطافة واللصوص وعرب الصحراء في نهب الشعب المصري بالاشتراك مع من كان يطلق عليهم بالجعيدية .

القبطان باشا أسوأ من المماليك والشعب ضحية (٣٨)

ولم يحصل من مجيء حسن باشا القبطان الىمصر وذهابه الا الضرر ولم يبطل بدعه ولم يرفع ظلما وخابت فيه الآمال والظنون ونهب البلاد فصار يقبض من البلاد خلاف أموال الخراج عدة أقلام منها المضاف والبراني وعوائد الكشوفيـة والفـرد المتعددة لرفع المظـالم . وكان هذا القبطان التركي هو آخـر أمل للشعب المصري انتظارا لحاكم عادل يرفع عن كاهله الظلم الذي استشرى على يد المملوكيين مراد بك وابراهيم بك فخاب ظن الشعب المصري حتى في آخر مظهر من مظاهر السلطنة التركية المفروض انها اسلامية ومركز خلافة المسلمين وعادت مصر مرة أخرى تواجه ظلم وتحكم أمراء المماليك والوالي العثماني الباشا الذي كان دوره مقتصرا على ارسال الجزية للاستانة ثم النهب لمصلحته هو وفجأة وفي هذه البيئة الخانقة من فساد الحكام على جميع أشكالهم تبتلى مصر بالحملة الفرنسية ليضاف مزيد من المعاناة للشعب المصري المغلوب على أمره ووقف الشعب وحده ومؤسسته الوطنية المتمثلة في مشايخ الأزهر في وجه هذا الغزو الأجنبي .

الأطماع الفرنسية الانجليزية في مصر

غزو مصر كان دائما موضع المنافسة بين فرنسا وانجلترا وظل هذا التسابق بينهما لمدة طويلة وفي سبيل الاعداد لغزو مصر قامت فرنسا وانجلترا كل لحسابهـا الخاص بايفـاد عملاء عسكريين وعلماء في شتى المجالات متنكرين تحت مظاهر مختلفـة ، وكان من بينهـم خبراء في الملاحة (٣٩) والطبوغرافيا وفي الخرائط العسكرية ولم يتركوا بقعة في

(٣٨) الجبرتي جزء ٢ ص ١٤٦ .

(٣٩) كتاب الغرب والشرق للأستاذ محمد على الفتيت ـ المرحلة الأولى في الصراع بين الشرق والغرب (غزوات الغرب لمصر) ص ١٢٩ .

أرض مصر دون استكشافها . كل هذا التطلع لمصر يرجع الى ما كانت تتمتع به مصر من المركز الجغرافى الممتاز وسيطرة هذا الموقع على وسائل النقل البرى بين البحرين الأبيض والأحمر وبذلك نكون مفتاح الطريق الى آسيا وافريقيا .

وقامت فرنسا منذ عهد الملك لويس(*) الخامس عشر بالتطلع لغزو مصر وكان للوزير الفرنسي فى حكومة شوازيل (Choiseul) دراسة وثائقية عن ذلك فى كتابه المؤرخ فى ١٧ يوليو سنة ١٧٦٨ ممايكشف عن هذا الدور التحضيرى لهذا الغزو والتطلع الى مصر . وكان المدعو مجالون (Magallon) قنصل فرنسا العام فى مصر فى ذلك الوقت يقوم لحساب الوزير شوازيل بادارة أعمال التجسس والتحضير لغزو مصر . وكان من أبرز العلماء الفرنسيين فى مصر فى ذلك الوقت والذى قام بعمل دراسات استراتيجية واسعة عن مصر هو المدعو سونينى (Sonini) سنة ١٧٦٨ اذ كان مكلفا بغرس بذور التفرقة بين الأقباط والمسلمين فى مصر ونجح فى ذلك لدرجة أنه عند اقتراب الجيش الفرنسى بقيادة بونابرت من القاهرة كادت ان تحدث فتنة ومذبحة طائفية بتحرش الأهالى المسلمين بالأقباط لولا تدخل أمراء المماليك لحمايتهم للأقباط قبل استفحال الفتنة . وقد عمل عملاء فرنسا كذلك على ان يحتكر عملاؤهم من المصريين لتجارة المحاصيل الزراعية والحبوب باقامة مخازن لهم على ضفاف نهر النيل من الاسكندرية الى أسوان حتى تكون بمثابة مخازن للجيش الفرنسى لتموينه عند الغزو . بالاضافة الى المعلومات عن طبيعة الشخصية المصرية والشخصيات الهامة والتحليل الاجتماعى لشتى الطبقات والطوائف فى مصر . كما عمل عملاء فرنسا أيضا على استمالة زعماء البدو على حدود مصر ليأمنوا ظهر جيشهم عند الغزو على الأقل بالتزام البدو جانب الحياد أو بقيامهم بنشر حالة الذعر وعدم الاطمئنان الشعبى بالسلب والنهب للأهالى والقرى والفلاحين أثناء تقدم الزحف ولكن خاب ظن هؤلاء الجواسيس حيث قام عرب الصحراء الغربية بدور وطنى دفاعى مجيد . وكان أحسن توقيت لهذا الغزو هو حالة التدهور الذى أصاب الامبراطورية العثمانية التى كانت مكلفة بحماية مصر عسكريا باعتبارها ولاية عثمانية وكانت تركيا قد أهملت مصر وتوقفت عن تقويتها عسكريا أو تحصينها للدفاع عن نفسها وبذلك أصبحت قابلة للاستسلام الشامل ولقد ادعى الغزو الفرنسى انه حضر لحماية مصالح وحقوق الامبراطورية العثمانية بالقضاء على المماليك الذين تمردوا وظلموا » ولكن كل ما كان يسبب القلق للفرنسيين الغزاة هو توقع احتمال مقاومة الشعب المصرى لهذا الغزو حتى بعد انكسار القوات التركية الرمزية أو قوات المماليك وفعلا حدث هذا بالضبط .

(*) نفس المصدر السابق .

الغزو الفرنسي لمصر

والتفاعلات الشعبية

الحملة الفرنسية وأهدافها

كانت أهداف نابليون من غزو مصر هى :

١ ـ انشاء مستعمرة فرنسية فى مصر نظرا لأهمية موقعها الجغرافى بين القارات واعتبارها مجالا لتصريف البضائع الفرنسية ٠

٢ ـ شق قناة فى مصر تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر وبذلك يمكن أن تصل السفن الفرنسية الى البحر الأحمر ونهدد أملاك الانجليز فى الهند وتكون مصر قاعدة للسيطرة على الطريق الى الهند ٠

٣ ـ انشاء دولة فرنسية شرقية كبيرة وقاعدة للسيطرة على موانى البحر الأبيض ٠

مخادعة الانجليز (١)

أشاعت فرنسا انها تعد جيشا لمهاجمة الجزر البريطانية لذلك فقد ركزت انجلترا على مراقبة بوغاز جبل طارق وفى نفس الوقت احتاطت وكلفت الاميرال نلســـون بالتجول فى البحـر الأبيض لمراقبة تحركات الاسطول الفرنسى ٠

استعدادات الحملة

حشــد نابليون لهذه الحملة ٣٦٠٠٠ مقاتل بقيــادة صفوة ضباطه وأقلعت العبارة الفرنسية من ميناء طولون فى ١٠ مايو ١٧٩٨ واستولت

(١) نفس المصدر السابق ٠

على جزيرة مالطة دون قتال يذكر وجعلتها قاعدة لها وجندوا من مالطة جيشا من المالطيين حوالى ٢٠٠٠ مقاتل وأقلعوا منها ١٩ يونيو ١٧٩٨ وأمكنهم مراوغة الاسطول البريطانى حتى وصلوا الى غرب الاسكندرية فى ليلة ٢ يوليو ١٧٩٨ واصطحب نابليون معه فى الحملة طائفة من خيرة علماء فرنسا ونوابغها فى الرياضيات والطب والهندسة والجغرافيا والفلك والأدب والكيمياء والاقتصاد السياسى والآثار والمعادن وعلماء طبقات الأرض والحيوان وحشد من رجال الفنون والمصورين والرسامين والموسيقيين والنقاشين والمثالين • فاذا ما اعتبرنا الغزو بصفة عامة هو استغلال أقلية فرنسية (جيش فرنسى) للتحكم وقهر أغلبية هى مجموع سكان مصر وان مقـاومة الشعب المصرى لهـذه الحرب العدوانية هو حرب تحررية يمارسها الأغلبية وهى شعب مصر للتخلص من هذا الاحتلال فهذا الموقف الشعبى المصرى ينطبق عليه التعريف الثورى وكانت المقـاومة المصرية للاحتلال الفرنسى بمثابة ثورة بمراحلها المتعارف عليها من تعريفنا فى صدر هذا الكتاب ولذا يمكن تقسيم الغزو الفرنسى وبقائه محتلا والمقاومة الشعبية المصرية الى مراحل الثورة •

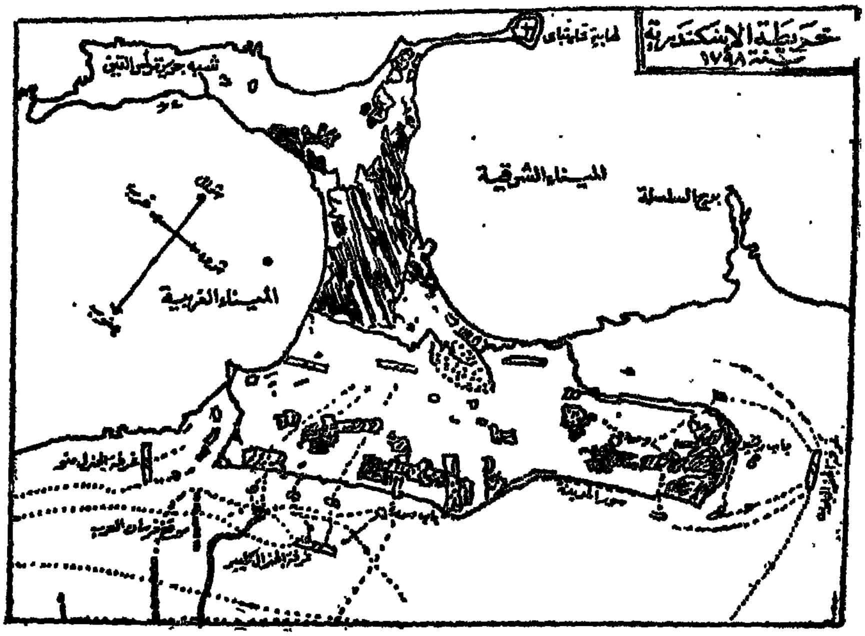
أولا : مرحلة الغزو (مرحلة استغلال الأغلبية للأغلبية)

وهى مرحلة قهر وتحكم الأقلية وهو جيش فرنسا بقيادة بونابرت وقوامه ٣٦٠٠٠ مقاتل للأغلبية المقهورة وهى مجموع الشعب المصرى وقتها وكان تعداده ٣ مليون نسمة « ففى يوم أول يوليو سنة ١٧٩٨ حضر (٢) الى ثغر الاسكندرية عشرة مراكب انجليزية ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر وبعد قليل حضر خمسة عشر مركبا أخرى وبعد قليل حضر الى الشاطىء مركب منها صغير وفيه عشرة أنفار اجتمعوا بكبار رجال البلد الذين كانوا منتظرين على الشاطىء وكان رئيسهم المشـار اليه بالابرام والنقض هو السيد محمد كريم (٣) وأخبروه بأنهم انجليز حضروا للبحث عن الفرنسيين الذين خرجوا من بلادهم فى اسـطول كبير لا يعرفون هم وجهتهم وان الانجليز يعتقدون ان الفرنسيين يريدون غزو مصر وان اسطول الانجليز وقواته حضروا لحماية مصر من غزو الفرنسيين » • ورفض السيد محمد كريم هذا العرض ولما طلبوا منهم التزود بالماء والزاد أجابهم لذلك ولأنه طلب منهم العودة من حيث أتوا وان بلاده مصر هى بلاد السلطان التركى وهو الذى يدافع عنها • ثم أرسل السيد محمد كريم فى الحال كتابا بذلك الى حكام مصر بالقاهرة وكان الوالى بكر باشا وشيخا البلد

---

(٢) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتى جزء ص ٢ و ٣ و ٤ بنفس اسلوب المؤرخ واسلوب عصره •

(٣) كان فى مرتبة محافظ المدينة •



خريطة الاسكندرية سنة ١٧٩٨ — وتبدو بها بعض المعالم القديمة والحديثة ، كسور
والخطوط المائلة تمثل حدود عمران المدينة فى أواخر القرن الثامن عشر (انظر ص ١٥٩) ،
الجيش الفرنسى فى هجومهم على السور الذى كان أهالى الاسكندرية يدافعون عنه كما تراه
الاسكندرية ، وباب سدرة وباب رشيد ، وعمود السوارى ، وطابية قايتباى ، وبرج السلسلة .

الأميران مراد بك وابراهيم بك وأقلع رسل الانجليز من الثغر وأرسل محمد كريم الى كاشف الجيزة (الحاكم الادارى) (٤) ولجميع العربان واتخذوا احتياطات الدفاع عن الثغر ٠

الغزو الفرنسي (٢ يوليو سنة ١٧٩٨)

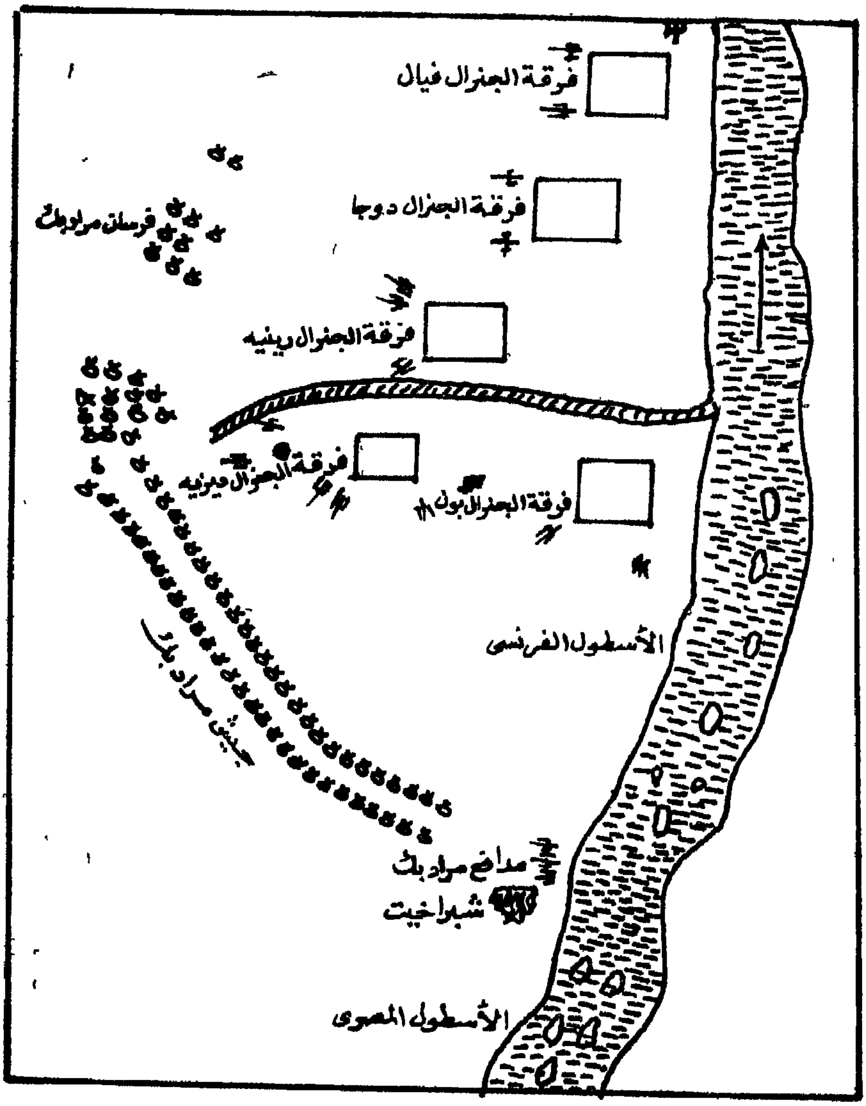
وفى يوم ١٨ محرم سنة ١٢١٣ هـ (٢ يوليو ١٧٩٨) حضر عدد كبير من مراكب الفرنسيين ونزلوا على شاطىء العجمى بأسلحتهم ومعداتهم الحربية وفوجىء أهل الاسكندرية صباح (١٩ محرم ١٢١٣ — ٣ يوليو ١٧٩٨) بأعداد هائلة من الجنود الفرنسيين فى حين انضم للاسكندرية أهالى البحيرة ومعهم كاشفهم والعربان لمقاومة هذا الغزو قدر طاقتهم ثم تراجع الأهالى الى المنازل والشوارع وتحصنوا بها وبدؤا المقاومة الشعبية التى عطلت الجنود الفرنسيين بعض الوقت ولكنهم فى النهاية سلموا يطلبون الأمان بعد تدمير الفرنسيين لمنازلهم وحرقها ورغم ذلك فقد استمر محمد كريم يقاوم ببسالة بما لديه من مدافع قليلة وقديمة وذخيرة محدودة ٠ مجمل القول ان الاسكندرية مثلها مثل باقى أنحاء مصر وكانت خلوا من وسائل الدفاع والحماية لتدهور الأحوال العسكرية وكان هذا هو حال سائر البلاد العثمانية ٠ وبعد ان ثبت نابليون قدمه فى الاسكندرية بدأ زحفه فى اتجاه القاهرة عن طريق دمنهور وأمر جنوده بالزحف مخترقا أراضى صحراوية قاحلة فى ذلك الوقت ٠ وفى نفس الوقت كلف نابليون الجنرال (دوجا) باحتلال رشيد وأمره ان يتقدم بعد ذلك الى الرحمانية ليلتقى بالجيش القادم عن طريق دمنهور ٠ ولقى الجنود الفرنسيون عناءا كبيرا من القيظ والعطش حيث دمرت الأهالى فى مقاومة شعبية آبار المياه على طريق زحف الفرنسيين وأخيرا بلغت القوات الفرنسية الرحمانية فى ١٠ يوليو سنة ١٧٩٨ ٠

بعد ان وصلت الأخبار القاهرة كانت القاهرة على قدم وساق من الاستعدادات واجتمع الوالى بكر باشا مع مراد بك وابراهيم بك وأمروا بنداء الشعب للجهاد (٥) ولبى الجميع الأمر بقيادة نقيب الاشراف السيد عمر مكرم وتجهز الجميع عند بولاق متسلحين بالعصى والمساوق والفئوس وبعض الأسلحة النارية القليلة ٠ أما القوات الأساسية من فرسان المماليك

---

(٤) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الرافعى جزء أول ص ٢٣ ٠ وكلمة كاشف وكشاف مأخوذة من فعل كشف لأن الأصل فى وظيفته ان يكشف أحوال المديرية والكاشف كان يحكم المديرية أو جزء منها باسم البك فالكاشف كان بمثابة المدير أو مأمور المركز اذا كان يحكم جزءا من المديرية وكان يقوم باعمال السنجق ولكن لكونه من الشعب المصرى فكانوا يطلقون عليه الكاشف ٠

(٥) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الرافعى جزء أول ص ١٩٣ ٠



خريطة معركة شبراخيت ــ ١٣ يولية سنة ١٧٩٨

هذه هى المعركة التى سميت معركة « شبراخيت » ، وتلك رواية المراجع الفرنسية عنها ، ومنها يتبين ان القسط الذى احتمله الأهالى فى هذه المعركة كان كبيرا ، بل كان أكبر من قسط المماليك ٠

فقد عسكرت على شواطىء أمبابة مع حشد كبير من جميع المراكب وغلايين المماليك بالنيل محملة بالأسلحة والذخيرة والمدافع وصار البر الشرقى والعربى للنيل مملوئين بالمدافع والعسكر والمتاريس والخيالة • وخرج مراد بك بفرسانه ومراكبه المحملة بالمدافع لملاقاة الفرنسيين فى البحيرة •

معركة شبراخيت (٢٩ محرم ١٢١٣ هـ — ١٣ يوليو ١٧٩٨)

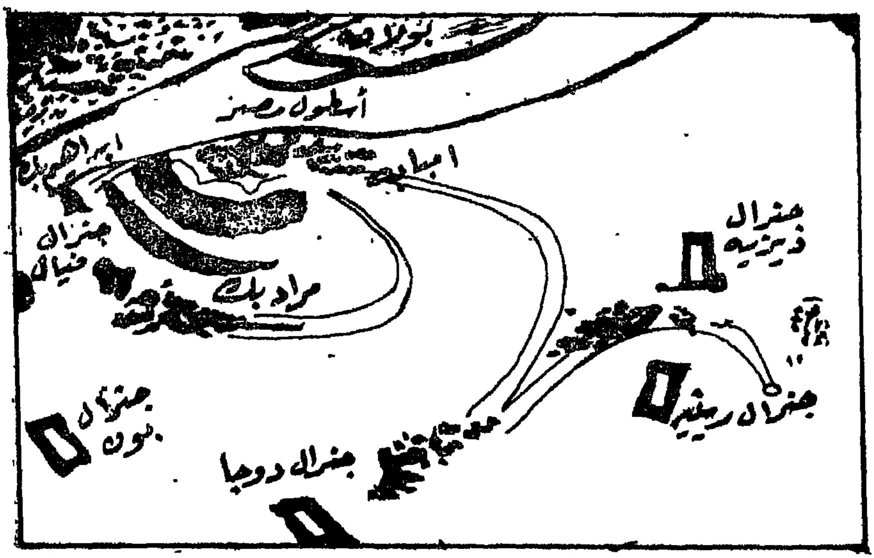
التقى مراد بك بالفرنسيين بالقرب من شبراخيت وبذل مع أمرائه الفرسان أقصى جهدهم ولكن عدة الفرنسيين وأسلحتهم الحديثة تغلبت فى النهاية على شجاعة فرسان المماليك وأحرق الجنود الفرنسيون مراكب مراد بك وعاد مراد بك مع ما بقى من جنود فرسانه لينضم الى قوات القاهرة قام الفرنسيون بعد معركة شبراخيت بقيادة بونابرت بالزحف الى القاهرة محملين قواتهم على المراكب فى النيل وعلى الأقدام على الشاطىء ووزع نابليون المنشورات والتحذيرات على القرى فى الطريق وكانت هناك كثير من المقاومات من الفلاحين والعربان على طريق تقدم الفرنسيين • وكان بونابرت وجنوده يغالون فى التنكيل والاساءة الى جثث القتلى من فرسان المماليك ورجال المقاومة من المصريين والعربان وذلك جعل المقاومة تشتد كلما تقدم الجيش الفرنسى على الطريق رغم المنشورات والتحذيرات الفرنسية بعد ان رأى الشعب بعينيه ما حدث من تنكيل وذبح وتمثيل بجثث القتلى •

معركة امبابه (٦) (٢١ يوليو ١٧٩٨ م — ٧ صفر ١٢١٣ هـ)

وأخيرا عند بشتيل وبالقرب من امبابة أقام المماليك بقيادة مراد بك خطا دفاعيا عندما علموا بتقدم الفرنسيين فى النيل وعلى شواطئه وكان قد انضم الى جيش مراد بك العساكر الأرناؤود القادمون من دمياط كما انضم عدد كبير من الأهالى فى المتاريس مسلحين بالأسلحة البيضاء والفئوس والنبابيت والمساوق والسكاكين وأقاموا مانعا بدائيا على النيل عبارة عن جنازير حديد مشدودة بين شاطىء النيل • وقاتل الجميع ببسالة وخاصة فرسان المماليك الذين أبلوا بلاءا حسنا وقتل فى هذا الاشتباك أشجع الفرسان كايوب بك الدفتردار ومن قادة المصريين عبد الله الجرف وعدد كبير من كشافى (وكلاء محافظين) محمد بك الألفى • وأخيرا انهزمت شجاعة المماليك والمصريين التى كان ينقصها السلاح الحديث المؤثر وازاء التفوق الساحق لنوعية سلاح الفرنسيين وعددهم وعدتهم فوقعت الهزيمة المحتومة وهرب جميع أمراء المماليك من الميدان تاركين العامة يقودهم رجال الأزهر يواجهون الاحتلال الفرنسى •

---

(٦) نفس المصدر السابق ص ٢٠٢ •



تفاصيل معركة امبابة ٢١ يوليو ١٧٩٨

أما فى القاهرة فكان الرفض المصرى يشكل حركة وطنيـــة ثورية تشمل الأمة كلهـا بكل طوائفهـا وطبقاتها فالجميع فى شـوارع القاهرة يقاتلون ببســالة وتضحية تذهل نابليون والفلاحون يشنون أول حـرب فلاحية فى تاريخ الشرق وحتى الأغنياء وسائر الناس لم يكونوا أقل وطنية واستعدادا للبذل والتضحية وكانت الأمة المصرية بغريزتها الصادقة وبما تعرفه عن السلوك الاستعمارى الظالم وبما ترسب فى ذاكرتها من ممارسات الحروب الصليبية التى شنتها الفرنجة (٧) على بلاد العرب (١٠٩٥ م) كانت تدرك انها مطالبة بالقتال دفاعا عن وجودها وكيانها ومصالحها ٠ ورغم تفوق نابليون العسكرى بالاضـافة الى أسلوبه الثقافى الاستعمارى فى محاولة ملاينة واستمالة الشعب المصرى الا انه بالعكس قوبل بمقاومة عنيفة لا شك انها كانت تثبت حقيقة سجلهـا أحد المؤرخين الفرنسيين (جنرال لوجيه) بقوله « كان الاسلام بالطبع هو الحائل الأكبر دون هذا الجو المنشود من الثقة المتبادلة » (التى حاول نابليون غرزها) ٠

طلب الأمان (٨) وبعد انتهاء معركة امبابة لصالح الفرنسيين اعتقد الفرنسيون ان الأمر استتب لهم فقاموا بتوزيع المنشورات المضللة محاولين مخادعة العامة مدعين أنهم حضروا للمحافظـة على حقوق السلطان التركى المسلم وانهم سيحكمون بمبادىء الاسلام ٠ وقام الفرنسيون بتوزيع هذه المنشورات وهذه النداءات والتى لم تنطل أهدافها على العامة بفضل توعية قادتهم الأزهريين وأخذ الفرنسيون يلصقونها على الحيطان ٠

اعادة تنظيم جهاز الحكم فى مصر

قام الفرنسيون بعد دراسة أسلوب الحكم فى مصر وبعد ان راجع نابليون نظام الحكومة المصرية والذى كان عبارة عن مجموعة من القوانين والنظم التى أحكم وضعها السلطان سليم الأول منذ فتحه لمصر لكى يضمن السيطرة العثمانية على البلاد المصرية حيث كان نظام الحكم وقت الغزو الفرنسى يتلخص فى سلطة الوالى التركى الاسـمية (وأميرا للمماليك) ويطلق عليه شيخ البلد وكان بمثابة رئيس الوزراء ويعاونه ٢٤ عضوا من أمراء المماليك وهم أعضـاء الديوان أى أعضاء الوزارة وهم فى نفس الوقت حكام المديريات (المحافظات) سـناجق ٠ وأراد بونابرت ان يعيد التنظيم الحـكومى بما يحقق السيطرة الفرنسية الكاملة مع تحقيق شىء من ولاء زعمـاء الشعب وبالتـالى بتعيينهم فى هذا التنظيم فيضمن ولاء الشعب للسلطات الفرنسية فقد جاء التنظيم الفرنسى على شكل ديوان أيضا ٠

---

(٧) ودخلت الجيوش الأزهر للأستاذ جلال كشك ص ١٦٦ ص ١٨٢ ، ص ١٨٣ ٠

(٨) الحملة الفرنسية للأستاذ الرافعى جزء أول ص ٢١٣ ٠

والديوان تحت حكم الفرنسيين كان يتكون من عشرة أعضاء (٩) من زعماء الشعب من علماء الأزهر ففي يوم الخميس الثالث عشر من صفر ١٢١٣ هـ (٢٥ يوليو ١٧٩٨) أصدر بونابرت أمرا بنظام الحكم في مصر ثم شرع مباشرة في طلب المشايخ والوجاقية للاجتماع عند قائمقام صاري عسكر فلما استقر بهم الجلوس خاطبهم وتشاور معهم في تعيين عشرة أنفار من المشايخ عبد الله الشرقاوي والشيخ خليل البكري والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي ومحمد المهدي وموسى الرسي ومصطفى الدمنهوري وأحمد العرايشي ويوسف الشبراخيتي ومحمد الدواخلي وحضر هذا المجلس أيضا مصطفى كتخدا بكر باشا والقاصي وقلدوا محمد أغا المسلماني أغات مستحفظان (محافظ القاهرة) وعلي أغا الشعراوي والى (رئيس الشرطة) وحسن أغا محرم (أمين احتساب) لمراقبة الأسواق والأسعار والأوزان وقد كانت (١٠) هذه المناصب من قبل وقفا على جنس المماليك حيث كانوا يعتقدون ان شعب مصر لايخافون الا الأتراك ولا يحكمهم سواهم ٠ أما هؤلاء المذكورون فكانوا بقايا البيوت القديمة (العريقة) الذين لايتجاسرون على الظلم كباقي المماليك والأتراك ثم قلدوا ذى الفقار محمد بك كتخدا بونابرته (سكرتير مصرى لبونابرت للاتصال بالديوان) ولرقابة أعمال الديوان في نفس الوقت ٠

اختصاص الديوان

وكان من اختصاص هذا الديوان تعيين رؤساء الموظفين ولكن ترقيتهم المباشرة في الحقيقة كانت للرؤساء الفرنسيين وكانوا مجردين من كل سلطة ٠ واحتفظ الفرنسيون بتعيين بعض كبار الموظفين (١١) دون استشارة الديوان فكان المسيو (بوسليج)مديرا للشئون المالية للحكومة (وزير المالية الفعلي) ويطلق عليه أيضا مدير الحدود ويعبر عنه بالروزنامجي أى مدير الروزنامه وعينوا (برتلمي الرومي) (١٢) كتخدا مستحفظان (وكيل المحافظ) وقسموا القاهرة وبولاق ومصر القديمة الى عشرة أخطاط عينوا لكل خط حاكما (قوموندان) فرنسيا (رؤساء أحياء) ثم عينوا أحد الأفرنج أمين البحرين (١٣) (مدير الجمارك) وآخر

---

(٩)الجبرتي جزء ٣ ص ١١ ٠

(١٠) المصدر السابق الجبرتي ص ١١ ٠

(١١) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الرافعي جزء أول ص ١٠٢ ٠

(١٢) الجبرتي جزء ٣ ص ١٢ ٠

(١٣) الاسم العامي هو « برطلمين » وكان يتناول الرشاوى ومن اسمه استخرج العامة لفظ « البرطلة » للرشوة ٠

(أغا الرسالة) أى مدير البريد • وعهد نابليون الى المسيو سوى مدير مهمات الجيش لينظم مكاتب البريد فى القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط والرحمانية والمنصورة • وكان من أرباب المشورة فى الديوان الخواجة موسى أما وكلاء الفرنساويين فكان منهم حنا بينو •

نظام العمل

كان هذا الديوان يجتمع يوميا بحضور ثلاثة من أعضائه يجتمعون طول اليوم بالتناوب وبدأ الفرنسيون وعن طريق الديوان بحصر أملاك وثروة أمراء المماليك الهاربين واستولوا عليها لحساب الفرنسيين • ثم أخذ الفرنسيون بمعاونة الديوان فى مطاردة اللصوص وبخاصة الجعيدية والخطافة من العربان الذين يهددون أمن الشعب على أطراف الصحراء وبصفتهم منافسين للفرنسيين فى نهب ثروات الشعب • ثم اهتم الفرنسيون بمطاردة المماليك وأمرائهم الهاربين وكان مراد بك بعد الهزيمة مباشرة قد ذهب الى قصره وقضى بعد اشعاله بسرعة ثم بادر بالفرار هو ومن معه الى الجهة القبلية (وجه قبلى) أما ابراهيم بك والباشا التركى والأمراء العسكر فقد فروا الى جهة العادلية واستمرت هذه المطاردة الفرنسية لمراد بك وابراهيم بك حتى آخر أيام الفرنسيين فى مصر وانضم بعض أهالى المحافظات الجنوبية الى هذه المقاومة ليس حبا فى المماليك ولكن انتظارا لانتصار المماليك المسلمين على الجيش الفرنسى فكان عبء القتال يقع كاملا على عاتق أفراد الشعب المصرى ومناصرة المماليك فى الوقت المناسب عند اشتداد المعارك •

التنافس الغربى

واقعة أبى قير البحرية (١٤) أول أغسطس ١٧٩٨

يبدو ان نابليون قد تجاهل ما كان لبريطانيا اذ ذاك من السيادة البحرية فى البحر المتوسط ولاسيما ان جيشه وأسطوله المتجه لغزو مصر قد تمكن من الافلات من الاسطول البريطانى الا أن انجلترا تأكدت سيادتها البحرية فدهم الاسطول البريطانى الاسطول الفرنسى الرابض فى خليج أبى قير وحطمه وأحرق معظمه تماما فى أول أغسطس ١٧٩٨ كما انساب الأسطول الروسى من البحر الأسود فضرب حصارا حول جزر بحر ايجه (الجزر الايونية) التى تحتلها فرنسا وظل حصارها مشددا

---

(١٤) الغرب والشرق للأستاذ محمد على الغتيت (المرحلة الأولى) ص ١٤٧ وعبد الرحمن الرافعى جزء أول ص ٢١٥ •



معركة ابو قير (اول اغسطس سنة ١٧٩٨)

حتى تخلت عنها فرنســـا • وظل الانجليز بمراكبهم (١٥) بمينـــاء الاسكندرية يغدون ويروحون ويرصدون الفرنسيس ـ ووقف الانجليز بطريق البحر يمنعون المســـافرين فى حصـــار شامل وبالأخص على الفرنسيس وكان تصرف القيادة الفرنســـية فى القاهرة هو التمادى والامعان فى الجشع وسلب المال وفرض الضرائب على كل مقومات الحياة الشعبية المصرية لتعويض خســائرهم فيما منيت به قواتهــم البحــرية خصوصــا وانه كان ضــمن اســطولهم المحترق فى أبى قير البارجة Orient المســـماه بنصف الدنيـــا والتى كانت مدرعـة بالنحاس الأصفر وكان بها أموالهم وجانب كبير من دفاترهم واستطاع الأســطول البريطانى (١٦) المنتصر أن يفرض السيطرة الكاملة فكان يجوب بصفة دائمة بين دمياط والاسكندرية تحت قيادة الكومودور (هود) ويقطع كل اتصال بين جيش بونابرت والعالم الخارجى بصورة فعالة وظل شــاطىء أبى قير كله ولعدة ليـــالى عقب المعركة مشتعلا بالنيران والحرائق التى اشعلها البدو (١٧) شماتة فى الفرنسيين الغزاة •

اندلاع المقاومة

بعد سقوط القاهرة وطلب الأمان وفرار أمراء المماليك وأتبـاعهم وجلائهم عن القاهرة اعتقد الفرنسيون خطأ ان الأمور استتبت لهم فارسل بونابرت قواته المختلفة الى شتى أنحاء مصر سواء فى الدلتا أو فى الصعيد لأجل السيطرة على البلاد وفرض جباية الأموال بشتى الأساليب التعسفية بأشد من أســاليب المماليك وتعداها الى اسلوب السلب وفرض الاتاوات فكان الشعب يقابلهم بالمقاومة واشتدت المقاومة والاضطرابات حول رشيد وفى دمنهور وتكرر الاعتداء على قوافل الفرنسيين هناك • وفى أبى زعبل يوم ٤ و ٥ أغسطس ١٧٩٨ معركة انضم فيها المماليك للأهالى واشتدت المقاومة حتى انسحب الفرنسيون من الخانكة تحت ضغط عنف المقاومة • وفى الصــالحية اندلعت المقــاومة فى ١١ أغسطس ١٧٩٨ وكان العنصر الأساسى فى المقاومة هم فرســـان المماليك وقام العربان بدور فعال فى نهب وقتال الفرنسيين • ثم عمت الاضطرابات فى الشرقية واستمر فيها الأهالى يناوشون الحاميات الفرنسية واشتدت المقاومة فى أكتوبر ١٧٩٨ (معركة بلبيس فى ٢١ أكتــوبر ١٧٩٨) واستمرت المقاومة الشعبية فى الشرقية مــدة طويلة حتى آخر ديسمبر ١٧٩٨ وفى المنصــورة وسنباط اشتعلت المقــاومة فى أغسطس ١٧٩٨ وكذلك فى ميت غمر وفى البحر

---

(١٥) الجبرتى جزء ٣ ص ١٥ •

(١٦) بونابرت فى مصر تاليف ج • كريستوفر هرولد ص ١٣٥ •

(١٧) هذا يؤكد دور البدو والعربان انهم شاركوا فى مقاومة الاحتلال •

الصغير • وتردد فى مديريتى المنصورة ودمياط اسم البطل الثائر حسن طوبار شيخ بلدة المنزلة والأمير مصطفى • كما اندلعت فى مركز دكرنس فى بلدة الجمالية ثم فى دمياط فى سبتمبر ١٧٩٨ أعمال المقاومة وكانت هناك موقعة الشعراء التى بلغ ثوارها أكثر من ١٥٠٠ مقاتل استخدموا فى معركتهم المدافع واندلعت المقاومة فى المنزلة فى ٤ أكتوبر ١٧٩٨ وكذلك فى المطرية •

المقاومة فى الوجه القبلى

بعد معركة الأهرام فر مراد بك الى الصعيد واستقر فى الفيوم ومعه جانب من أمراء المماليك وفر ابراهيم بك ومعه جانب آخر من المماليك الى سوريا • وانضم الى مراد بك عدد غفير من الأهالى المستعدين للمقاومة وكانوا هم السبب الرئيسى فى شدة وعنف مقاومة مراد بك فى الصعيد والتى اتخذت مقاومتهم الصبغة العسكرية والتسليح القوى بحيث كانت شوكة فى جانب الاحتلال الفرنسى فان المقاومة (١) التى لقيها الجنود الفرنسية فى الوجه البحرى كانت فى الغالب ذات صبغة محلية ولكن القوات الفرنسية بالوجه القبلى هى التى اضطرت ان تواجه عمليات حربية حقيقية • واضطر نابليون ان يخصص جانبا كبيرا من قواته تحت قيادة القائد الفرنسى « ديزيه » (١٨) لاخضاع الوجه القبلى ولمطاردة وهزيمة مراد بك والقضاء على مقاومته فى الصعيد لأنه اعتبر بقاء قوة معادية له فى الصعيد بمثابة خطر يهدد سلطات حكومة الاحتلال • ويشجع المقاومة الشعبية ويعطل الملاحة فى النيل وبذلك يمنع وصول الغلال اللازمة للبلاد ولجيشه من الوجه القبلى • واتصل بونابرت بمراد بك عن طريق قنصل النمسا المسيو روستى يفاوضه على ان تبقى مديرية جرجا (١٩) تحت سيطرة مراد بك بشرط أن يدفع للفرنسيين الخراج الذى كانت تدفعه المديرية سابقا وقبل الحملة وعلى أن يخلى مراد بك الى ما قبل حدود مديرية جرجا من قواته • ولكن مراد بك رفض شروط نابليون للصلح والتسليم •

مطاردة مراد بك (سبتمبر ١٧٩٨)

قام الجنرال ديزيه على رأس قوة تبلغ ٥٠٠٠ جندى بكامل أسلحتهم ومدافعهم بالسفن الحربية فى النيل ووصل الى بنى سويف يوم ٤ سبتمبر ١٧٩٨ ثم احتل البهنسا ولما شعر مراد بك بتحرك الفرنسيين انسحب الى أسيوط ولم يتمكن من سحب كل أسطوله فاستولى

---

(١٨) تاريخ الحملة الفرنسية للأستاذ الرافعى جزء أول من ص ٣٣٧ الى ص ٣٩٥ •
(١٩) مراسلات نابليون جزء (٤) وثيقة رقم ٢٩٢١ •

الفرنسيون على بعض قطع الاسطول المملوكي واستولوا على ما بهـا من ذخيرة وحبوب وتابع ديزيه تقدمه حتى وصل الى ملوى يوم ١٢ سبتمبر ثم أسيوط يوم ١٤ سبتمبر ١٧٩٨ ولم يجد أى أثر لمراد بك وأسطوله حيث رحل الى جرجا فعاد ديزيه الى ديروط وشرع ديزيه فى الاستيلاء على الغلال وعلى مراكب الأهالى وثرواتهم فاستهدفت المراكب الفرنسية هجمات الأهالى المتعاونين مع المماليك • وفى ٣ أكتوبر ١٧٩٨ اشتبكت قوات ديزيه بقوات مراد بك والأهالى وفى اليوم التالى أحاط الأهالى فى الشاطئين باسطول ديزيه وأطلقوا عليه النيران واضطر ديزيه الى الانسحاب بطريق البر بعيدا عن الشاطىء •

موقعة شبرمنت ٧ أكتوبر ١٧٩٨

ويوم ٦ أكتوبر بدأ الأهالى والمماليك يشتبكون مع الجيش الفرنسى فى شبرمنت وكان مراد بك قد جمع قوة كبيرة من أهالى الفيوم كانت تقدر بنصف قوات الجيش الفرنسى واحتلوا مواقع حصينة ونصب مراد بك على تل مرتفع يشرف على ميدان القتال ثمانية مدافع وفى يوم ٧ أكتوبر بدأ الاشتباك واستماتت قوات الأهالى والمماليك فى القتال وفتكت بكثير منهم مدفعية ديزيه وكانت المعركة بين كر وفر نظرا لتعادل الفريقين تقريبا الفرنسيون بقوة النيران والمصريون بعددهم واستماتتهم فى المقاومة وكادت الدائرة تدور على الجيش الفرنسى عندما هاجمت جموع المصريين من الأهالى والمماليك الفرنسيين وأحدثوا بهم خسائر جسيمة وأخيرا اضطر مراد بك وقواته للتقهقر بعد فتك المدافع الفرنسية بهم وكانت خسائر الفرنسيين ٣٤٠ قتيلا و ١٥٠ جريحا وخسائر المصريين كانت ٤٠٠ قتيل وفى هذا الوقت بالذات ظهرت بوادر ثورة القاهرة •

ثورة القاهرة الأولى (٢٠) (٢١ أكتوبر ١٧٩٨ م - ١١ جماد أول ١٢١٣ هـ)

رغم مظاهر الهدوء فى القاهرة بعد الغزو الفرنسى ورغم محاولة بونابرت استمالة واسترضاء المصريين وقادتهم المشايخ بانشاء الديوان بعضويتهم ورئاستهم واشتراكه فى حفلاتهم فقد كان أعضاء الديوان يتظاهرون بالطاعة للسلطة الفرنسية الا أن « قلوبهم كانت منكرة ونافرة » وليس أدل على ذلك من انه « عندما جمع بونابرت أعضاء الديوان لالباسهم طيلسان (شارة) الجمهورية الفرنسية الثلاثى الألوان وعندما بدأ بوضع الشارة بيده على كتف الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان تكريما

---

(٢٠) الحركة القومية للرافعى جزء أول ص ٢٥٩ •

له وتعظيما رمى بهـا الشيخ الشرقاوى على الأرض محنقا غاضبا واستعفى من الديوان ورفض باقى المشايخ أعضاء الديوان وضع الشارة » وكانوا يمثلون المؤسسة الوطنية وكان فى ذلك معنى رفض الاعتراف بالسـيادة الفرنسية وبالتالى استجاب الشعب لهذا السخط وهذا الرفض وبخاصة عندما تصاعدت تصرفات وأعمـال الفرنسيين الاستفزازية والظالمة حتى انتهت بنشوب ثورة القاهرة الأولى بعـد ان استفزت قسـوة الحملة الفرنسية شعور العامة • وقد مرت هذه الثورة بمراحل الثورات الطبيعية فكانت عبارة عن سلسلة من الثورات كل منها تمهيد للأخرى •

ثورة القاهرة الأولى

أولا : مرحلة استغلال وتحكم الأقلية فى الأغلبية

الممارسات الفرنسية الاستفزازية الظالمة (٢١)

١ ـ سلوك نابليون مع المصريين بعد الأمان خالف فى كثير من المواطن ما وعد به فى منشوراته وبياناته فقد كان ينكر على المماليك ظلمهم واعتسافهم وقام هو باسوأ من اعتسافهم وظلمهم ٠

٢ ـ فرض الفرنسيون على سكان القاهرة ضرائب فادحة فى شكل سلف اجبارية وبدأ نابليون يطلب سلفا باهظة من التجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام وتجار الفرنج ٠ وفرض على الاسكندرية ٣٠٠٠٠٠ فرنك وعلى رشيد ١٠٠٠٠٠ وهكذا على دمياط وكذلك على تجار المنسوجات وتجار البن والبهار وعلى الأقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب فى الأقاليم وعلى تجار خان الخليلى ووكلاء الصابون وتوكيلات الفاكهة وحتى على السقايين وتجار السكر والأقمشة ٠

٣ ـ تمادى الفرنسيون فى طرق ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بشتى الوسائل وفرضوا اتاوات وغرامات على نساء البكوات المماليك المتخلفات فى القاهرة ليفتدين بها أنفسهن واستولوا على منازلهن عنوة وكذا على متاع أزواجهن حتى ان السيدة نفيسة زوجة مراد بك دفعت لهم اتاوة كبيرة تقدر ١٢٠٠٠٠ فرنك فرنساوى لتفتدى نفسها ٠

---

(٢١) الحركة القومية للأستاذ عبد الرحمن الرافعى من ص ٢٦٠ الى ٢٦٨ ٠

وكان الشعب يراقب هذا التعنت ويزداد سخطا على الفرنسيين رغم انه كان لا يكن أى احتـرام أو مودة لزوجات المماليك ولكن هى الشخصـية المصرية تحتقـر جلافة ونذالة القوى الذى يستضعف ويسـتغل النسـاء مهما كانت جنسياتهن أو انتماؤهن ·

٤ ـ طلب الفرنسيون الاستيلاء على الخيول والجمـال والحمير والأبقار والثيران والسلاح من الفلاحين وسـكان الأقاليم أو أخذ نقود مقابلها ـ وكان الفرنسيون يفتشون المنازل ويكسرون الدكاكين فى كل يـوم بحثـا عن المخبئات الثمينة وينقلون على الجمـال والحمير الأمتعـة والفرش والصـناديق والسروج المنهوبة من الشعب كمـا يسـتخرجون الخبايا والودائع وفرضوا الاتاوات على أهل الحرف بالأسواق ·

٥ ـ تمادى الفرنسيون وتوسعوا فى عمليـة جمع الأموال بدون وجه حق بالاضافة الى الضرائب المفروضة وبخاصة بعد انحراق أسطولهم فى أبى قير كتعويض عن خسائرهم فى هذه المعركة وبذلك صارت الحالة من سىء الى أسـوأ مما كانت مع المماليك وكان جمع المال يتم فى الغالب تحت الضرب والاهانة بقسوة وعنجهية ·

٦ ـ أخـرج الفرنسيون كثيرا من الأهالى من أصحاب البيوت من منازلهم بحجة حاجتهم اليها كما هدموا كثيرا من المبانى والآثار والمساجد وأبواب الحارات بحجة تحصين القاهرة ·

٧ ـ اعتقل الفرنسيون حاكم الاسكندرية السيد / محمـد كريم لا لأى جرم ارتكبه ولكن لوطنيته والدفاع عن وطنـه وحوكم ظلمـا فى محاكمة صورية دون أى ذنب اقترفه ونفذوا فيه حكم الاعدام على مرأى من أفراد الشعب الذى يحترمه ويقدره وبعد أن أبى ان يفتدى نفسه بالمال رغم ما كان للسيد كريم من مكانة شعبية عظيمة ·

٨ ـ قام الجنـود الفرنسيون بحـرق كثير من القرى والمنـازل والتنكيل بالأهالى بحجة مقاومتهم للوجود الفرنسى وارتكبوا فى هذا المجال فظـائع وجرائم وحشـية وكانوا يحضرون الرهائن مكبلين وعلى مرأى من الشعب ويحبسونهم فى القلعة وكانوا يسرفون فى قتل النـاس ليدخلوا الرهبة فى قلوبهـم ويحققوا الخضـوع والاذعان وكان على رأس هؤلاء السفاحين نابليون بونابرت نفسـه حيث جـاء فى أحد تعليماته لحاكم المنوفية الفرنسى (٢٢) يجب أن تعاملوا المصريين بمنتهى القسوة لأنى هنا أقتل كل يوم ثلاثة وآمر بان يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة وهذه هى الطريقة الوحيدة لاخضاع هؤلاء الناس ·

---

(٢٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٠١ ·

اشاعة الفرقة والتجسس

ولأجل مزيد من السيطرة تعمد الفرنسيون الاعتماد على بعض السفلة من المقيمين بمصر ومن أحقر أنواع المواطنين ممن تهون عليهم أنفسهم سواء من المسلمين أو من الأقباط أو المغاربة أو الروم المتمصرين بغرض التجسس على أبناء الوطن المشتركين في المقاومة أو على مساتير الناس من الأقباط والمسلمين لنهب ممتلكاتهم عن طريق الغرامات أو الفردات أو السلب من عائلات المماليك • وبالغ الفرنسيون في ابراز دور العناصر القبطية من هؤلاء الجواسيس بصورهم كأحد أسباب غرس بذور الخلاف والفتنة بين عنصرى الأمة الأقباط والمسلمين • وجعلوا هذه العناصر القبطية العميلة تتمادى في التنكيل بالسكان وبخاصة المسلمون وممارسة الاضطهاد والعنف معهم فيأتى رد فعل الأهالى المسلمين متخذا مظهر العنف ضد هذه العناصر العميلة يتعداها الى عامة المواطنين الأقباط وهذا ما كان يرمى اليه المستعمر الفرنسى بمخططه وبخاصة أثناء الانتفاضات والثورات الشعبية في مواجهة قسوة الاحتلال الفرنسى ورغم أن هذه المقاومات الشعبية كانت أساسا كأسلوب رفض العامة لتسلط وتحكم وقهر الاحتلال الفرنسى الا أن مثل هذه الاشتباكات كان يرمى الفرنسيون من ورائها مزيدا من الفرقة وضرب الوحدة الوطنية وغرس الكراهية والبغض بين عنصرى الشعب ومن الأمثلة على هذه السياسة المخططة :

١ ـ برطلمين

أو برثلمى وكان يطلق عليه العامة فرط الرمان (٢٣) وقد قلده الفرنسيون وظيفة كتخدا مستحفظان (وكيل المحافظ) كما جعلوه عضوا في الديوان والمذكور كان من أسافل نصارى الأروام العسكريين القاطنين بمصر وكان من الطبجية (المدفعية) عند محمد بك الألفى وكان له حانوت بخط الموسكى يبيع فيه القوارير والزجاج أيام البطالة (الأجازة) ومن أمثلة المهام الحقيرة التى كان يقوم بها برطلمين ومما يساعد على اشعال الفتنة أنه أثناء وبعد ثورة القاهرة الأولى (١) انتدب للتعسس (التجسس على من يحمل السلاح من المصريين في وجه الفرنسيين) •

وكان هذا الضابط (بارتلمى) (٢٤) برطملين الزاهى المظهر والمسلك يقود سرية قوامها مائة من الأروام والجزائريين والمغاربة المتوحشين وكان فارع القامة لاينسى الناظر اليه مظهره وهو يخرج على رأس أتباعه الأوغاد في عمامة بيضاء ضخمة تظهر بشرته البرونزية

---

(٢٣) الجبرتى جزء ٣ ص ١١ ، ص ١٢ •

(٢٤) بونابرت في مصر تاليف كريستوفر هيرولد ص ٢٧ ، ٢٨ •

وعيناه تلمعان ، اعلى شفتيه ابتسامة يجمد لها الدم في العروق وقد ارتدى ثوبه اليونانى الموشى بالقصب وحزاما أحمر ، وسراويل ضخمة ومعطفا تعلوه رمانتان مما يضعها الكولونيل على كتفيه . وكانت زوجته العملاقة الرهيبة تركب أحيانا الى جواره . وكان محبا للعراك لاظهار شجاعته ولكن كان أحب الأشياء الى قلبه هو قطع الرقاب بالجملة . وكان يروى عنه أنه اذا لم يجد من البدو المتمردين من يحمل رؤوسهم الى القاهرة تذكارا كان يعزى نفسه برؤوس بعض الفلاحين العاثرى الحظ الذين يصادفهم في عودتهم للمدينة . وقدم مرة الى الجنرال « ديبوى » زكيبة مملوءة بأكملها بروؤس من رجال البدو بينما كان هو وجنوده يتناولون طعام الغذاء .

« وبث أعوانه في الجهات ينجسسون (٢٥) في الطرقات فيقبضون على الناس بحسب أهوائهم فيحكم فيهم بمراده ويعمل برأيه واجتهاده ويأخذ منهم الكثير (المعتقلين) ويسير في موكبه وهم موثوقون بين يديه بالحبال ، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجونات ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب » .

٢ ـ نيقولا بابا زوغلو

كان في عهد المماليك (٢٦) خادما لمراد بك . وهو رومى الأصل وكان رئيسا للترسانة التى أنشأها مراد بك بالجيزة وخدم المماليك الى أن حلت بهم الهزيمة في معركة الهرم فعرض خدماته على الفرنسيين واستعانوا به في تكوين تشكيل عسكرى على أساس طائفي وبلغ عدد جنوده في هذه الكتيبة الطائفية في عهد كليبر ١٥٠٠ مقاتل وكان له دور مماثلا لدور يعقوب حنا في التجسس على المصريين والثوار منهم ومساعدة الفرنسيين في عمليات الانتقام والتنكيل بالثوار والوطنيين .

٣ ـ شكر الله

لما اشتد أمر (٢٧) الفرنسيين في مطالبتهم بالمال كلفوا لهذه المامورية لجمع المال رجلا قبطيا يسمى « شكر الله » فاستبد بالناس بقسوة لاتوصف فكان يدخل دار أى شخص لطلب المال وبصحبته العساكر الفرنساوية ومعهم العقلة وبأيديهم الفؤوس والقزم وأدوات الحفر

---

(٢٥) الجبرتى جزء ٣ ص ٢٧ ، ص ٢٨ .

(٢٦) الرافعى جزء ص

(٢٧) ودخلت الخيل الأزهر للأستاذ جلال كشك ص ٤٣٦ .

والهدم · فيأمرهم بهدم الدار اذا لم يدفعوا له ما يقرره هو وفى الحال · ومما ارتكبه من سيء الأفعال ببولاق أنه كان بعد ثورة القاهرة وبعد هدم الفرنسيين للحى وحرقه عن آخره ، كان يحبس ما بقى منهم أحيـاء من الرجال والنساء ويدخن عليهم بالقطن والقطران وينوع عليهم العذاب ·

٤ ـ استخدام الأقلية من اليهود المصريين

أصدر نابليون نداءا الى اليهود بالانضمام تحت رايته لخيانة المصريين ووعدهم بأن يعيدهم الى فلسطين ويملكهم اياها ·

٥ ـ المعلم الجنرال يعقوب حنا

ولد فى ملوى فى حوال عام ١٧٤٥ (٢٨) أبوه حنا وأمه مارية غزال وفى عهد على بك الكبير التحق بخدمة « سليمان » أغا بالانكشارية وكان رئيسها ولما نشب القتال بين مراد بك وقوات قبطان باشا التركى اشترك فى هذه الحرب مع مخدومه سليمان بك أغا وعندما دخل بونابرت مصر التحق المعلم يعقوب بخدمة الفرنسـيين · وكان أفاقا كمـا كان غيره من العمـلاء المسلمين · وحيث كان له خبـرة بمناطق الصعيد فقد ألحقـه الفرنسيون بخـدمة الجنرال « ديزية » قائد حملة الصعيد ليطلعه على مخبآت المصريين ومقاوماتهم فكان المعلم يعقوب أداته وعميله فى التنكيل بالصعايدة أقبـاط ومسلمين · وكان أهل الصعيد يسمون فـرقة ديزية باسم « جيش المعلم يعقوب » وقال عنه الجبرتى » (٢٩) فى خامس عشرة سافر عدد كبير من عساكر الفرنساوية الى جهـة الصعيد وكبيرهم ديزية بصحبته يعقوب ليعرفهم الأمـور ويطلعهم على المخبـآت وكان من أبشـع ما قام به ومن أخطر الأعمال عندما سمح الجنرال بليار لجنوده يستحيون النسـاء ليرفع معنوياتهم فقدم خدماته الحقيرة فى هذا المجـال بحيث كان يفتش عن نوع آخر من المخبآت وذلك بالبحث وتقـديم (٣٠) فتيـات الصعيد مسلمات أو قبطيات ليقدمهن الى سـادته من الضباط والجنود الفرنسيين ·

وقد كانت هذه الأعمال من الأسباب الرئيسية لاشـتعال الثورات فى جميع أنحاء البلاد المصرية وليست الأسباب الجانبية الأخـرى لأنه لا توجد أى أمة حية بعقيدتها الاسلامية أو المسيحية لا تهب لمقاتلة مثل هؤلاء الفجرة ومعلمهم وجنرالهم يعقوب حنا وأمثاله ·

---

(٢٨) نفس المصدر من ص ٤٢١ الى ص ٤٣٦ ·
(٢٩) الجبرتى جزء ٣ ص ١١٤ ·
(٣٠) دخلت الخيل الأزهر ص ٤٣٧ ·

ومن شدة ثقة الفرنسيين فى نذالة المعلم يعقوب فقد قال الجبرتى(٣١) « وركب سارى عسكر « كليبر » من يومه ذلك ، وذهب الى الجيزة ووكل يعقوب يفعل فى المسلمين ما يشاء » • وبعد حملة الصعيد الفرنسية التى رجعت شبه خائبة عاد يعقوب حنا الى القاهرة حيث حول بيته الى قلعه حربية ضمن (٣٢) الخطة الفرنسية التى أعقبت الثورة الأولى وهى تطويق القاهرة بالقلاع المحصنة احتياطا لأى تحرك مقبل • وعندما نشبت الثورة الثانية حارب المعلم يعقوب مواطنيه من قلعته هذه وبواسطة الجنود الفرنسيين الذين كانوا بها بصفة دائمة ، ولما انتهت الثورة أشرف يعقوب على اعتصار المصريين بالتعسف فى جمع الغرامات والفردات • واستعان به الفرنسيون فى تجنيد عدد من شباب القبط فى تشكيل عسكرى أطلقوا عليه الفيلق القبطى •

الفيلق القبطى ١٢١٥ هـ واحد ١٨٠٠ ميلادية

وفيه طلب الفرنسيون (٣٣) عسكرا من القبط وأرسلوا الى الصعيد فجمعوا من شبابهم نحو الألفين وأحضروهم الى مصر وزيوهم بزيهم وقيدوا لهم من يعلمهم كيفية حربهم وتدريبهم على ذلك وجعلوا يعقوب القبطى سارى عسكر القبطة بعد أن جمع شبان القبط وحلق لهم لحاهم وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقبع (قبعات) يلبسونها على رؤوسهم مشابهة لتشكل البرنيطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة مع ما يضاف اليها من قبح صورهم وسود أجسامهم وزفارة أبدانهم • وصيرهم عسكره وعزوته » • استخدمهم فى هدم المساكن المجاورة لمسكنه خلف الجامع الأحمر « وبنى قلعته وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام وكذلك بنى أبراجا فى ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقانا (طاقة) للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر • ورتب على باب قلعته للخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم البنادق على الطريقة الفرنساوية » • وقال الجنرال(٣٤) (مينو) فى خطاب أرسله الى بونابرت « انى وجدت رجلا ذا دراية ومعرفة واسعة اسمه المعلم يعقوب وهو الذى يؤدى لنا خدمات باهرة منها تعزيز قوة الجيش الفرنسى بجنود اضافية من القبط لمساعدتنا » •

---

(٣١) الجبرتى جزء ٣ ص ١١٤ •

(٣٢) دخلت الخيل الأزهر ص ٤٣٩

(٣٣) الجبرتى جزء ٣ ص ١١٥ •

(٣٤) ودخلت الخيل الأزهر للأستاذ جلال كشك ص ٤٣٧ •

٦ ـ عبد الله

وتولى رجل قبطى (٣٥) يقال له عبد الله من طرف يعقوب حنا يجمع طائفة من الناس للمساعدة فى عمل المتاريس لحساب الفرنسيين فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم ونعسف معهم ٠

أما من استخدمهم الفرنسيون من المسلمين فى التجسس والخيانة فكان :

٧ ـ عمر القلعجى

كلفه الفرنسيون بتشكيل (٣٦) قوة عسكرية فقام بتجنيد عدد كبير من « مغاربة الفحامين » وجمع منهم ومن غيرهم عددا وافرا وبخاصة من اسافل المغاربة وعرضهم على سارى عسكر بونابرت فاختار منهم الشباب وأولى القوة وأعطاهم سلاحا وآلات حرب ودربهم عسكريا ورئيسهم عمر المذكور ٠

وقامت قوات القلعجى بأول مأمورية لهم حيث أوفدهم بونابرت الى مناطق الدلتا الثائرة والتى تجاوبت مع ثورة القاهرة الأولى فاعتدوا على جنود الفرنسيين وضربوا مركبين بها عدة عساكر فرنساوية فحاربوهم وقاتلوهم وذهب عمر القلعجى بقواته الى ناحية عشما « فلما ذهب أولئك المغاربة أسكتوا الفتنة وضربوا عشما وقتلوا كبيرها المسمى بابن شعير ونهبوا داره ومتاعه وماله وبهائمه وكان شيئا كثيرا جدا وأحضروا اخوته وأولاده وقتلوهم » وسكن القلعجى المغربى بدار عند باب سعادة ؛

٨ ـ محمد الطويل

وكان محمد الطويل الى وقت أن دمر الفرنسيون وأحرقوا حى بولاق بالكامل فيما قبل نهاية ثورة القاهرة الثانية يقاتل بين صفوف الثوار ٠ وبعد ما أصاب حى بولاق من خراب وأخذ الفرنسيون فى البحث عن البطل مصطفى البشتيلى زعيم بولاق لينكلوا به « ففى يوم الجمعة ثالث عشرينه (٣٧) (ابريل سنة ١٨٠٠) كاتب محمد الطويل الفرنساوية وأخذ منهم الأمان وأوهم أصحابه (الثوار) أنه يحارب معهم ٠ وفى وقت هجوم العساكر الفرنساوية اختفى البشتيلى فدلهم عليه (وعلى أعوانه) وقبضوا على وكيله وعلى الرؤساء فحبسوا البشتيلى بالقلعة والباقى ببيت سارى عسكر ٠٠٠ الخ » ٠

---

(٣٥) ودخلت الخيل الأزهر ـ جلال كشك ص ٤٣٦
(٣٦) الجبرتى جزء ٣ ص ٢٨ ٠
(٣٧) الجبرتى جزء ٣ ص ١٠٢ ٠

٩ ـ شيخ البلد مراد بك

ومن أسوأ العناصر العميلة الانتهازية المسلمة والتي تخصصت في الخيانة فهو أمير البلاد السابق مراد بك (شيخ البلد) والذي كان لايهمه الا مصلحته وسلطانه الشخصي • فبمجرد أن سيطر الجيش الفرنسي على القاهرة فر الى الصعيد وبرع في الكر والفر والمناوشة والمراوغة وأمكنه خداع العامة من أهل الصعيد حتى المتطوعين العرب المكيين (٣٨) القادمين من الحجاز عن طريق مينائي جدة والقصير وكان قادرا وبارعا في اقناع هؤلاء بالمقاومة وكانوا يحتلون بقواتهم القوات الرئيسية فكان بمكره وخداعه يدفعهم في مقدمة الصفوف وعندما يجد المعركة أو المقاومة مع القوات الفرنسية في غير صالحهم وصالحه • قبل أن يقاتل هو من الخلف ويشتبك مع العدو كان يبادر بالفرار والانسحاب قبل ان تناله وقوات مماليكه أي خسائر ويجعل الخسائر كلها في صفوف العامة والمتطوعين العرب •

ومنذ تاريخ سابق على ثورة القاهرة الثانية وبمجرد أن حاول كليبر التفاوض معه فقد « بدأت المهادنة وتبادل الهدايا بين كليبر ومراد بك في شهر جماد الأول (أكتوبر سنة ١٧٩٩) » وتم الصلح في أوائل ابريل سنة ١٨٠٠ بشرط أن يقلده الفرنسيون امارة الصعيد تحت حكمهم ويدفع لهم الخراج الذى (٣٩) كان يسلم للسلطان قبل الحملة الفرنسية• وتم تبادل التوقيع على الصلح بين مراد بك والفرنسيين في ٥ ابريل سنة ١٨٠٠ كل ذلك تم وثورة شعب مصر في القاهرة والأقاليم على أشدها ضد المحتل الفرنسي وأمير البلاد السابق والمفروض أن يكون المسئول الاول الذى يجب أن يتصدى للمحتل ظل بعيدا عن الأحداث بموجب اتفاقه الغادر مع الفرنسيين بل تمادى في الخيانة ومد الفرنسيين بالمؤن وعرفهم على أماكن الأسلاب بل وساعد بالمشورة في خطة احراق القاهرة بل ومدهم بمواد الحريق •

ولمساعدة حلفائه الفرنسيين أثناء ثورة القاهرة أرسل أحد أتباعه عثمان بك البرديسى الذى لايقل خيانة عنه ليصرف المماليك (الوطنيين المشتركن في الثورة) عن الثورة ويدعوهم الى النكوص على أعقابهم • وقد جاء في مذكرات كليبر « أن مراد بك (أثناء ثورة القاهرة الثانية) أرسل عدة قطعان من الماشية ليبرهن له على الخلاصه • وجاءت شروط صلح مراد بك مع كليبر كلها، تؤكد على خيانته • فكانت تنص على أن الحكومة الفرنسية بموجب هذا الاتفاق الاعتراف بمراد بك أميرا وحاكما للوجه القبلي ابتداء من بلصفورة بمديرية جرجا الى أسوان في

(٣٨) بونابرت في مصر للمؤلف كريستوفر هيرولد ص ٢٥٦-، ص ٢٥٧ •
(٣٩) الرافعى جزء ٢ ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ •

مقابل أن يؤدى للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب دفعه لصاحب الولاية على مصر (كليبر الفرنسى) (٢٥٠ كيس ، ١٥٫٠٠٠ أردب قمح ، ٢٠٫٠٠٠ أردب شعير وحبوب) وكانت كل هذه الكميات تخص شعب مصر الذى يقاوم حلفاء مراد بك الفرنسيين) ويسمح مراد بك بأن يحتل الجيش الفرنسى ثغر القصير (وبذلك يحرم مراد بك المقاومة المصرية من وصول المتطوعين المكيين) • وكذلك نصت الاتفاقية على أن يدفع مراد بك (من أموال المصريين فى منطقة امارته « جرجا ») نفقات الحامية الفرنسية فى القصير ولا يجوز لكل منهما (مراد بك أو الفرنسيين) قبول الفلاحين الذين يمتنعون عن دفع الضرائب ويفرون الى منطقة الطرف الآخر • ويتعهد الفرنسيون بحماية مراد بك فى حالة مهاجمته (طبعا من المصريين) كما يتعهد مراد بك أن يرسل الى الفرنسيين القوة الكافية من جنوده الى المنطقة التى يحتلها الجيش الفرنسى فى حالة مهاجمة الفرنسيين (طبعا من الثوار المصريين) على الا تقل القوة التى يرسلها كنجدة للفرنسيين عن نصف قواته • وقمة خيانته لأمته بل لواجب الوفاء لشريكه السابق فى حكم مصر ابراهيم بك الذى لجأ الى تركيا للتعاون مع العثمانيين لاستعادة مصر فقد دأب مراد بك بعد اتفاقه مع كليبر على أن يبلغ الجانب الفرنسى عن نوايا واستعدادات وتحركات القوات التركية والتى كان يرسلها له ابراهيم بك (٤٠) من تركيا فقد كان مراد بك المسلم أسوأ من الجنرال يعقوب القبطى فى خياناته وبخاصة لأنه كان سابقا يمثل أميرا على البلاد وكان يستهين بكل هذه الخيانات ويعتبرها تصرفات طبيعية وكان من أعوانه وعلى شاكلته عدد كبير من أمراء المماليك المسلمين فكانوا على مصر أشد نكالا من أى عناصر خائنة أخرى •

غضب الكنيسة القبطية الوطنية والكتاب الأقباط من المعلم يعقوب حنا

وتسجل كتب التاريخ القبطى تبرؤ الكنيسة المصرية من الشخص الذى ينحرف عن الجذور العريقة وهو ولاء الأقباط لوطنهم مصر فتقرأ فى كتاب تاريخ الأمة القبطية الذى طبعه (نخلة روفايلة) عام ١٨٩٨ أن يعقوب هذا سار (٤١) فى خطة تخالف ما كان عليه أبناء جنسه ••• فانه فضلا عن مخالفتهم فى الزى والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية • كما أن رجال الدين ولاسيما البطريرك لم يكونوا راضيين عن تصرفاته وأحواله • وسمعت من بعض شيوخ الأقباط المسنين أن البطريرك نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة ••• فلم يقبل

(٤٠) الرافعى جزء ٢ ص ٢١٩ ، ص ٢٢٠ •

(٤١) مجلة الطليعة ديسمبر سنة ١٩٦٦ مقال للدكتور وليم سليمان •

٠٠٠ وسمعت من آخر أن ما كان بينه وبين البطريرك من المنازعة والمشاحنة دفعه الى التجرؤ على الدخول فى الكنيسة مرة راكبا جواده رافعا سلاحه ٠ ومن الكتاب الأقباط (٤٢) الذين استنكروا كل أعمال يعقوب فترة الحملة الفرنسية جاك تاجر الذى كتب « ونقول أن الجنرال يعقوب أنكر وطنه ان لم يكن قالبا فقلبا منذ اللحظة التى كون الفرقة القبطية ٠٠٠ ان الأمة القبطية استقبلت عمل الجنرال يعقوب بفتور » ٠

ثانيا : مرحلة الوعى الشعبى بالظلم والتعسف

منذ احتلال الفرنسيين للقاهرة فان الشعب كان على تمام الوعى بابعاد هذا القهر الأجنبى وبمجرد تولى السيد عمر مكرم مهمة الدعوة الى الجهاد فقد استجاب شعب القاهرة بكل طبقاته ونوعياته وألوانه لدعوة المقاومة وشارك بوعى كامل فى هذه المقاومة مع الجنود العثمانية وجنود المماليك وأمراء المماليك والعربان وبذلك فان مرحلة الوعى الشعبى كانت تلقائية ومع مرور الزمن وتحكم الأقلية الفرنسية المحتلة الحاكمة فى مقدرات الشعب المصرى بشكل استغلالى تعسفى كما سبق وتناولناه فقد ازداد الوعى الشعبى بالسخط ، وفرض هذا الوعى مقاومة وطنية مستمرة مع استمرار الاحتلال فكانت تستنكر وتتمرد على هذا التعسف والظلم والاستغلال الاستبدادى والغير آدمى سواء فى النهب أو فرض الغرامات أو الاتاوات أو فرض الضرائب المتتالية والتنكيل بالوطنيين فكان الوعى الشعبى فى تزايد وكانت الدعوة (١) الى المقاومة بالسخط والثورة تختلط علنا بآذان المؤذنين فيدعون الله ويدعون الى الصلاة وفى الوقت يدعون الى الثورة وذلك صباح مساء قبل كل صلاة وبلغ تهيج الناس أشده استعدادا للانتفاضة والثورة ٠

ثالثا : مرحلة تكوين المؤسسة الوطنية

لما كانت ثورات مصر المتكررة فى مواجهة الاحتلال الفرنسى هى حرب تحريرية وطبيعة المقاومة الشعبية فى الحرب التحريرية هى تداخل مراحل الثورة بعضها فى بعض لأن القهر بالاحتلال العسكرى باعتباره مرحلة اذا ما ووجه بالمقاومة الشعبية كما حدث ومباشرة أثناء الغزو وحتى بعده مباشرة فان هذه المرحلة من المقاومة التى تعتبر مرحلة الوعى الشعبى

---

(٤٢) ودخلت الخيل الأزهر للأستاذ جلال كشك ص ٤٥٨ ، ص ٤٥٩ ٠

(١) تاريخ الحركة القومية جزء أول للرافعى ص ٣٦٨ ٠

بأبعاد المرحلة الأولى وهى القهر أى (استغلال الأقلية المعتدية) بالاغلبية الشعبية المقهورة ٠

كذلك فان هذه المقاومة اذا ما وجدت كان لازما أن تكون لها قيادة تحركها وتعمل على الدعوة وزيادة الوعى فان مرحلة تكوين المؤسسة الوطنية تداخلت هى الأخرى فى المرحلتين الاوليتين ٠ وعموما فقد ولد السخط المتجمع فى نفوس العامة تعبئة قام بها لفيف من المشايخ فى الأزهر سرعان ما نظمت صفوفها لمواجهة هذا الظلم والتعسف بأسلوب ايجابى بعد أن حاول رجال الديوان من المشايخ الوساطة لدى الفرنسيين وفشلوا فى كل وساطاتهم لتهدئة النفوس ، وتكونت فعلا لجنة ثورية قامت بدور المؤسسة الوطنية وقامت بدورها فى نشر الدعوة لمقاومة الظلم واثارة الكراهية فى نفوس الناقمين وبتنظيم الصفوف ، فكان الجامع الكبير بالأزهر مكان اجتماعها وتداولها - وقال نابليون فى مذكراته (٢) « ان الشعب المصرى قد انتخب ديوانا للثورة ونظم المتطوعين للقتال واستخرج الأسلحة المخبوءة وأن الشيخ السادات انتخب رئيسا لهذا (٣) الديوان وكانت هذه اللجنة الثورية من المتعممين وعلى رأسهم الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ اسماعيل البراوى وابراهيم أفندى كاتب البهار وهو المسئول عن الأسلحة ٠

رابعا : مرحلة ممارسة الأغلبية

العمل الايجابى (الثورة) (١٧٩٨/١٠/٢١)

بعد أن تقررت الضرائب (٤) الجديدة الباهظة بواسطة الديوان وبعد أن صار الصاق الأوامر والبيانات يوم ١٧٩٨/١٠/٢٠ فى الشوارع والحارات وأخذ دعاة الثورة يحرضون الناس على التمرد والانتفاض على الفرنسيين ويثيرون الشكوك والريب حول أعضاء الديوان لتصديقهم على هذه الضرائب الظالمة ، وكان عدد الناقمين قد زاد وسرت فى بادىء الأمر روح الثورة الى طبقة الملاك والتجار وأصحاب الصناعات والحرف والتى أثقلت كاهلهم ثم سرت الثورة فى العامة الذين تعاهدوا على الاجتماع ليلا ٠ وفى الميعاد والمكان المحددين اجتمع عدد منهم يبلغ الثلاثين (بصفة قيادة ثورية) وأخذوا يتشاورون ويضعون الخطط - وحسب ما رسموا اجتمع الجميع بالأزهر الشريف فى عدد غفير وكانت القاهرة فى ذلك اليوم فى

---

(٢) مذكرات نابليون ٠

(٣) الجبرتى جزء ٣ ص ٢٥ ص ٢٧ ، ص ٢٨ وتعتبر هذه الشخصيات هى الجهاز السرى للثورة ص ١٠ ، ص ١١ ٠

(٤) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الرافعى جزء أول ص ٢٦٩ ٠

حالة قصوى من التحفز والغليان ، فكان الناس يتألبون فى الشوارع زرافات يشكون ويتهددون ويخطب فيهم المعممون فيشعلون نار الحماسة فى قلوبهم ويقابلهم الشعب بالتأييد والتحبيذ .

وكان الناس (٥) يتلاقون على غير تعارف يتبادلون الشكوى ويتعاهدون على المقاومة ، فظهرت الأسلحة فى أيدى المتجمهرين فى الشوارع والميادين وأقبل الفلاحون وأهل الضواحى الى القاهرة واشتركوا فى التجمهر ، فأخذت صيحات السخط واللعنات تنصب على الضرائب الجديدة وعلى تعسف وظلم الفرنسيين وسادت الجلبة « واختلطت الأصوات وعلت الصيحات » ولم يعد هناك شك فى أن الثورة قد بدأت وكان أبلغ وصف لهذه الثورة هو ما جاء مسجلا عن المؤرخ المعاصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتى « وفى يوم السبت (٥) عاشر جمادى الأول سنة ١٢١٣ عملوا (اجتمع) الديوان وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرنسه والأوسط ستة والأدنى ثلاثة (فئات الضرائب الجديدة) وما كان أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معافى وأما الوكائل (المتاجر الكبيرة) والخانات (فنادق) والحمامات والمعاصر والسياح والحوانيت فجعلوا عليهما ثلاثين أو أربعين حسب الخسة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها بالمفارق والطرق وأرسلوا منها نسخا للأعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى (مثمنين) وشرعوا فى الضبط والاحصاء وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها . ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء » .

الثورة (٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨) (*)

« وانتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين فتجمع الكثير من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد ١١ جماد أول) متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح فى الكلام « نصر الله دين الاسلام » فذهبوا الى بيت قاضى العسكر (القاضى التركى ابراهيم أفندى بجمقش زاده) فخاف القاضى العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابه فرجموه بالحجارة والطوب

---

(٤) وصف ريبو الفرنسى لبداية الثورة .

(٥) الجبرتى الجزء ٣ ص ٢٥ .

(*) نفس المصدر السابق ص ٢٥ .

وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب (كان العـامة وقادتهـم يأملون في أن يرافقهم القاضي المحترم الى بونابرت ليتشفع لهم بالغاء الضرائب) وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر (بعض كبار العلماء) وفي ذلك الوقت حضر ديوى (القائد الفرنسى) بطائفة من فرسانه وعسـاكره وشجعانه فمر بشارع الغورية وعطف على خط الصناديفية ، وذهب الى بيت القاضى ، فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وتلك الأخطاط بالخلائق مزحومة ، فبادروا اليـه وضربوه وأثخنوا جراحـاته ، وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه ، فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون ، ومن كل حدب ينسلون ، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة ، كباب الفتوح وباب النصر والبرقية الى باب زويله فباب الشعرية وجهة البندقانيين وما حذاها ، ولم يتعدوا جهة سواها ، وهدموا مصاطب الحوانيت ، وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة ، لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس ، وأما الجهـات البرانيـة والنواصى الفوقانية فلم يفزع منهم فازع ، ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع • وكذلك (٦) شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر ، ولم تزل طائفة المحاربين ، في الأزقة متترسين ، فوصـل جماعة من الفرنساوية ، فظهروا من ناحية المناخلية ، وبندقوا على متراس الشوائين ، وبه جماعة من مغـاربة الفحامين ، فقاتلوهم حتى أجلوهم وعن المناخليـة أزالوهم • وعنـد ذلك زاد الحال ، وكثر الزحف والزلزال ، وخرجت العـامة عن الحد ، وبالغوا في القضية بالمكس والطرد •

وباتوا تلك الليلة (٧) سـهرانين ، وعلى هذا الحال مستمرين • وأما الأفرنج (الفرنسيين) فانهم أصبحوا مستعدين ، وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين ، وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والبنيـات ووقفوا مستحضرين ولأمر كبيرهم منتظرين وكان كبير الفرنسيين أرسل الى المشـايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ومل من المطاولة ، هذا والرمى متتابع من الجهتين ، وتضاعف الحال ضعفين حتى مضى وقت العصر ، وزاد القهر والحصر • فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنيات (القنابل) على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجـرروا عليه المدافع والقنبر (الدانات) وكذلك ما جاور من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين • فلما سقط عليها ذلك ورأوه ، ولم يكونوا في عمرهم عاينوه ، نادوا ياسلام من هذه الآلام ، يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف ،

---

(٦) عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي جزء ٣ ص ٢٥ ، ص ٢٦ ، ص ٢٧ •
(٧) نفس المصدر (الجبرتي جزء ٣) ص ٢٦ •

وهربوا من كل سوق . ودخلوا في الشقوق · وتتابع الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزت الأركان ، وهدمت فى مرورها حيطـــان الدور وسقطت في بعض القصور ونزلت فى البيوت والوكائل (المتاجر الكبرى) وأصمت الآذان بصوتهـــا الهائـل فلما عظم هذا الخطب ، وزاد الحال والكرب ، ركب المشايخ الى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ويمنع عسكره من الرمي المتراسـل ، ويكفهم كمـا يكف المسلمين عن القتال ، والحرب خدعة وسجال · فلما ذهبـوا اليه واجتمعوا عليه · عاتبهم فى التأخير واتهمهم في التقصير ، فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم · وأقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان في المسالك ، وتسامع الناس بذلك ، فردت فيهم الحرارة (٨) وتسابقوا لبعضهم بالبشارة واطمأنت منهم القلوب وكان الوقت قبل الغروب ، وانقضى النهار وأقبل الليل ، وغلب على الظن أن القضية لهـــا ذيل · وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمي والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البـــارود · والافرنج (الفرنســـاويون) أثخنوهم بالرمي المتتابع بالقنابر والمدافع الى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات ، وفرغت من عندهم الأدوات ، فعجزوا عن ذلك وانصرفوا ، وكف عنهـم القوم وانحرفوا ، وبعد هجعه من الليل دخل الأفرنج المدينة كالسيل ، ومروا في الأزقة والشوارع ، لايجدون لهم ممانع ، كأنهـم الشـــياطين أو جنـد ابليس ، وهدموا ما وجـدوه من المتاريس ، ودخـل طائفة باب البرقية ، ومشوا الى الغورية ، وكروا ورجعوا ، وترددوا وما هجعوا ، وعلموا باليقين ، أن لا دافع لهم ، ولا كمين ، وتراسلوا أرسالا ، ركبانا ورجـالا » ·

اقتحام الجامع الأزهر بالخيالة

ثم دخلوا الى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والســـهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبـــة ، ونهبوا ما وجـــدوه من المتاع والأواني والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه عروه ، ومن ثيابه أخرجوه ، وأصبح يوم الثلاثاء (١٣ جمـــاد أول) ٢٣ آكتوبر ســـنة ١٧٩٨ (ثالث يـــوم

(٨) نفس المصدر الجبرتي جزء ٣ ص ٣٦ ·
(٩) نفس المصدر السابق الجبرتي جزء ٣ ص ٣٦ ·

الثورة) (٩) فاصطف منهم حزب بباب الجامع ، فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعا ويسارع ، وتفرقت طوائفهم بتلك النواحى أفواجا ، واتخذوا السعى والطواف بها منهاجا (داوريات سيارة) وأحاطوا بها احاطة السوار ، ونهبوا بعض الديار ، بحجة التفتيش على النهب وآلة السلاح والضرب ، وخرجت سكان تلك يهرعون ، وللنجاة بأنفسهم طالبون ، وانتهكت حرمة تلك البقعة ، بعد أن كانت أشرف البقاع ، ويرغب الناس سكناها ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه من الضياع ، والفرنساوية لايمرون بها الا نادرا ، ويحترمونها عن غيرها فى الباطن والظاهر (قبل الثورة طبعا) فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع ، وانخفض على غير القياس المرفوع ، ثم ترددوا فى الأسواق ، ووقفوا صفوفا مئاتا وألوفا ، فان مر بهم أحد فتشوه ، وأخذوا ما معه وربما قتلوه ، ورفعوا القتلى والمطروحين ، من الأفرنج والمسلمين ، ووقف جماعة من الفرنسيين ، ونظفوا مراكز المتاريس ، وأزالوا ما بها من الأتربة ، والأحجار المتراكمة ، ووضعوها فى ناحية ، لتصير طرق المرور خالية ، وتخربت نصارى الشوام ، وجماعة أيضا من الأروام ، واغتنموا الفرصة فى المسلمين ، وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين ، وضربوا فيهم المضارب ، وكأنهم شاركوا الأفرنج النوائب ، مع أن المسلمين الذين جاوروهم ، نهبهم الزعر أيضا وسلبوهم ، وكذلك خان (دكان) الملايات المعلوم ، الذى عند باب حارة الروم ، فيه بضائع المسلمين وودائع الغائبين ، فسكت المصاب على غصته واستعوض الله فى قضيته ، لأنه ان تكلم لاتسمع دعواه ، ولا يلتفت الى شكواه » .

تنكيل الفرنسيين بالشعب

« وانتدب برطلمين للتفنيش ، على من حمل(١٠) السلاح أو اختلس ، وبث أعوانه فى الجهات ، يتحسسون فى الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم فيحكم فيهم بمراده ، ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ، ويركب فى موكبه ويسير ، وهم موثوقون بين يديه بالحبال ويسجنهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجونات ، ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب ، ويدل بعضهم على بعض ، فيضعون على المدلول عليهم أيضا للقبض ، وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين الأغا (وهو مصطفى أغا وقد عينه الفرنسيون محافظا للمدينة بعد أن عزلوا محمد المسلمانى) وتجبر فى أفعاله وطغى ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفى بحر النيل قذفوهم ،

(١٠) نفس المصدر السابق الجبرتى جزء ٣ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ .

ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لايحصى عددها الا الله ، وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ، ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم » ٠

توسط المشايخ (٢٤ أكتوبر ١٧٩٨)

« وأصبح يوم الأربعاء ٢٤ أكتوبر ١٧٩٨ ، فركب فيه المشـــايخ أجمع ، وذهبوا لبيت صـــارى عســـكر وقابلوه ، وخاطبوه ، فى العفو ولاطفوه ، والتمسوا منه أمانا كافيا ، وعفوا ينادون به باللغتين (الفرنسية والعربية) شافيا ، لتطمئن بذلك قلوب الرعية ، ويسكن روعهم من هذه الزرية ، فوعدهم وعدا مشوبا بالتسويف ، وطالبهم بالتبيين والتعريف ، عمن تسبب من المتعممين فى اثارة العوام ، وحرضهم على الخلاف والقيام ، فغالطوه عن تلك المقاصد ، فقال على لســـان الترجمان ، نحن نعرفهـــم بالواحد ، فترجوا عنده فى اخراج العسكر من الجامع الأزهـــر (طلب حيوى بالنسبة لمشايخ الأزهر) ، فأجابهم لذلك السؤال وأمر باخراجهم فى الحال » ٠

القبض على قادة الثورة والتنكيل بهم

وصدرت أوامر بونابرته بالقبض على من اتهم من المشايخ باشعال الثورة فتم القبض على الشيخ سليمان الجوسقى شـــيخ طائفة العميان والمشايخ أحمد الشرقاوى ، وعبد الوهاب الشبراوى ، ويوسف المصيلحى ، واسماعيل البراوى وحبسوهم فى بيت البكرى ، وفر هاربا السيد بدر الى جهة الشام « واتهموا أيضا ابراهيم أفندى كاتب البهار بأنه جمع لهم جمعا من الشطار (الفدائيين) (١١) وأعطاهم الأسلحة والمساوق فقبضوا عليه وحبسوه فى بيت « مصطفى أغا » ٠

ولم تنفع أى شفاعة من الشيخ السادات وباقى شيوخ الديوان فى الافراج عن المشايخ المسجونين بالقلعة وبيت الأغـا مصطفى ٠ ثم نقـل الجنود المشايخ المعتقلين الى القلعة بعد أن عروهم من ثيابهم فسجنوهم الى الصباح وعلى رأسهم الشيخ الجوسقى ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوا بجثثهم من السور خلف القلعة ٠ وتغيب حالهم عن أكثر النـاس أياما ولما علم العامة بأسلوب قتل هؤلاء الزعماء ساد الحزن عليهم وانتقلت أخبـــار هذا التنكيل الى الأقاليم واحتاط عســـكر الفرنسيس بزيـادة التحصينات والاستعدادات ٠ ومع ذلك قامت بعض البـلاد على عســـكر الفرنساوية بالأقاليم وقاتلوهم وضربوا أيضا مركبين بها عدة من عساكر الفرنسيس فحاربوهم ٠

---

(١١) الجبرتى جزء ٣ ص ٢٩ ٠

وكان كبير ثوار الأقاليم ابن شعير أرسل لهم بونابرت شرذمة من شباب المغاربة فقبضوا على كثير من أفراد الشعب وعلى كبيرهم ابن شعير وقتلوه ونهبوا داره ومتاعه وماله وأحضروا أخويه وأولاده وقتلوهم ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير ، واستعان الفرنسيون بقوة المغاربة الخونة فى اشعال الفتنة بين العامة لأنهم كانوا يعتبرون من الشعب ٠

كما سافر العميل برطلمين الى ناحية سرياقوس لمطاردة الفارين الى جهة الشرق واعتقل كثيرا من الأهالى ونهب ثرواتهم ٠

اعادة تقوية الحصون

بعد اخماد (١٢) ثورة القاهرة الأولى بالعنف والقتل والذبح والتنكيل أخذ الفرنسيون فى الاهتمام فى تحصين النواحى والجهات وبنوا أبنية على التلول المحيطة بالبلد ووضعوا بها عدة مدافع وقنابر وهدموا أماكن بالجيزة وحصنوها تحصينا زائدا وكذلك مصر العتيقة ونواحى شبرا وهدموا عدة مساجد وقطعوا نخيلا كثيرة وأشجارا لعمل الحصون والمتاريس وحفروا بالجيزة خنادق كثيرة ٠

خاتمة لهذه الثورة

وبذلك تكون الثورة الأولى بالقاهرة فى مواجهة ظلم واستبداد الفرنسيين قد توقفت نتيجة فداحة الخسائر ووحشية التنكيل الفرنسى وضعف أسلحة الثوار ٠ هذا التوقف والتسليم الاذعانى كان يقابله مزيد من التعسف والوحشية والظلم والامعان فى نهب أموال العامة والخاصة وكان فى كل هذه معالم بذور مقومات ثورة أخرى ولم يترك الشعب المصرى المحتل الفرنسى ليلتقط أنفاسه ٠

خامسا : مرحلة التغيير

فى الحقيقة رغم اطلاق كلمة ثورة على ثورة القاهرة الأولى فى جميع كتب التاريخ العربية والأجنبية الا أنها لاتعتبر ثورة كاملة لأن العمل الايجابى وهي المقاومة الشعبية لم تحقق الهدف الأساسى والبعيد وهو ارغام الحملة الفرنسية وقواتهم للجلاء عن البلاد ولكنها حققت مرحلة من مراحل الجلاء الكامل فالمزيد من تنكيل الفرنسيين بالشعب عقب الثورة ولد مزيدا من السخط الشعبى فى جميع أنحاء مصر الذى دعم روح المقاومة

---

(١٢) الجبرتى ص ٢٩ ٠

والعناد والصلابة الشعبية فى مواجهة القوة الفرنسية بأسلحتها الحديثة وتفوقهم العلمى فى مستوى المعدات الحربية وآلات الحرب المتفوقة • فاذا ما حاولنا حصر التغيير الذى أحدثته هذه المقاومة لأمكننا تجاوز اطلاق كلمة ثورة عليها وكان التغيير يتلخص فى الآتى :

١ ـ حقق المصريون أملهم فى تكوين حكومة وطنية وأصبح المصريون يحكمون أنفسهم بأنفسهم بعد أن استبعد العنصر الغريب عن الشعب المصرى وهم أمراء المماليك الذين كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة الأساسية باستبدادهم واستغلالهم وتعاليهم وتحكمهم فى أرواح وأموال الناس وكذلك رمز السلطة العثمانية وهو الوالى التركى ورغم أن الفرنسيين بعد ثورة القاهرة الأولى أبطلوا اجتماع الديوان عقابا لسكان القاهرة على ثورتهم ولكن الفرنسيين لم يمكنهم (١٣) الاستغناء عن الحكومة الوطنية لتحقيق السيطرة على البلاد فأعادوا تشكيل الديوان (الحكومة الوطنية) الذى اجتمع فعلا يوم ٢٧ ديسمبر ١٧٩٨ •

٢ ـ رغم الاجراءات الفرنسية العنيفة ضد الثوار والأهالى فقد انتشرت الأفكار الثورية فى جميع أنحاء البلاد وصار هناك نواة شعبية قادرة على العمل الايجابى فى جميع أنحاء مصر وبذلك استمرت المقاومة ولم تخمد رغم التنكيل والتشتيت والتخويف والردع •

٣ ـ تكونت فى مصر معالم ونواة « مبدأ مصر للمصريين » بعد طول سيطرة الدخيل على مصر سواء كان على شكل مماليك أو أتراك ولأول مرة يشعر المصرى بالثقة بالنفس وبامكان الاعتماد على النفس والثقة فى ممثليهم الأزهريين وزعماء الشعب ومن خلال ذلك تكونت الحكومة الوطنية على شكل الديوان والمؤسسة الوطنية من زعماء المقاومة • وكانت هذه المؤسسة الوطنية تحمل فى طيات تكوينها امكان استدامة الكفاح طلبا للحرية ولآخر مدى •

٤ ـ أصبح الوعى الشعبى حساسا لدرجة مرتفعة بحيث تعود على متابعة أحوال المحتلين الفرنسيين وظروف ضعفهم ازاء حصار الانجليز لهم وعلى متابعة القوى المتصارعة معهم اما فى صورة المماليك المنتشرين فى أنحاء البلاد وبخاصة فى الصعيد فكان الشعب وقت اللزوم ورغم عدم الثقة بامرائه السابقين المماليك كان يساهم ويشترك ويدعم مقاومة المماليك للفرنسيين على أساس أن الفرنسيين هم العدو العاجل والمماليك هم العدو الآجل •

---

(١٣) تاريخ الحركة القومية جزء أول للأستاذ الرافعى ص ٢٨٦ •

وبنفس القدر كان يتابع موقف الأتراك وتذبذبهم بين التحالف مع البريطانيين أو التعاقد مع الفرنسيين على حساب المصريين كما كان بنفس القدر من الاهتمام يتابع وينتظر من الاتراك المساهمة فى امكان طرد المحتل الفرنسى ٠

وبنفس القدر أصبح الشعب المصرى من الوعى بمكان حيث تعلم كيف يتابع ويستفيد من عداوة البريطانيين التقليدية للفرنسيين وامكان استغلال ذلك لمصلحتهم لتحقيق جلاء الفرنسيين وأعظم مثل على ذلك مساهمة الشعب المصرى فى الاحتفال بهزيمة الفرنسيين فى معركة أبى قير البحرية بانتصار الأسطول البريطاني واحكامه الحصار بحيث قطع خط الاتصال بين جيش نابليون فى مصر وقاعدته فى فرنسا مما أعطى الثقة للشعب المصرى بأن استمرار الكفاح أصبح ضرورة لأنه بالقطع سيساعد على جلاء الفرنسيين ان آجلا أو عاجلا ٠

ما بين الثورتين

الحملة الفرنسية على سوريا

قام والى عكا من قبل الأتراك أحمد باشا الجزار باحتلال قلعة العريش يوم ٢ يناير ١٧٩٩ ولم تكن فى يد الفرنسيين حتى ذلك الوقت ولكن كان من المعلوم أنها من أملاك مصر فاعتبر نابليون هذا نذيرا بزحف الجيش العثمانى على مصر — حاول نابليون الاتصال بالأتراك للتفاهم والتفاوض ورفض الأتراك التفاهم أو حتى مقابلة المندوب الفرنسى ٠ قرر نابليون أن يتخذ المبادأة ويبدأ هو الزحف على سوريا باعتبارها خط الدفاع الأول عن مصر ، وحتى اذا ما نجح بالاستيلاء عليها أمكنه بعد ذلك أن يواصل زحفه على الهند ٠ وقبل أن يبدأ زحفه على سوريا اتخذ احتياطات محكمة لتقوية دفاعاته فى مصر لتكون قواته قادرة على اخماد أى انتفاضات أو ثورات أو اعتداءات على السواحل من الأسطول الانجليزى٠ كذلك بذل بونابرت مجهودات واسعة بالتودد الى الأهالى المصريين وزعماء الشعب واصطحب معه بعض المشايخ من أعضاء الديوان بالاضافة الى القاضى التركى وابراهيم أدهم أفندى وأمير الحج مصطفى بك نائب الوالى التركى تودد لهم وفى نفس الوقت ليكونوا بمثابة رسل التفاهم بينه وبين الشعب العربى فى سوريا ٠ ولكن قبل أن يبدأوا الرحلة مع قوات بونابرت انفصلوا عن الحملة حيث لم يكونوا راضين عن الحملة الفرنسية على سوريا أسوة بباقى الشعب المصرى رغم أن نابليون أشاع عن طريق أعضاء الديوان أن الحملة على سوريا كانت بغرض محاربة المماليك وفتح طريق التجارة بين البلدين ٠

بدء الحملة

تحركت مقدمة الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال (لاجرانج) Lagrange قبل أن يتحرك نابليون بمدة ـ وارتحل نابليون من القاهرة يوم ١٠ فبراير ١٧٩٩ ٠

احتلال العريش

وهزم الفرنسيون قوات العثمانيين والمماليك في العريش في المعركة الحامية التي استمرت من ١٥ الى ٢٠ فبراير ١٧٩٩ ٠

احتـــلال يافا (*)

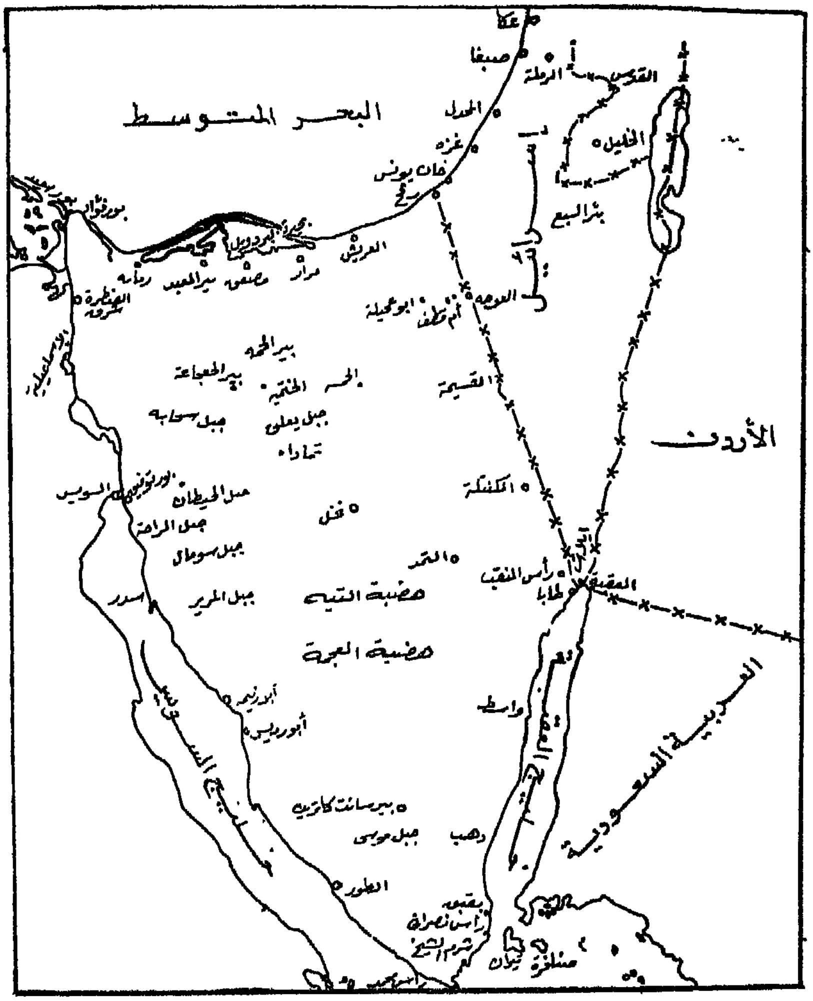
ثم تابــع بونابرت زحفــه فاحتلت قواته خـان يونس ثم غزه دون مقاومة واستانفوا زحفهم يوم ٢٨ فبراير ١٧٩٩ فاحتلوا على التتابع الرملة واللد حتى وصلوا الى يافا وهناك دارت معركة عنيفة واستولى الفرنسيون عليها يوم ٢٧ مارس ١٧٩٩ وارتكبوا فيها فظائع ومذابح بوحشية ومارسوا أسوأ أنواع السلب والنهب وكان قمة التصرفات اللا انسانيـة والبعيدة كل البعد عن شرف الجندية والقتال أنه في آحر مراحل القتال عرض الجنود العثمانيون المدافعون داخل المدينـــة على الفرنسيين التســليم بشرط أن يضمنوا لهم أرواحهم بعد التسليم وكان عددهم يبلغ ثلاثة آلاف مقاتل وتعهد الياوران الفرنسيان المتفاوضـــان بوهارنييـــه Beuharnais وكروازييه Crosier بهذا العهد ولكن نابليون نكث بالعهد وساقهم جميعا الى ساحل البحر وأمر باعدامهم جملة رميا بالرصاص بحجة عدم تمكنه من حراستهم واطعامهم ـ وقد أثارت هذه العملية الوحشية النفوس العثمانية والعربية على طول البلاد وعرضها مما جعـل باقي الحاميـــات العثمانية تستميت في الدفاع عن مناطقها ٠ وكأن الله أراد الانتقام من الجيش الفرنسي في صورة انتشار الأمراض في قوات الفرنسيين في يافا وغيرها من الوحدات وبشكل وبائي نتيجة كثرة الجثث والدماء ، وكانت خسائر الفرنسيين من الأمراض الوبائيـــة تفوق بكثير عدد قتلى الحرب والنزال ولم يكتب للفرنسيين بعد ذلك أي نصر أو نجاح حيث استمات المدافعون العثمانيون في قتالهم ٠

حصار عكا والارتداد عنها

بدأ الفرنسيون حصار عكا وضربها من يوم ١٩ مارس ١٧٩٩ ودارت حول أسوارها معركة طاحنة استمات فيها العثمانيون في الدفاع بقيادة أحمد باشا الجزار وقاومت عكا مقاومة عنيفة وبعد شهور من الحصـــار

(*) تاريخ الحركة القومية جزء ٢ للأستاذ الرافعي ص ٣٧ ٠

اضطر الفرنسيون للارتداد عنها يوم ٢١ مايو ١٧٩٩ وانتهت الحملة الفرنسية بالفشل والانسحاب الى مصر وبخاصة بعد أن وصلت الرسل الى بونابرت من الجنرال دوجا والوزير بوسليج باستئناف الشعب المصرى للاضطرابات فى جميع أنحاء البلاد بالاضافة الى تفشى الوباء بين جنوده والى اشتداد حصار الأسطول البريطانى للشواطىء الشمالية ومناوراته أمام شواطىء السويس .



شبه جزيرة سيناء

اندلاع الثورة فى كل مصر

(أولا) ـ مرحلة استغلال وتحكم الأقلية الفرنسية فى الأغلبية

(ب) مرحلة وعى ومقـــاومة الأغلبية المصرية وعدم الاستســـلام، اذا اعتبرنا أن حرب التحرير فى مواجهة جيوش الاحتـلال الأجنبية أنها ثورة بجميع مراحلها المتعارف عليها ٠

فاننا لا يمكن أن نفصل زمنيا بين المرحلتين فى حالة ثورتى القاهرة الأولى والثانية خصوصا بعد فظاعة التنكيل والانتقام التى قامت بها القوات الفرنسية ضد العامة بجميع فئاتهم وطبقاتهم فى الثورة الأولى ، فقد تداخلت المرحلتان فى بعضهما نظرا لتداخل الفعل ورد الفعل فكان المزيد من الظلم والوحشية والذبح والقتل وسلب ممتلكات الناس يقابلها فورا رد فعل شعبى بالسخط والمقاومة لأن الوعى كان متوفرا بدرجة عالية وكان يرجع بصفة خاصة الى تمرس المصريين من دروس الثورة الأولى والى عملية التوعية والشحن والاثارة من زعماء المؤسسة الوطنية من مشايخ وزعماء طوائف الشعب فلم تكن ثورة القاهرة الثانيـــة الا عملا ايجابيا بكل أبعاده لمقاومة المحتـــل فلم تكن ثورة تقليـــدية ضـــد حـــكومة داخلية أو محلية بل ضد عدو أجنبى محتل ٠ ويمكن تتبع هاتين المرحلتين من بعد العنف والتنكيل والوحشية فى اخماد ثورة القاهرة الأولى حسب عرف الفرنسيين لأن ثورة القاهرة الأولى لم تخمد ولكنها توقفت الى حين ، ازاء شدة التنكيل وتفوق السلاح الفرنسى ولكن حب الانتقام وطبيعة المصرى فى الثأر والاستماتة عند اليأس وبخاصة بعد أن وصلتهم أخبار مذبحة نابليون فى الثلاثة آلاف عثمانى المتسلمين فى يافا اعتمادا على الشرف الفرنسى العسكرى القبيح ،

هذه الروح العنيدة والمصرة على المقاومة استأنفت نشاطها بمجرد أن واتتها الظروف المناسبة للانتفاضة والمقاومة والثورة وبخاصة أثناء انشغال جنود نابليون في الحملة على سوريا ووصول أخبـــار ارتداد نابليـون عن عكا واستماتة الجنـــود العثمـــانية فى الدفاع عن بلادهم وفشـــل الحملة الفرنسية على سوريا بالاضافة الى الحصار البريطانى للشواطىء المصرية والذى جعل عند الفرنسيين حالة قلق عسكرى شعر به الثوار المصريون ولكل ذلك فقد قامت فجأة الانتفاضات فى كل أنحاء مصر .

المقاومة فى الوجه البحرى

الثـــورة فى الشرقيـــة (***

كانت مظالم الفرنسيين هي السبب فى اشتعال التمرد والثورة فقد أخذوا يفرضون الاتاوات فكانوا فى القرى يصادرون الجمال والحمير والماشية فثارت نفوس الأهالى ووقعت مصادمات فى بردين والعصلوجى والغار والزنكلون . وعنـد استفزاز الأهالى بجمع دوابهم ومواشـــيهم فى بردين فى أول مارس ١٧٩٩ قاوم الأهالى باســـتخدام الأسلحة النارية وفر الفرنسيون فعادوا يوم ١٦ مارس للانتقام ونكلوا بالفلاحين فى بردين والزنكلون ثم انتشرت الثورة بعد ذلك الى وسط الدلتا .

معركة كفور نجم (*)

تجددت الثورة فى القليوبية فى آخر شهر مايو ١٧٩٩ وفى منطقة ميت غمر وانضم للثوار جماعة من المماليك يوم ٣٠ مايـو وهجموا على سفينة حربية فرنسية فى النيل واستولوا عليها وغنموا أربعة مدافع وقاومت الجنـــود الفرنسيون من منـوف وانسحب الثـوار الى كفور نجم وتعقبهم الفرنسيون ودارت معركة شديدة هناك يوم ٥ يونيو ١٧٩٩ على شاطىء بحر مويس انتهت بانسحاب الثوار وفيما بعد أقام الفرنسيون قلعة فى ميت غمر لحماية الملاحة ولقمع الثوار .

الثورة فى غرب الدلتا (*)

كانت هذه الأقاليم غرب الدلتا مسرحا للقلاقل والثورات وبخاصة فى الاسكندرية ورشيد ومديرية البحيرة عندما قام الأســطول البريطانى بضرب قلاع الاسكندرية من أول فبراير ١٧٩٩ بالاضافة الى اشاعة خبر

(★★) الرافعى (جزء ٢) ص ٥٣ .
(★) الرافعى الجزء ثانى ص ٦١ .
(★) الرافعى جزء ٢ ص ٦٢ .

قرب قدوم الأتــراك ــ كل ذلك حفز الأهالى الى الهيــاج وظهرت بوادر الثورة فى الاسكندرية ورشيد فى مارس ثم فى البلاد المجاورة ٠

وكان الجنرال مارمون قومندان الاسكندرية قد فرض أتاوه على شكل سلفة اجبارية على مديرية رشيد موزعة على بلادها وكفورها فامتنعت معظم البلاد والقرى عن الدفع فقام الفرنسيون بارسال حملة تأديبية مسلحة واستخدموا العنف فقامت الثــورة فى جهــات برنبــال ، ومطوبس ، وكفر شباس عمير والسعدة وغيرها ــ ولم تستطع الحملة أن تتغلب على دفاعات الأهالى وبخاصة فى شباس عمير لقوة دفاعاتها وتحصنها فاضطرت القوة الى هدمها عن آخرها بضرب المدفعية وحــدث نفس الشىء فى بلدة السعدة وأقفرت معظم البلاد من السكان ٠

الثورة فى البحيرة (ثورة مولاى محمد)

أما ثورة البحيرة فكانت (١٤) أعظم وأقوى الثورات لكفاءة تسليحها وتنظيمها والفضل يرجع الى زعامة وقيادة الثائر العربى المهدى أو مولاى محمد فقد حضر من درنة (طرابلس الغرب) رجل قوى الشخصية والحجة ادعى المهدية وكان يطلق عليــه (مولاى محمد) ودعا الناس الى الجهــاد بقتال الفرنسيين وأقبل الناس عليه أفواجا وضم اليه رجال القبائل من عرب أولاد على والهنادى وغيرهم ــ وبسرعة مذهلة تجاوبت معــه نفوس المصريين الساخطة الأبية حتى بلغت مجموع قواته فى فترة ما ١٥٠٠٠ خمسة عشرة ألفا مقاتل مشاة ، ٥٠٠٠ وخمسة آلاف من الفرسان ومعظمهم كانوا مسلحين بالأسلحة الفردية الحديثة ٠

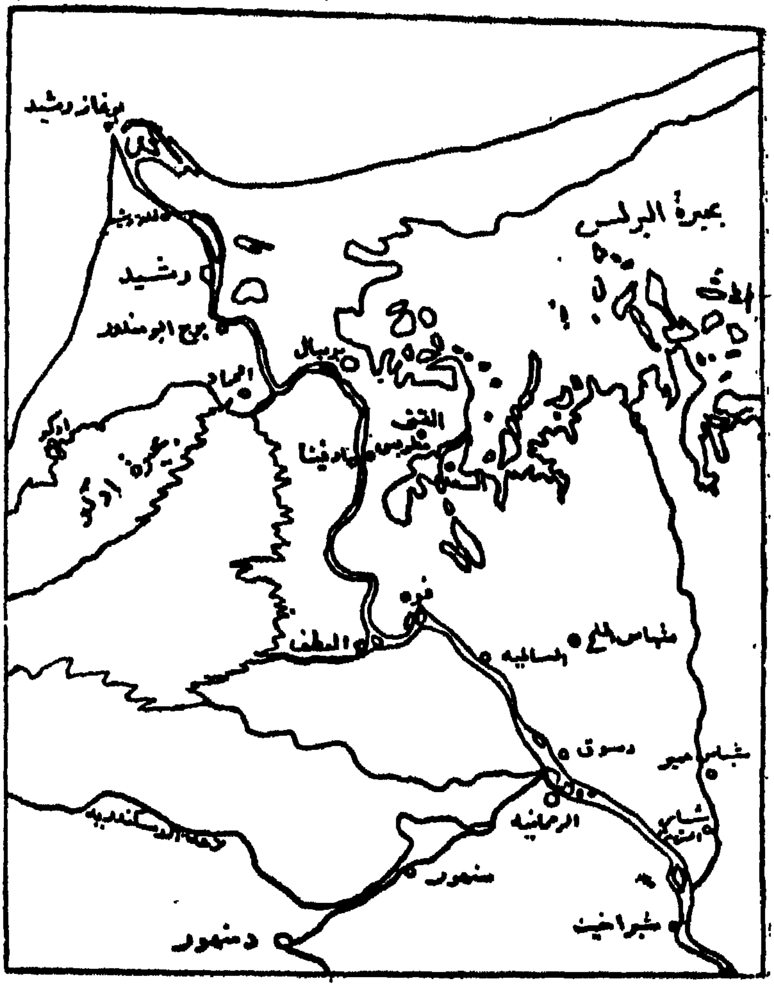
ففى ٢٤ ــ ٢٥ ابريل ١٧٩٩ هاجم مولاى محمــد بقواته الحاميــة الفرنسية فى دمنهور وقتل الثوار رجال الحامية الفرنســية جميعهم ــ واحتل دمنهور وكانت تحت قيادة الضابط مارتان Martin وواصـــل انتصاراته حتى وصـــل الى الرحمانية ورشيد وحقق نصرا مظفرا ــ وكان لهذه الانتصارات على جيوش الفرنسيين أثر كبير فى رفــع معنويات عامة الشعب المصرى بعد انتشار صداها وعمت الفرحة جميع أنحاء مصر حتى فكر أمراء المماليك المعسكرين فى الصعيد وغيرها فى الانضمام الى قوات المهدى (مولاى محمد) ٠

هزيمة الفرنسيين مرة أخرى

جهز الفرنسيون قوات كثيرة بأقوى الأسلحة للانتقــام من المهدى وسارت القوة الفرنسية من الاسكندرية يوم ٢٧ ابريل ١٧٩٩ فى اتجاه

---

(١٤) نفس المصدر ص ٦٣ الى ٦٨ ٠



بين رشيد وشبراخيت (تخطيط سنة ١٨٠٠)

الرحمانية لينضم الى حامية الرحمانية الفرنسية استعدادا للهجوم المركز على دمنهور ولكن قوات المهدى التقت بهذه القوات القادمة من الاسكندرية قبل أن تصل الى الرحمانية ودارت معركة رهيبة وقتالا عنيفا انتهى بانسحاب القوات الفرنسية المهزومة الى الاسكندرية .

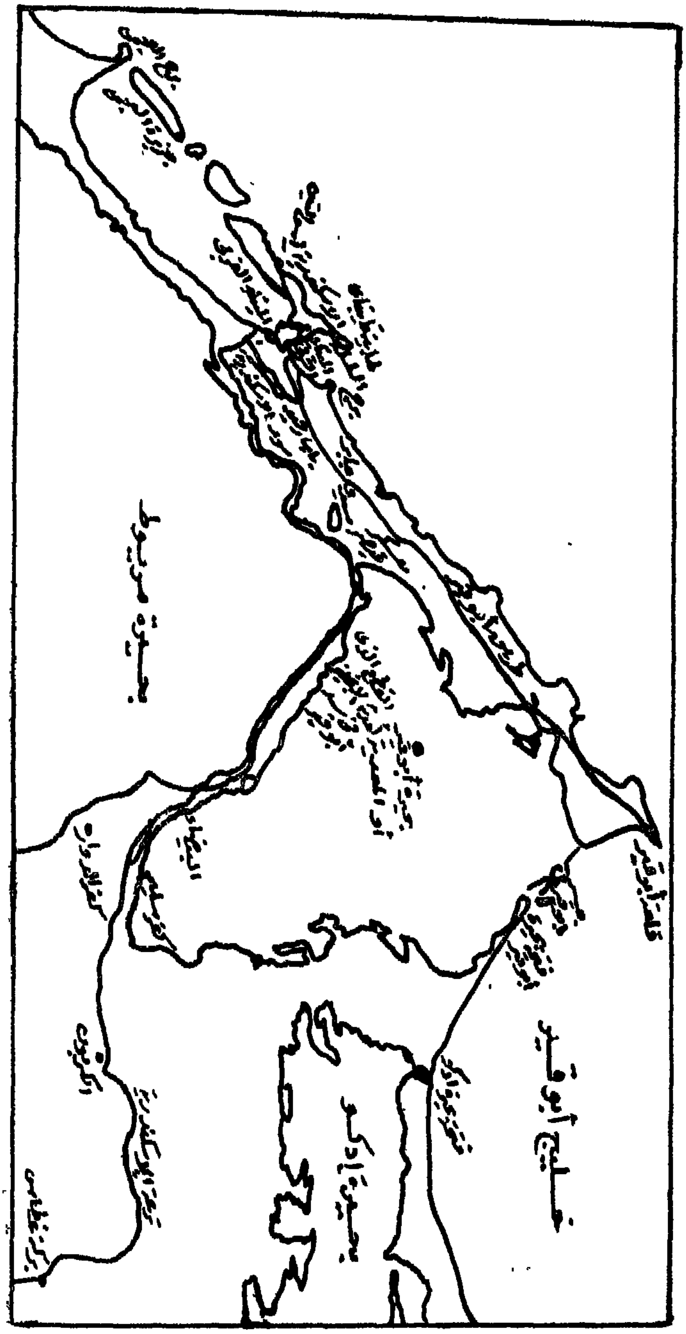
المهدى ومعركة سنهور (٣ مايو ١٧٩٩)

أرسل الفرنسيون مددا عظيما الى الرحمانيـــة وأصبحت قواتهـم تشكل قوة ضاربة رهيبة ـ وتقدموا لقتـال المهدى فقابلهم يـوم ٣ مايو عند سنهور بالبحيرة بالقرب من دمنهور ودارت معـركة من أشد المعارك واظهر أتباع المهدى فى هـذه المعركة بسـالة فائقة واستماتة واستهانة بالموت فى سبيل الله (كالمجاهدين تماما) واظهر أتباعه شـجاعة فائقة لانظير لها بشهادة الفرنسيين أنفسهم كل ذلك رغم أن مدافع الفرنسيين الحديثة كانت تحصد صفوفهم حصدا ومع ذلك ورغم خسائر رجال المهدى فى الأرواح وقد بلغت ألفين ٢٠٠٠ فان باقـى قواته اقتحمت صـــفوف الفرنسيين فى بسالة واستشهد كثير من قادة الثـوار وكان على رأسهم المجاهد ابراهيم الشوربجي والمجاهد عبد الله باش من مشـايخ دمنهـور والشهيد مراد عبد الله شيخ قبيلة الهنادى وكان النصر فى النهاية حليف قـوات المهـدى (مولاى محمد) وقـرب الغروب ارتد الفرنسـيون الى الرحمانيـــة ٠

وأعاد المهدى حشد قواته وأعاد تسليحها وتدعيمها تمهيدا لاستئناف الجهاد ، فقام بمهاجمة معسكر ودفاعات الفرنسيين فى الرحمانية ولكنـه اضطر ازاء مناعة المواقع الفرنسـية الى الارتداد الى دمنهـــور واتخذها معسكرا وقاعدة له ٠

معركة دمنهور (مرة أخرى)

حشد الفرنسيون معظم قواتهم المبعثرة فى أنحـاء الدلتا لتكون معركتهم المقبلة مع المهدى حاسمة فى دمنهور قبل أن يستفحل أمره أكثر حيث أن قواته أصبحت حتى هذا التاريخ تشكل خطـورة على الوجـود الفرنسى فى مصر كلهـــا وقادرة على أحـداث الهزائم المتتاليـة للقوات الفرنسية ـ وتمكن الفرنسيون بهذا الحشد الكبير ومع استخدام النيران المركزة بأحدث الأسلحة من الاستيلاء على دمنهور معقل قوات المهدى فى منتصف مايو ١٧٩٩ ٠ وارتكب الفرنسيون فى دمنهور بعد سقوطها أشد أنواع التنكيل ومارسوا الذبح والقتل والحرق بالنار للرجال والنسـاء والأطفـال والشيوخ من السكان وكذلك هدم وحرق المبـانى انتقاما من هزائمهم السابقة وكان القتل للأهالى يتم بحد السيف امعانا فى الوحشية وجعلوا دمنهور ركاما من الأحجار السوداء التى اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى ـ وأشيع فى صفوف الفرنسيين أن المهدى قتل ـ والحقيقة أنه لجأ الى الصعيد بعد مطاردة الفرنسيين له ثم عاد الى القاهرة أثناء


بحيرة مريوط
بحيرة إدكو
خليج أبو قير

ثورة القاهرة (١٥) الثانية واشترك فيها مع الثوار وشوهد يحرض الناس على القتال • وبعد اخماد ثورة القاهرة الثانية (١٦) انضم مولاى محمد الى جيش الصدر الأعظم ـ ثم عاد الى مصر فى أواخر عام ١٨٠٠ مع قوات الحملة العثمانية الانجليزية على مصر وهكذا كان المهدى مولاى محمد الثائر العربى مع الثوار المصريين يمثلون مقاومة الأمة العربية الثائرة فى وجه السيطرة الأجنبية •

الهدوء الذى يسبق العاصفة (انتفاضة المنوفية)

بعد استتباب الحال بالبحيرة للفرنسيين ، بعد القضاء على أخطر مقاومة مسلحة مصرية • ساد الهدوء فترة ، وفجأة وصلت لبونابرت أخبار التجهيزات التركية الانجليزية لاعداد تجريدة بغرض اخراج الفرنسيين من مصر ، وصادف توقيت وصول هذه الأخبار حالة سكون وهدوء الشعب المصرى وكان هذا الهدوء المصرى علامة على التحفز للانقضاض والتمرد مرة أخرى ـ وأخذ نابليون فى تحصين مواقعه وقواعده وبخاصة القلاع والطوابى على شواطىء البحر الأبيض كما توقع أن يكون النزول التركى الانجليزى على شواطىء البحر الأبيض وعند أبى قير بين الاسكندرية ورشيد ، وكلف الجنرال (دومارتان) قومندان المدفعية ليشرف على الدفاعات وتقوية الطوابى والقلاع وغادر دومارتان القاهرة يوم ١٩ يونيو ١٧٩٩ على سفينة مسلحة بالمدافع وعند عبورها النيل عند طنوب والزعيرة من بلدان المنوفية بالبر الشرقى على فرع رشيد بمركز تلا هجم عليهم جمع من الأهالى المسلحين بالبنادق ودار قتال عنيف وكان الجنرال دومارتان ضمن الجرحى ثم توفى عند نقله الى رشيد •

معركة أبى قير العثمانية (١٧ يوليو ١٧٩٩)

نزل الجنود العثمانية على شاطىء أبى قير يوم ١٤ يوليو ١٧٩٩ بقيادة كوسه لى مصطفى باشا سر عسكر الروملى (١٧) وحاصروا القلعة التى يحتلها الفرنسيون بقيادة القومندان جودار Godard وتحصن جودار بالداخل وتولى الكابتن فيناش Vinche الدفاع عن القلعة •

وبعد حصار يوم واحد هاجم العثمانيون القلعة وتمكنوا من احتلال الاستحكامات وقتل كثير من الفرنسيين وعلى رأسهم القومندان (جودار)•

---

(١٥) الرافعى جزء ٢ ص ٦٣ الى ص ٦٨ عن كتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية •

(١٦) الرافعى جزء ٢ ص ٦٣ الى ٦٨ عن كتاب التاريخ العلمى والحرب للحملة الفرنسية الجزء الخامس •

(١٧) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الرافعى جزء ثانى ص ٧٧ الى ص ٨٤ •

وسلم الكابتن (فيناش) القلعة وأسره العثمانيون واحتلهـا العثمانيون يوم ١٧ يوليو ١٧٩٩ ٠

معركة أبي قير البرية (٢٥ يوليو ١٧٩٩)

لما علم نابليون بهذه الهزيمة حشـد جيشا قوامه عشرين ألف من المشاة وثلاث آلاف من الفرسان مزودين بالمدافع الكافية واتخذ المبادأة قبل أن تعيد القيادة العثمانية أوضاعهـا وأسرع نابليون بالزحف من الاسكندرية ولما وصل أبي قير نشبت معركة صباح يوم ٢٢ يوليو فهجم الجنرال (دستنج) قائد القلب والجنرال (توس) من الميسرة والجنرال (لان) من الميمنـة وكان الجنرال (كليبر) قائد الاحتيـاط وتمـكن الفرنسيون من احداث ثغرة في استحكامات الأتراك وبذل الفريقـان منتهى البسالة ولكثرة عدد وعدة الفرنسيين فقد انتصروا فى النهاية ووقع مصطفى باشا ورجاله أسرى وكانت كارثة عثمانية لكثرة الخسائر فيهم وبخاصة فى القتلى ٠ وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثمانى وذخائره ٠ وقام الفرنسيون بحصار القلعة من بادىء الأمر وظلت تقـاوم القلعة هجماتهم وكان بها ثلاثة آلاف مقاتل عثمانى بقيادة ابن مصطفى باشـا الذى أبى أن يستسلم واسـتمر الحصار قائما والحرب مستمرة الى أن نفذت ذخائر العثمانيين فاحتل الفرنسيون القلعة يوم ٢ أغسطس ١٧٩٩ ٠

المقاومة فى الوجه القبلى

فى أعقاب ثـورة القاهرة الأولى كان القائد ديزيه يمارس مطـاردة المماليك فى الوجه القبلى وفى أثنـاء ذلك قابلتـه مقاومة عنيفة وبخاصة بعـد أن انضـم المصريون الى المماليك ومعهم المجاهدون من العرب المكيين فتصاعدت المقاومة فى وجه ديزيه ٠

معركة سدمنت (آخر أكتوبر) ٠

بعد أن استولى القائد الفرنسى ديزيه على كثير من الغلال من أهالى الوجه القبلى وبالذات من أهالى بنى سويف والمنيـا والفيوم تجـددت الاضطرابات والمقاومة من الأهالى والمماليك وأمعن الفرنسيون فى عمليات النهب والسلب وبخاصة فى الغلال والحبوب ٠ ففى المنيا استولى ديزيه على جميع الغلال وعلى الجياد وقام جنود أحد المراكب الفرنسية باغتصاب ممتلكات الأهالى واستولوا على جميع السلع من سوق مدينة سدمنت وثار الفلاحون وقتلوا بعض الجنود الفرنسيين وصدرت الأوامر بعد ذلك لهم بعدم مزاولة النهب وتوقفت مثل هذه العمليات ٠

ثورة الفيوم

فى آخر أكتوبر ١٧٨٩ أقامت قوات ديزيه فى معسكر للراحة فى الفيوم انتظارا لورود المدد من نابليون استعدادا لاستئناف الهجوم على قوات مراد بك قائد المماليك ولكن الروح الثورية للشعب لم تتوقف وتجددت الاضطرابات ومارس الشعب حرب العصابات على قوات ديزيه — وقام ديزيه بالتقدم يوم ٦ نوفمبر ١٧٨٩ لاخماد هذه الاضطرابات ولقى الفرنسيون مقاومة شديدة فى طارس (١٨) وسيلة وسرستا بالفيوم وازاء تفوق القوات الفرنسية انسحب الأهالى من هذه القرى تحت قيادة على كاشف طبقا لأسلوب حرب العصابات • واستولى الفرنسيون على هذه القرى فنهبوها وأحرقوها عن آخرها انتقاما من هذه المقاومة • ثم فرض الفرنسيون الغرامات والاتاوات على أهالى باقى القرى المجاورة مما ولد فى نفوس الشعب السخط والتبرم فقاموا مع المماليك فى يوم ٨ نوفمبر سنة ١٧٩٨ بالهجوم المركز على قاعدة الفرنسيين بمدينة الفيوم نفسها واضطر الفرنسيون تحت عنف القتال للتراجع بعد أن هاجم الأهالى أسوار المدينة واقتحموا الشوارع وبلغت قوات الأهالى ثلاثة آلاف وخمسمائة من المماليك وفصيلة فرسان عرب من المكيين وألفا من الفلاحين •

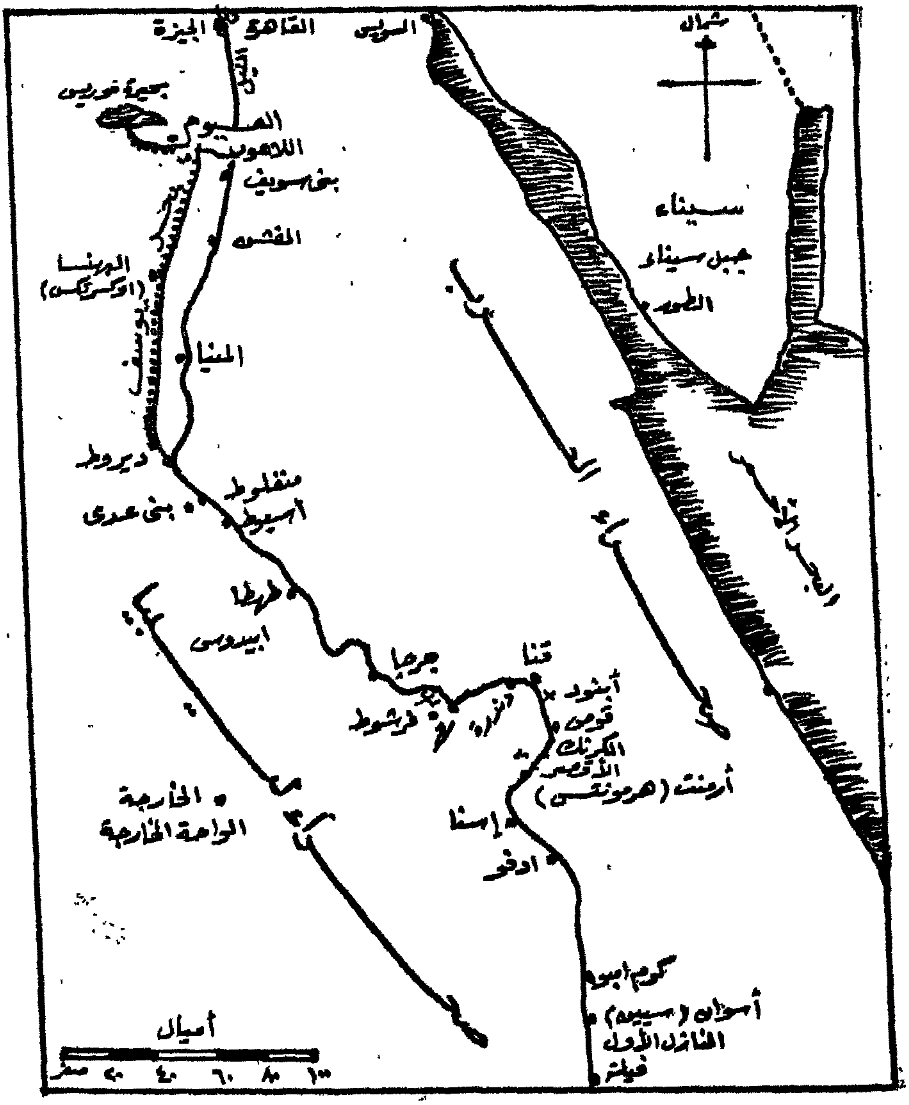
ديزيه يستانف القتال

فى أوائل نوفمبر ١٧٨٩ شعر ديزيه وبخاصة بعد معارك الفيوم بخطورة الموقف حيث تصاعدت استعدادات المقاومة الشعبية والمماليك والمجاهدين العرب واستخدامهم أسلوب حرب العصابات فى الكر والفر فقد آثر ديزيه التوقف عن مطاردة المقاومة الشعبية وألح فى طلب المدد من بونابرت (١٩) ، ورغم انشغال بونابرت فى الاعداد للحملة على سوريا فقد أرسل المدد على دفعات الى ديزيه حتى وصلت قواته الى ١٥٠٠ من الفرسان وقوات كافية من المشاة والمدفعية وكميات وافرة من الذخائر وست سفن حربية مزودة بالمدافع الحديثة وكان مجموع هذه القوات ٤٠٠٠ مقاتل • وكان سبب اهتمام نابليون بتعزيز حملة الصعيد هى أمله فى الحصول على الغلال التى أصبحت البلاد وجيش الفرنسيين فى شدة الحاجة اليها حيث كادت تحدث مجاعة فى الوجه البحرى ، وارتفعت أسعار الغلال بشكل كبير مما قد يعجل ذلك بالثورة الشعبية فى هذه النواحى •

---

(١٨) من قرى مركز سنورس تاريخ الحركة القومية الجزء الأول للأستاذ الرافعى جزء ٢ ص ٣٥٠ •

(١٩) بونابرت فى مصر كريستوفر هيرولد ص ٢٤٦ •



مصر الوسطى والعليا

وكان كل ذلك نتيجة الاضطرابات المستمرة والمنظمة فى الوجه القبلى والتى دأبت على حرمان الفرنسيين بصفة مستمرة من الحصول على هذه الغلال ٠

وبعد أن تم تعزيز قوات ديزيه استأنف التقدم بقواته الكافية وزحف على باقى الوجه القبلى فى اتجاه أسيوط وعندما وصلت قواته صباح يوم ١٧ ديسمبر ١٧٩٨ على مقربة من قرية الفقاعى بالفشن (٢٠) قام أحد الغلمان الفلاحين وكان سنه ١٢ سنة بسرقة كثيرا من أسلحة الفرنسيين فتبعوه وقبضوا عليه بعد اصابته بالسيف وأحضروه الى القائد ديزيه والدماء تسيل منه فلما سأله ديزيه عن السبب فى هذه الأعمال العدوانية ومن حرضه على ارتكابها أجابه الغلام بمنتهى الشجاعة والثبات ٠ « أن الله هو الذى أمره بهذه المقاومة وأنه لم يحرضه أحد على ذلك ٠ ثم قال فى منتهى الثبات والشجاعة « دونك رأسى فاقطعوه » وكان لموقف هذا الغلام من عامة الشعب دلالة واضحة فى نفس الفرنسيين عن مدى صلابة المقاومة المصرية التى يواجهونها ٠

وتقدمت قوات ديزيه واحتلت أسيوط يوم ٢٥ ديسمبر ١٧٩٨ وقامت الحملة بعد ذلك بمواجهة المقاومة العنيفة فى كل من سوهاج ٣ يناير ١٧٩٩ وفى طهطا فى ٨ يناير ١٧٩٩ وفى سمهود فى ٢٢ يناير سنة ١٧٩٩ واشترك مع المقاومة المصرية فى هذه المعركة مجاهدون من عرب جدة وينبع وكثيرا من المجاهدين من سواحل البحر الأحمر ٠

المجاهدون العرب

وقومية المعركة

بمجرد أن شعر شعب الجزيرة العربية بمحنة البلاد (٢١) المصرية التى ابتليت بالغزو الفرنسى قام المجاهدون هناك بتنظيم عملية التطوع لانقاذ البلاد المصرية وللمشاركة فى الجهاد وقاموا بتنظيم أنفسهم واعدادها للجهاد بين ميناء جدة بالحجاز وبين ميناء القصير بمصر على البحر الأحمر وذلك لامداد المقاومة المصرية بما يلزمها من المجاهدين المسلمين — ونفس الشىء حدث — حضر متطوعون عرب آخرون من البلاد العربية فى شمال أفريقيا وكان يطلق عليهم المغاربة والذى كان على رأسهم

---

(٢٠) بونابرت فى مصر كريستوفر هيرولد ص ٢٥٤ ٠
(٢١) بونابرت فى مصر تأليف كريستوفر هيرولد ص ٢٥٦ ٠
كل ذلك من واقع تعبير الكاتب كريستوفر هيرولد ٠

مولاي محمد أو (المهدى) والذى (٢٢) قاوم الفرنسيين بعنف حتى كاد ينتصر عليهم فى البحيرة كما جـاء ذكر ذلك فى مكانه فى مقاومة المصريين فى البحيرة فى الوجه البحرى ٠

وفي الوجـــه القبلي كان القائد الفرنسي ديزيه وقواتـه يشعران بالرهبة من المقاتلين العـرب القادمين من الحجاز والذين عبروا البحـر الأحمر بالآلاف » ٠

« **وقد زعموا كلهم انهم من سلالة الرســـول** ٠ (وهذا هو تعبير الكاتب المسيحى كريستوفر هيرولد) ويحمـلون البنـــادق والسيوف والرماح والخناجر وفى خلقتهم صلابة تنطق بها وجوههم ، وقد تبين أن كثيرا منهم من الحجاج المغاربة الذين تطوعوا بسرعة وهم فى طريق الحج ولكن أكثرهم وأشدهم تعصبا بالطبع هم العرب الخلص من شبه الجزيرة وتجمع الروايات على أن « المكيين » أو « أشراف ينبع » (٢٣) كما أسماهم الفرنسيون هم هؤلاء المقاتلون ذووا الجلود البرونزية والأجساد النحيلة ، كانوا مصداقا لوصف بونابرت لهم » ٠

« ان ضراوتهم لا يعدلهـــا الا انحطاط مستوى معيشتهم لأنهـــم معرضون أبدا لرمال الصحراء الساخنة والشمس المحرقة ، ومحرومون من المياه ، لا رحمة فى قلوبهم (٢٤) ولا عهد لهم » ٠

(بونابرت كان ســـفاح مذبحة يافا التاريخية ٧ مارس ١٧٩٩ ـ ص ١٤١ من الكتـــاب) ويستطرد نابليون عن المجاهدين المكيين قائلا « انهم صورة مجسمة للرجـــل المتوحش كابشـــع ما يصوره العقل وكان هؤلاء الرجال من سلالة ـ أسلافهم الذين فتحوا نصف العـــالم قبل احدى عشر قرنا ، وقد جاءوا فى عام ١٧٩٨ ليقاتلوا الفرنسيين الكافرين بنفس الايمان » ٠ ونزلت كل الامدادات العربية فى ثغر القصير الصغير ٠

واتفق (٢٥) أنه حين وصلت أول قوة عربية كان بونابرت قد أرسل لتوه أسطولا صغيرا من السويس ليحتل القصير ووصـــل الأســـطول المكى فى نفس الوقت ٠

---

(٢٢) ص ٨٣ ، ٨٤ من الكتاب ٠

(٢٣) نفس المصدر السابق ص ٢٥٦ (بونابرت فى مصر) ٠

(٢٤) وأين كانت رحمة وعهد نابليون التى مارس عكسها تماما مع جنود قلعة يافا الاتراك الذين استسلموا له على وعد منه بالأمان ولكنه تنكر لهذا الوعد بالأمر برميهم جميعا رميا بالرصاص على شاطىء البحر ٠

(٢٥) بونابرت فى مصر ص ٢٥٧ الى ص ٢٦٧ ٠

وضرب الأسطول (٢٦) الفرنسى ضربا شـديدا وقفل راجعـا الى السويس واختتم قائده الفرنسى تقريره لبونابرت راجيـا الا يرسـله مستقبلا فى مهام مستحيلة التنفيذ كهذه المهمة · وجاء فى خطاب (٢٧) القـائد ديزيه فى الصعيد الى بونابرت فى ١٨ فبراير ١٧٩٩ « اننى فى معارك متصلة مع الفلاحين والمتطوعين المكيين » وفى ٤ مارس ١٧٩٩ أبلغ الجواسيس (يعقوب حنا) الجنرال بليار الفرنسى (تحت قيادة ديزيه) وكان فى أرمنت أنه من ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ (آلاف) أخرين مكيين نزلوا فى القصـير ·

وفى ٨ مارس ١٧٩٩ التقت قوة الجنرال بليار الفرنسي المؤلفة من ألف رجل (يشكون كلهم تقريبـا من الرمد) بقوة من المكيين قوامهـا ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف و ٣٥٠ من المماليك عند أبنود وكان لديهـم عدد من مدافع استطاعوا أن يطلقوها على الفرنسيين باحكام واستمرت المعـركة ثلاثة أيـام ·

استمرار المقاومة بالوجه القبلى

واستمرت المقاومة لقوات ديزيه وبخاصة بعد انضمام بكوات المماليك عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى · ثم واصلت قوات ديزيه التقدم الى أسـوان وقابلت مقاومة فى جزيرة فيلة فى منتصف فبراير ١٧٩٩ وكانت مقاومة عنيفة اشتركت فى معاركها النسـاء وتجدد القتـال بين جرجا وأسوان فى آخر فبراير ١٧٩٩ ، وكذلك حدثت اضطرابات ومعركة فى الرديسة فى ١١ فبراير ١٧٩٩ ، وهاجم الأهالى القوات الفرنسـية عندما وصلت الى قنا فى ليلة ١٣ فبراير ١٧٩٩ ـ ثم حدثت معركة مع المقـاومة المصرية فى (أبى مناع) فى ١٧ فبراير ١٧٩٩ ثم فى اسنا فى ٢٥ فبراير ١٧٩٩ ولم تتوقف المعارك بين قوات ديزيه والمقاومة المصرية فى جميع نواحى الوجـه القبلى كلما كانت تظهـر طـلائع قوات الحملة الفرنسية فكانت الصوامعة فى ٥ مارس ١٧٩٩ وكان من أشـد أعمال المقاومة هى عملية بارود ·

عملية بارود (٣ مارس ١٧٩٩)

كانت ١٢ سفينة حربية تسير ببطء خلف حملة ديزيه بالوجه القبلى وكانت مشحونة ذخائر وعند قرية (بارود) جنوبى قنا وبالقرب من قوص

(٢٦) نفس المصدر السابق ·

(٢٧) اعتبر الفلاحين والمتطوعين المكيين اعنف من المماليك نفس المصدر السابق ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٨ ·

سحق فيها الجيش العثمانى - ولكن زاد قلقه عندما علم أن تركيا تجهز جيشا عظيما في عدده وتحشده فى سوريا بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ٠

وبعد معركة أبى قير كان نابليون يفكر بصفة جدية فى اجراء صلح مشرف مع الانجليز والأتراك ٠ ولكنه عجل بالرحيل وجعل قائد الجيش التركى الأسير فى معركة أبى قير (مصطفى باشا) وسيطا لاجراء الصلح وأوفده لهذا الغرض الى تركيا قبل رحيله ٠

تولى كليبر القيادة

وقبل أن يغادر نابليون مصر ترك (٣١) رسالة على شكل تقرير مفصل وصف فيه أحوال مصر السياسية وصفا دقيقا وشرح فيه خطة العمل الذى يتعين على كليبر أن يتبعها حيث أن نابليون غادر مصر ولم يقابل كليبر وجها لوجه ٠ واستشاط كليبر غضبا حين علم أن بونابرت عينه لقيادة جيش الشرق ، ففى رأيه أن بونابرت هرب من المسئولية تاركا اياه ليواجه المشكلات التى خلفها وليدفع كليبر ثمن أخطاء بونابرت ٠ وكان كليبر معدودا من خيرة قوات الجيش الفرنسى ومن أكفاهم وكان محبوبا من رؤسائه ومرؤوسيه وكان يتصف بالصراحة والشجاعة والاقدام كما كان من خاصة أصدقاء نابليون ولكن ساءت العلاقة بينهما أثناء الحملة وبدأت فى التدهور عندما عارض كليبر نابليون فى أسلوب التشدد مع الأهالى المصريين فى جمع الأموال بالاتاوات والغرامات والضرائب الظالمة وعمليات نهب المحاصيل والدواب والمواشى ٠ وكان قمة هذا الخلاف عندما عنفه نابليون فى خطاب أرسله له عندما كان كليبر قائدا لحامية الاسكندرية وصرف مبالغ طائلة مما أرسله له نابليون ليصلح بها سفن الأسطول التالفة - بعد معركة أبى قير ولكن كليبر صرفها كمرتبات متأخرة للجنود لإقتناعه بعدم جدوى الصرف على اصلاح سفن الأسطول التالفة - رغم ذلك أسند اليه نابليون قيادة الجيش الفرنسى بمصر بعد رحيله المفاجىء الى فرنسا لاقتناعه بكفاءة كليبر الحربية والسياسية وأخلاقياته وقدرته على القتال والحكم والادارة ٠

الموقف العام بعد تسليم كليبر القيادة

- بادر كليبر بعد اسناد القيادة له بالاجتماع مع أعضاء الديوان باعتبارهم زعماء البلاد وكبداية طيبة لحسن التفاهم مع الشعب المصرى واتصفت بداية أيام قيادته بالهدوء النسبى للحالة الثورية فى القاهرة

(٣١) عبد الرحمن الرافعى ص ١١٢ ، ص ١١٣ ، ص ١١٤ ٠

وباقى الأقاليم • ونظرا لأن الشعب المصرى كان قد أصيب بخيبة أمل كبيرة بعد أن انهزم الأتراك شر هزيمة فى معركة أبى قير الثانية بعد أن كانوا يعقدون الآمال على العثمانيين ليخلصوهم من الاحتلال الفرنسى •

ـ انتهز كليبر فرصة حالة الهدوء هذه فقضى كل وقته فى اصلاح حـال الجيش الفرنسى وفى تقـوية الحصـون والقـلاع والدفاعات والاستحكامات والمصانع الحربية وازاء ذلك احتاج الى المال فاستعاد نفس أسلوب نابليون فى فرض الاتاوات وجمع المال بكل الوسائل من الأهالى مخالفا مبادئه وبذلك أعاد السخط والتذمر الشعبى •

ـ ثبت لكليبر أن الأهالى فى مصر لم يخمد سـخطهم وتذمرهم من الوجود الفرنسى بل كانت معالم الثورة كامنة فى نفوسهم وانهم يكرهون الدخيل الفرنسى وزاد ذلك التحفز المصرى بعـد أن انقطعت صلة الحملة الفرنسية بالبلد الأم فرنسا وتوقف الامدادات وانتشـار حـالة الضيق الاقتصادى والمالى نتيجة تدمير الأسـطول الفرنسى وأحكام الحصـار البريطانى على مصر وشواطئها علاوة على انتشار الأوبئة والأمراض بالجنود الفرنسيين •

وبعد أن أنهكتهم المقاومة المصرية المستمرة بالوجهين البحرى والقبلى بالاضافة الى حالة الأزمة الاقتصادية المصرية وارتفاع الأسعار مما ساعد على تزايد حالة السخط والتبرم المصرى وكما تسبب انخفاض منسـوب مياه النيل الى سوء الانتاج الزراعى •

ـ كان كليبر (*) نفسه ومعظم قواده على دراية كاملة بأن الشعب المصرى لايحمل لهم أى ذرة من الود بل الكراهية لاختلاف الطبيعة والعقلية والعقيدة الدينية لأن المصريين اعتبروا تصرفات القوات الفرنسـية العنيفة ضد الثوار من حرق القرى واقتحام الأزهر بخيولهم وما صاحب ذلك من أفعال اعتبرها المصريون اعتداءات على مقدساتهم الدينية ناهيك عن أسلوب الضرب والاهانة والتنكيل بزعمـاء الشعب المعممين والذين يبجلهـم ويحترمهم وقد أفصح كليبر « أن الشعب المصرى كان قلبه متجها الى الأمل فى حدوث الانقلاب الذى يتوقعه » •

وجاء فى تقـرير من بوسليج الوزير المرافق للحملة « أن الشعب المصرى يكرهنا وهيهات أن يحبنا مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن أن نعامل به شعب بلاد محتلة • وأن المصريين يمقتون حكم المماليك ويرهبون ظلم الاستانة ولايحبون حكمها ، ولكنهم لايطيقون حكمنا ولايصبرون عليـه الا بأمل التخلص منا » •

(*) من رسالة كليبر الى حكومته فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٩٩ •

ولكل ذلك بادر كليبر بالتمهيد للصلح مع تركيا وعرض التفاوض (٣٢) •

فقد حدث أنه في آخر أكتوبر ١٧٩٩ وصلت الى شاطىء البحر بالقرب من دمياط ٥٣ سفينة حربية تركية تحمل ٧٠٠٠ مقاتل من الانكشارية تصحبهم بارجة انجليزية عليها قائد الأسطول البريطانى (سير سيدنى سميث) وقابلهم الفرنسيون فى أول نوفمبر ١٧٩٩ وهزموهم شر هزيمة بالقرب من عزبة البرج • هذا النصر الكبير شجع كليبر على اعادة الاتصال للتفاوض والصلح وهو فى موقف المنتصر • وقبل الأتراك مبدأ الصلح ـ ولكن الأتراك أثناء هذا الاتصال قاموا باعداد جيشا كبيرا بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا وبدأ يتقدم من غزة قاصدا العريش فوصل الى مشارفها فى ٢٢ ديسمبر ١٧٩٩ وضرب حصارا عليها وطلب من حاميتها الفرنسية القليلة العدد تسليم القلعة ، ومع اشتداد الهجوم العثمانى على القلعة سلمها الفرنسيون واحتل الأتراك قلعة العريش يوم ٣٠ ديسمبر ١٧٩٩ •

معاهدة العريش ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠

عند هذا الحد من الصراع الحربى أعاد لطرفان العثمانى والفرنسى استئناف الموافقة على مبدأ التفاوض وأخيرا اجتمع الوفدان الفرنسى والتركى فى العريش بحضور (سير سيدنى سميث) ووقع الطرفان الفرنسى والتركى على معاهدة الصلح ولكن فى بادىء الأمر رفض الجانب البريطانى (سير سيدنى سميث) التوقيع على المعاهدة تبعا للمكر البريطانى وسوء نيتهم كمبرر وقت اللزوم لعدم الالتزام بأى شىء وحتى يمكنهم نقض هذا الاتفاق وكان التوقيع على المعاهدة يوم ٢٤ يناير ١٨٠٠ عن الجانب التركى الصدر الأعظم ومصطفى أفندى راسخ رئيس الكتاب وعن الجانب الفرنسى الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج وعن الجانب البريطانى سير سيدنى سميث (بعد المراوغة) وعن الجانب الروسى القنصل فرنكين Franchine

وكانت المعاهدة تنص على اتفاق الطرفين على جلاء القوات الفرنسية من مصر بكامل أسلحتهم ومعداتهم الحربية وخلافه بحرا وعلى السفن الفرنسية وعلى السفن التى تعدها الحكومة العثمانية ، ووضع جدولا زمنيا للجلاء على أن تتسلم القوات العثمانية المواقع التى يجلو عنها الفرنسيون أولا بأول حسب الجدول الزمنى المتفق عليه •

---

(٣٢) من رسالة كليبر الى حكومته فى فرنسا فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٩٩ •

وفى أثنـاء التفاوض فى العريش كان كليبر قد انتقـل بقواته الى الصالحية ليكون على مقربة وعلى استعداد لرد هجوم الأتراك اذا لم يتم الصلح واجتمع هناك بقواد جيشه يتداولون فى الخطة التى يجب اتباعها ٠

بعد توقيع معاهدة العريش عاد كليبر الى القاهرة وكان بصحبته مندوب الصدر الأعظم اسمه محمد أغا ليتسلم أعمال الحكومة « وخرج الناس (٣٣) لمشاهدته والفرجة عليه » وانتشرت أنبـاء الاتفاقيـة وقرب جلاء القوات الفرنســية من مصر وعمت الفرحة جميع أنحـاء البلاد ٠ ولكنهـا كانت فرحـة ممزوجة بحب أخذ الثأر لطول معاناة العــامة من صنوف القهر والتنكيل والحرق وسلب المحاصيل ٠

– فى نفس الوقت بادرت القوات التركية وعجلت فى الوصول الى مصر واستلام مواقع الجيش الفرنسى فى أنحاء الدلتـا بصفة عامة وفى القاهرة بصفة خاصة ٠

وتعجل بعض قادة الجيش الفرنسى فى الرحيــل ومنهم الجنرال ديزيه والجنرال دوجـــا والفومسير Miot والوزير بوسليج وآخـرون وأقلعوا من الاسكندرية ولكن الأسـطول البريطـانى اعترضهم فى عرض البحر وتحفظ عليهم ٠

ثانيا : انجلترا تتنكر لمعاهدة العريش (٣٤)
وتركيا تبارك موقف انجلترا

وفى ١٨ مارس أرسل لورد كيث قائد القوات البحرية الانجليزية فى البحر الأبيض خطابا الى كليبر صيغ بلهجة مهينـة وأخطره فيه بأن جلالة ملك بريطانيا لايستطيع الموافقـة على التسليم الا بشروط وبخاصة ضرورة انســحاب الفرنسيين من مصر بعـد تســليم الأسلحة ٠ وكان الصدر الأعظم فى هذا التاريخ قد اقترب بقواته من أبواب القاهرة بجيش قوامه ٤٠٫٠٠٠ مقاتل وكان رد الفعل (٣٥) عند كليبر سريعا للغاية فلم يمض ثمان وأربعون ساعة حتى أعلن الغـاء جميع أوامر الجلاء ٠ وأخطـر الصدر الأعظم بانتهاء الهدنة ٠ فى نفس الوقت تعمد الصدر الأعظم عدم الرد على كليبر وزحفت قواته فى اتجاه العاصمة ٠

وأصدر كليبر لجنوده منشـــورا به النص الكامل لخطـاب القائد

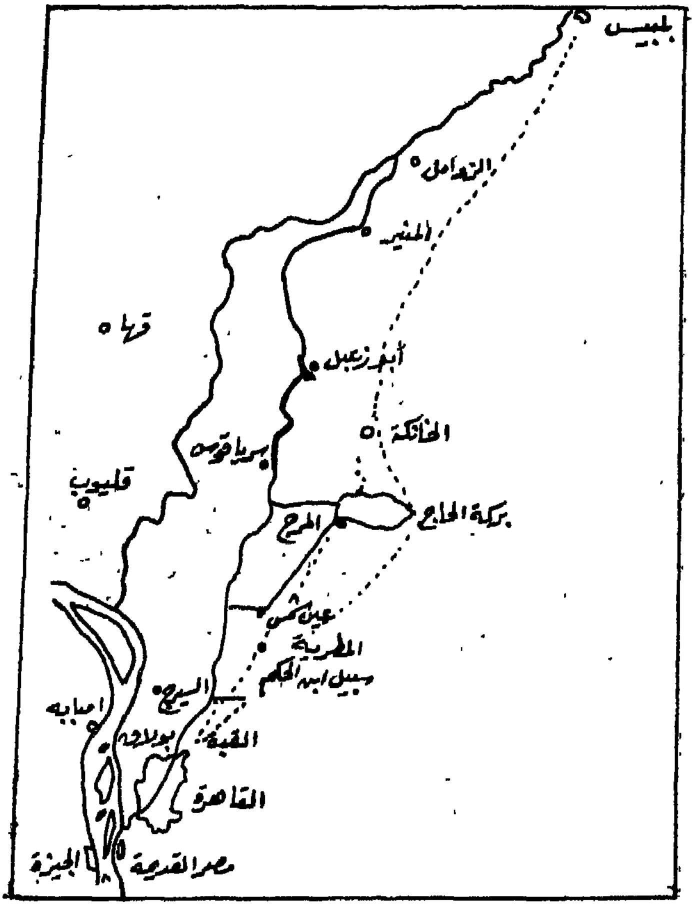
---

(٣٣) الجبرتى جزء ٣ ص ٨٣ ، ص ٨٧ ٠

(٣٤) بونابرت فى مصر تأليف ج ٠ كريستوفر هيرولد ص ٣١٨ ٠

(٣٥) نفس المصدر السابق ص ٣٦٩ ٠

معركة عين شمس
(٢٠ مارس سنة ١٨٠٠)



بين القاهرة وبلبيس (تخطيط سنة ١٨٠٠)
وفيها بيان ميدان معركة عين شمس

البريطانى كيث وأضاف اليها « أيها الجنود لا جواب لدينا على هذه الوقاحة (البريطانية) الا النصر ، فأعدوا أنفسكم للمعركة » .

معركة عين شمس

لم يضيع كليبر الوقت (٣٦) وتحرك بقواته فى ٢٠ مارس ١٨٠٠ . « ركب (٣٧) سارى عسكر كليبر قبل طلوع الفجر بعساكره وصحبتهم المدافع وآلات الحرب » للقاء قوات الصدر الأعظم وقبل مساء يوم ٢٠ مارس كان قد أوقع الهزيمة بجيش الصدر الأعظم الذى يبلغ قواته أربعة أضعاف قوات الفرنسيين وذلك قرب أطلال عين شمس . وأخذ هجومه الأتراك على غرة . على أن انتصار كليبر فى عين شمس كان انتصارا ناقصا رغم سرعته لأنه حدث أنه بينما كان كليبر يطارد قوات الصدر الأعظم بعد المعركة أفلح ناصف باشا (ابنه) مع شطر من القوات التركية من الافلات من الفرنسيين ويمم مسرعا شطر القاهرة وكذلك تمكنت قوة من فرسان الجيش العثمانى ومشاته بقيادة نصوح باشا أن تفلت من المعركة وأرسل كليبر خلفها قوة فرنسية لمطاردتها لتأمين سلامة خطوطه الخلفية ولكن قوات الجيش العثمانى ومشاته بقيادة نصوح باشا تمكنت أيضا أن تفلت من المعركة وأرسل كليبر خلفها قوة فرنسية لمطاردتها لتأمين سلامة خطوطه الخلفية ولكن قوات نصوح باشا تغلبت على القوة الفرنسية الصغيرة وتمكن هو الآخر بقواته من دخول القاهرة .

وفى نفس الوقت وأثناء (٣٨) انشغال كليبر فى معاركه مع قوات الصدر الأعظم فى عين شمس كان معظم البكوات المماليك قد دخلوا القاهرة من جديد مع جانب من القوات التركية المنسحبة من معركة عين شمس الا واحدا اشتهر بالقدرة على المراوغة والانتهازية وهو مراد بك وظل متفرجا ومحايدا بين الأطراف . فلما دعاه زملاؤه البكوات للانضمام اليهم للمقاومة راوغ فى الجواب ونصحهم بعدم مقاومة الفرنسيين .

رابعا : مرحلة العمل الايجابى (من ٢١ مارس ١٨٠٠ الى ٢١ ابريل ١٨٠٠)

الثورة

فى واقع الأمر أنها لم تكن ثورة القاهرة فقط لكنها كانت تعم جميع أنحاء مصر لأنه حسب ما ذكرنا سابقا عن الموقف العام فى أول أيام قيادة

---

(٣٦) الجبرتى الجزء ٣ ص ٩١ .

(٣٧) بونابرت فى مصر تاليف كريستوفر هيرولد ص ٣٦٩ .

(٣٨) بونابرت فى مصر تاليف كريستوفر هيرولد ص ٣٧٠ .

كليبر للقوات الفرنسية بعد رحيل نابليون أن الهدوء وقتها كان قد ساد في القاهرة ولكنه كان هدوءا ظاهريا لأن النفوس كانت مشحونة ومعبأة وجاهزة للانفجار فى أى وقت لأن القاهرة كانت سريعا ما تتجاوب مع آلام الشعب فى أى ناحيـــة من نواحي مصر فى الدلتا أو فى الصعيد ٠

فلم تنقطع الثورات والمقاومات فيها لأنه بينما كان كليبر يستعد لقتال العثمانيين فى عين شمس بعد تنكر الانجليز والعثمانيين لاتفاقيـــة العريش تجددت الثـــورة فى كثير من بلاد الوجه البحرى وبخاصة فى دمياط ومنوف وسمنود وكان يساعد على اشتعالها فلول القوات التركية التى أمكنها الافلات من معركة عين شمس ٠

وأمكن لمعظم هذه القوات بقيـادة نصوح باشـا وناصف باشـــا من دخول القاهرة التى كانت بها حاميـــة فرنسية ضعيفة لا تزيد عن ٢٠٠٠ ألفى مقاتل ــ وأخذ قواد وجنود الأتراك الذين دخلوا القاهرة فى أثناء انشغال كليبر بمعاركه فى عين شمس يحرضـون عامة الشعب فى القاهرة على الثورة حيث كانت نفوسهم مشحونة بالبغض والكراهيـــة للفرنسيين وجاهزين لطلب الثأر من الاعتداءات الوحشية والتنكيل القاسى الذى مارسه الجنود الفرنسيون منذ اخماد ثورة القاهرة الأولى بالاضافة الى ما قاســاه عامة الشعب فى الدلتا وفى الوجه البحرى من قتل وحرق ونهب وسلب ٠

ــ كما كان من أهم الأسباب سوء الحالة الاقتصادية وحالة الغلاء الفاحش ٠

ــ وساعد على سرعة اشتعال الثورة الثانية فى القاهرة أيضا شعور الشعب وشعور قادته الوطنيين بضعف القوات الفرنسية المتبقية بالقاهرة أثناء انشغال كليبر بحربه مع العثمانيين فى عين شمس ووجد قادة الثوار فى القاهرة أن الفرصة ســانحة للانتقـام من الفرنسيين ويجب انتهازها للاستعانة بالقوات العثمانية لامكان التغلب على القوات الفرنسية القليلة العدد بالقاهرة والتخلص منها نهائيا خصوصا وأن الشائعـات كانت قد انتشرت بالمبالغات عن هزيمة الجيش الفرنسى فى عين شمس بدليل امكان وصول قوات نصوح باشا وناصف باشـــا سليمة من أرض المعـركة الى القاهرة ودخولها القاهرة فى شكل مظاهرة عسكرية منتصرة ٠

كما تخلل ثورة القاهرة الثانية التحريض السافر للعامة من القائد التركى وجنوده فقد نادى نصوح (٣٩) باشا العامة على قتل النصـارى كما قامت فى نفس الوقت عناصر أخـرى عثمانيـة ومن المغاربة والأغراب

---

(٣٩) الجبرتى جزء ٣ ص ٩١ ، ص ٩٢ ٠

الغير مصرية في القاهرة بدور تحريض ومهيج للجماهير وبدأ التحريض على الأجانب من الشوام والأروام والفرنسيين دون تمييز • كل ذلك حدث قبل أن تتولى القيادة الوطنية زمام الثورة •

ولذلك حدث في بدء الثورة بعض التصرفات غير السليمة من المندسين بين صفوف الشعب وذلك بالاعتداء على الأقباط المصريين والأروام وبالغ المؤرخون وبخاصة الغربيون في وصف هذه التصرفات حتى نعتوها بانها فتنة طائفية من المسلمين المصريين ضد الأقباط الوطنيين •

ـ قام بعض الأقباط والأروام بالتحصين داخل منازلهم واضطروا للدفاع عن النفس باستخدام الأسلحة وفتح النار على المهاجمين •

القيادة الشعبية المصرية تتولى مسئوليتها

وسرعان ما تدخل والى الشرطة (٤٠) ونادى بين الناس « بوجوب المحافظة على أرواح المسيحين وتوجيه قواتهم (الناس) ضد الفرنسيين وحدهم » كما أن منازل بعض (٤١) المسيحيين كانت تجاور بيوت المسلمين وقام المسلمون باستضافة الأقباط المهددين في منازلهم وحمايتهم ونسائهم وأطفالهم ـ أما أكابر القبط (٤٢) مثل جرجس الجوهري وفلتئوس وملطى فانهم عندما طلبوا الأمان من (القيادة الوطنية) لكونهم انحصروا في دورهم وخافوا على نهب دورهم اذا خرجوا فأعطوهم الأمان وأعانهم المسلمون بالمال واللوازم وتمكن قادة الثورة الوطنية الحقيقيون من تولى زمام الموقف •

وهم السيد عمر مكرم والسيد أحمد المحروقي كبير تجار القاهرة وكثير من أمراء المماليك الثوار (٤٣) وعلى رأسهم حسين بك الجداوى وعثمان بك الأشقر وكان العامة يطلقون على حسن بك الجداوى (ذى السبع أرواح) لبراعته في التخلص من مآزق الموت أثناء القتال عدة مرات وتواجده دائما عندما يطلب للنجدة مهما كان الموقف • وكذلك الحاج مصطفى البشبتيلي (٤٤) كبير أعيان بولاق وحقق هؤلاء القادة الثوار نجاح أعظم ثورة شعبية في العالم ضد الاستعمار في ذلك الوقت رغم وحشية الانتقام الفرنسى وتفوق جيوشه وأسلحته ومعداته •

---

(٤٠) الرافعي جزء ٢ ص ١٥٥ (من مذكرات كليبر) •

(٤١) الجبرتي جزء ٣ ص ٩١ •

(٤٢) الجبرتي جزء ٣ ص ٩٦ •

(٤٣) الجبرتي جزء ٣ ص ٩١ •

(٤٤) وهو من قرية بشتيل من قرى مركز امبابة وقد اختار بولاق كساحة للمقاومة لان الامدادات بالرجال والسلاح والمؤونة كانت تصله عبر النيل من وراق الحضر التي كانت شبه قاعدة •

وللرد على التشويه الذى أرادوا أن يصفوا به ثورة القاهرة الثانية فان قادة الثورة الوطنيين عندما تولوا بسرعة زمام الموقف من رعاع الأتراك والمماليك ومن العناصر المهيجة الغريبة والمشبوهة كانت الثورة تنتقم من الخونة سواء كانوا من المسلمين أو الأقباط على حد سواء ودون تفرقة • فعندما وصلت لقيادة الثورة أنباء أن المحافظ المسلم مصطفى أغا (٤٥) مستحفظان يتعاون مع الفرنساوية ويأويهم فى داره وتحققوا من ذلك بعد مهاجمة منزله فقد تم القبض عليه وحكم عليه بالاعدام ونفذ فيه الحكم •

وبنفس القدر من التصرف الثورى الطبيعى ودون تمييز بين مسيحى ومسلم فأباح قادة الثورة دم المعلم يعقوب حنا الخائن الذى باع نفسه للفرنسيين • وكان يعقوب حنا الخائن يقوم بالبحث عن مخبآت المصريين الثوار والتبليغ (٤٦) عنهم • وكان يعقوب حنا قد « كرنك (حصن نفسه) فى داره بالدرب الواسع جهه الرويعى واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعساكر المحاربين وتحصن بقلعته التى كان قد شيدها لحماية نفسه من انتقام الثوار » •

وبلغ الاخاء القبطى الاسلامى ذروته فى الوحدة الوطنية أثناء ثورة القاهرة الثانية بأن قام أغنياء الطرفين بمد الثوار بالأموال والمؤن (٤٧) والمعونات •

ولكن كتاب الغرب يصفون أعمال يعقوب حنا فى مقاومة الثوار أنها أعمال كلها (٤٨) بسالة رغم أنها كانت أعمال استفزازية للشعور الوطنى• لأنه كان يساعد المحتل الفرنسى ضد مواطنيه الثوار من أهل البلاد وكان يؤجر (٤٩) على هذه الأفعال الدنيئة •

---

(٤٥) الجبرتى الجزء ٣ ص ٩٦ •
(٤٦) الجبرتى جزء ٣ ص ٩٦ •
(٤٧) نفس المصدر السابق ص ٩٧ •
(٤٨) بونابرت فى مصر كريستوفر هيرولد ص ٣٧١ •
(٤٩) ترجع الى ص من الكتاب •

ثورة القاهرة الثانية

بداية الثــورة

بعــد أن تمكن قادة الثــورة الوطنيــة من التعاون مع والى الشرطة فى القضاء على بوادر الفتنة (٥٠) الطائفية فى مهدها ثاب العامة الى رشدهم وتوقف العثمانيون عن التمادى فى التعرض للأقباط وقام جنود الأتراك باحضار ثلاثة مدافع من التى كانت مدفونة بجهة المطرية وأصلحوها وقام ناصف باشا القائد التركى بنفسه مع بعض (٥١) أمراء المماليك الثوار وشمروا عن ملابسهم وشدوا المدافع وضربوا بها بيت الألفى بالأزبكية وكان مقر قيادة الجيش الفرنسى ورد عليهم الفرنسيون بالمدافع والبنادق واستمر الاشتباك بين الفريقين ولم يكد (*) يســمع ســكان العاصمة قصف المدافع حتى تأكدوا أن الثورة قد بدأت فاشتعلت الثورة فى الحال فى حى بولاق بزعامة الحاج مصطفى البشتيلى وأمثاله من دعاة الثورة • وذهب ثوار بولاق الى معسكر الفرنسيين بســاحل النيل وقتلوا كل من وجدوه من الحراس الفرنسيين واستولوا على ما به من خيام ومتاع ورجعوا الى البلد واقتحموا مخازن الغلال وودائع الفرنسيين واستولوا على ما بها ثم أقاموا الحصون والمتاريس حول البلد وحملوا ما وصلت اليه أيديهم من السيوف والبنادق والعصى واتجهوا جنوب قلعة « كائو » ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها لقوة دفاعاتها واستشهد من الثوار هناك ثلاثمائة •

---

(٥٠) الجبرتى الجزء ٣ ص ٩٢ •

(٥١) الرافعى جزء ٢ ص ١٥٠ •

الثورة الشاملة

بعد ذلك عمت الثورة أنحاء القاهرة وأعاد الثوار الهجوم على معسكر الأزبكية ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليه وأخذت أعداد الثوار فى الزيادة ووزع قادة الثوار أنفسهم بين مختلف الأحياء يحثون الناس على القتال وامتلأت بالثوار الشوارع والميادين والأسطح وبلغ عددهم خمسين ألفا حاملين جميع أنواع الأسلحة من بنادق وعصى وخلافه واندفعت جموعهم يتقدمهم طائفة من جنود الانكشارية وانضم اليهم النساء والأطفال واعتبر الجميع أن هذا واجب الجهاد ، فكان للجميع نداءات وصيحات تصم الآذان •

ثم أعاد الثوار الهجوم على معسكر الأزبكية مرة أخرى • فكانت ذخيرة المدافع قد نفذت من الثوار استعاضوا عنها بكرات الموازين الحديد واستمر القتال الى اليوم التالى وأحدثت مدافع الفرنسيين فى الثوار كثيرا من الخسائر ، فى نفس الوقت أخذت جميع القلاع الفرنسية المنتشرة حول القاهرة والموجودة بالأحياء فى ضرب المدينة بالمدافع وبخاصة على الأحياء الثائرة ، فوقع الرعب (٥٢) فى الناس • وقام قادة الثورة بدور فعال فى تقوية الروح المعنوية فى نفوس العامة بالدعوة للثبات واتسع نطاق الثورة يوم ٢١ مارس ١٨٠٠ فأخرج الثوار كثيرا من المدافع التى كانت مدفونة فى بيوت الأمراء المماليك وجمعوا من الأهالى والتجار كل ما يصلح للمدافع حتى الحجارة وصاروا يضربون بها الأهداف الفرنسية • وجاء مدد من كليبر من عين شمس فاقتحم صفوف الثوار •

لكن بمعاونة جنود العثمانيين المقاتلين وأمراء المماليك أمكن الثوار أن يصمدوا لهذا الاقتحام • وتوقف القتال أثناء الليل •

اتساع الثورة

فى يوم ٢٢ مارس ١٨٠٠ أعاد الفرنسيون اقتحام مواقع الثوار وفشلوا فى ذلك لكثرة ما كان بها من المتاريس القوية والمنازل المحصنة ، واستطاع الأهالى أن يقيموا كثيرا من الدفاعات القوية على جميع أبواب مدينة القاهرة وفى معظم أحيائها فى باب اللوق وناحية المدابغ والمحجر ، والشيخ ريحان والناصرية وقصر العينى وقناطر السباع ، وسوق السلاح وباب النصر وباب الحديد ، وباب القرافة وباب البرقية وتحمس الناس للقتال •

---

(٥٢) الرافعى جزء ٢ ص ١٥٢ ، ص ١٥٣

نواة الصناعة الحربية

ومما أدهش الفرنسيين (بل (٥٣) العالم أجمع) أن الثوار تمكنوا في فترة وجيزة جدا من انشاء مصنع البارود في بيت قائد أغا بالخرنفش وورشة لاصلاح الأسلحة والمدافع ، ومصنعا آخر لصنع القنابل وصب المدافع وأمكنهم جمع الحديد اللازم لهذه الصناعات الحربية من المساجد والحوانيت ، وتطوع الصناع المهرة للعمل في هذه الصناعات وقدم الأهالي طوعا ما لديهم من الحديد والمعادن اللازمة وأخذوا يجمعون القنابل التي كانت تتساقط من المدافع الفرنسية في الشوارع ويعيدون استعمالها كقذائف جديدة للضرب • وصار هذا كله يصنع (٥٤) عند بيت القاضي من جهة المشهد الحسيني واهتم قادة الشعب وأثرياؤه بهذه الصناعة الحربية اللازمة وجمعوا لها الأموال اللازمة • وصارت البندقجية والعربجية والحدادين والسباكين يبذلون الجهد الخارق في صنع المدافع والقنابل والمتفجرات وبذلك أمكن للثوار تغيير وجه مصر بانشاء أول نواة للصناعات الحربية من أسلحة وذخائر بمصر ويمكن اعتبارها بحق أول ثورة صناعية تولدت من كفاح الشعب وبأيدى الثوار وتصميمهم كاملة الهوية المصرية وهذه تكفى المصريين فخرا بثورة قاهرتهم الثانية العظيمة •

— وفي اليوم (٥٥) الرابع من الثورة استكمل التنظيم الثورى وبرز دور المؤسسة الوطنية المصرية الثائرة القائدة للثورة وصار احكام التنظيم الثورى ، وتطوع الأهالي لامداد الثورة بالزاد وتوزيع الأقوات وباشر السيد المحروقى وباقي التجار الكلف والنفقات والمآكل وأعان بعضهم بعضا (٥٦) وفعلوا ما في وسعهم وطاقتهم من المعونة بالاضافة الى تدفق أهل الأرياف القريبة من القاهرة والتى كانت تحضر الاحتياجات من السمن والجبن واللبن والغلة والتبن والغنم • وكانوا يمثلون آكفأ سلاح أو جهاز تموين عسكرى وبذلك استكملت ثورة القاهرة الثانية جميع الحلقات الخاصة بأى ثورة ناجحة •

عودة كليبر الى القاهرة (٢٧ مارس ١٨٠٠)

بعد انتصار كليبر على جيش الصدر الأعظم (٥٧) يوسف باشا ضيا ومطاردته في عين شمس عاد كليبر بسرعة الى القاهرة يوم ٢٧ مارس

(٥٣) تاريخ الحركة القومية جزء ٢ ص ١٥٤ •
من كتاب تاريخ الحملة الفرنسية في مصر للمسيو مارتان أحد مهندسي الحملة •
(٥٤) الجبرتي جزء ٣ ص ٩٣ •
(٥٥) الرافعي جزء ٢ ص ١٥٤ •
(٥٦) الجبرتي جزء ٣ ص ٩٤ •
(٥٧) بونابرت في مصر تأليف كريستوفر هيرولد ص ٣٧ •

سنة ١٨٠٠ وشق طريقه بصعوبة الى مقر قيادته من مدخل حديقة الأزبكية وسط مقاومة الثوار العنيفة • وبينما كان كليبر ينتظر وصول المدفعية اللازمة لقذف الأحياء الثائرة أمر جنوده بتطويق المدينة وعزلها عن موارد الزاد ودعا الأتراك في نفس الوقت للتسليم ورغم أن القواد الأتراك كانوا وقتها راغبين في التسليم الا أن التنظيم الثورى (المؤسسة الوطنية) منعهم من ذلك وأرسل كليبر رسولا للثوار وقيادتهم يعرض عليهم العفو مقابل التوقف عن الأعمال العنيفة وخشى التنظيم الثورى من خداع القيادة الفرنسية كما حدث في خيانة العهد منهم لجنود الاتراك الذين سلموا للفرنسيين في يافا بعد تعهد الفرنسيين بأمنهم ثم تنكر بونابرت لتعهده وقتلهم جميعا وهم نحو ثلاثة آلاف رميا بالرصاص لذلك كان رد الثوار على الرسول الفرنسي أن قتلوه وصمم الشعب على المقاومة •

خطة الفرنسيين للتغلب على الثورة

في الوقت الذى أخذ فيه كليبر يعيد تنظيم قواته (٥٨) وأسلحته وخططه داخل القاهرة لسحق الثورة عسكريا وجد انه لايمكنه تحقيق ذلك الا بعد محاولة عزل الثوار عن الأتراك والمماليك • ورأى كليبر ان استخدام القوة لايؤدى الى اخماد الثورة لان دفاعات الشعب المصرى كانت قوية ومنتشرة في أحياء القاهرة • والثوار مستبسلون في المقاومة بمساعدة العسكريين الأتراك وامراء المماليك الثوار ورأى أن مهاجمتهم فى معاقلهم يفقده كثيرا من جنوده وكان وقتها فى شدة الحاجة اليهم بالاضافة الى أن جزءا كبيرا من قواته كانوا لايزالون في دمياط وفى المنوفية والشرقية وسائر بلاد الدلتا الثائرة وفضل أسلوب بذر الشقاق (فرق تسد) بين صفوف المقاومة •

ففى الفترة بين ٢٧ مارس ١٨٠٠ الى ١٤ ابريل ١٨٠٠ ركز كليبر على التعزيز وتكثيف مدفعيته بالقلاع لتكون قادرة على إحداث أفدح الخسائر في الأنفس والممتلكات ومتاريس الثوار فى الوقت المناسب والذى فيه يكون قد تمكن من التفاهم مع مراد بك والأتراك كل على حده ليكونوا خارج القاهرة كلية • وفيما بين هذين التاريخين صمدت المقاومة فى مواقعها ومتاريسها وكانت في غاية القوة واستمروا فى مقاتلة جنود الفرنسيين وأحدثوا بهم خسائر فادحة •

خيانة مراد بك والأتراك

عاود كليبر الاتصال بمراد بك لاستمالته لجانب الفرنسيين خصوصا أنه قد وجد سابقا سابقة اتصال بين بونابرت ومراد بك منذ وجود بونابرت

(٥٨) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الرافعى جزء ٢ ص ١٥٦ •

وأثناء مقاومه مراد بك مع شعب الصعيد ضد الحملة الفرنسية٠حيث عرض
مقاومة مراد بك مع شعب الصعيد ضد الحملة الفرنسية ٠ حيث عرض بونابرت عليه وقتها حكم جرجا تحت السيطرة الفرنسـية على أن يدفع الخراج للفرنسيين ويجمع لنفسـه ما يراه من أموال ورفض وقتهـا مراد بك (٥٩) ٠ وبنفس الأسلوب فقد أرسل كليبر مندوبه (فورييه) في ١٤ مارس ١٨٠٠ للتفاوض مع نفيسة هانم زوجة مراد بك لضم مراد بك الى الفرنسيين مقابل تقليده حكم الصعيد وبلغت هذا العرض الى زوجها بطريقة خفية ولم يكن مراد بك تواقا للقاء الاتـراك لتحققه من هزيمـة الصدر الأعظم لذلك وافق على العرض الفرنسي وتمكن من التأثير على كثير من أمراء المماليك الذين كانوا متعاونين مع الثوار مثل عثمان بك فانضموا الى مراد بك في هذه الخيانة وفي ٥ ابريل ١٨٠٠ أرسل مراد الى كليبر مندوبه عثمان بك البرديسي ليبرم معه التحالف وليخون المصريين وهكذا اكتملت الحلقات : فقبل عامين هاجم مراد بك الفرنسيين باسم السلطان حليف الفرنسيين أو العكس (فقـد طارد الفرنسـيون مراد بك باسـم حليفهم السلطان) ـ ثم عاد مراد بك وقاوم الفرنسيين باسـم سـيده (نفس السلطان) ثم تمكن مراد بك أن يفلت من مطـاردة الفرنسيين قرابة عام وهو يدوخهم ويراوغهم من القاهرة الى أسوان وبالعكس وهاهو ذا في وقت الشدة للثورة الشعبية ينضم بقواته الى أعدائهم الفرنسيين ٠ وحسب ما سجله المؤرخ المصري الجبرتي « ان ابتداء المهادنة بين كريبر ومراد كانت باتصالات تمت بينهما في شهري سبتمبر واكتوبر ١٧٩٩ فقال الجبرتي « وفي شهر ربيع ثان ١٢١٤ هـ (سبتمبر ١٧٩٩ م) أرسلوا حملة عساكر من الفرنساوية الى مراد بك بناحية الفيوم وعليهم كبير منهم فوقع بينهم وبينه أمور لم أتحقق منها وترددت بينه وبين عسكر كليبر الرسل والمراسلات ووقع بينهم وبينه الهدنة والمهاداة واصطلح معهم على شروط منهـا تقليـده ادارة حـكم الصعيد تحت حكمهم » ويؤكد هذه الاتصالات أيضا كثير من المراجع الفرنسية وهكذا كان أمراء المماليك من مراد بك وأمثاله لا أمان لهـم لأنهم قوم لا انتماء لهم فكانـوا عبيدا في ملابس الأسياد ولا ولاء لأي جهـة الا الى مصالحهم من طلب السـلطة والسلطان حتى ولو كان بتبعيته لأي سلطان (٦٠) من غير ملته ودينـه مادام هذا الفرنسي الأجنبي سيحقق لهم مظاهر الامارة والسلطة ٠ وهكذا ترقب مراد بك المعركة بين الفرنسيين والعثمانيين لينضم بعد حسمها الى الجانب المنتصر دون الحفاظ على أي مبدأ أو عهد ولهذا يقول كليبر في مذكراته « ان مراد بك لم يكد يتحقق من هزيمـة الصدر الأعظم حتى

(٥٩) بونابرت في مصر كريستوفر هيرولد ص ٣٧٠ ٠
(٦٠) تاريخ الحركة القومية جزء ٢ للأستاذ الرافعي ص ١٥٩ و ١٦٠ ٠

أرسل لى يبدى رغبته فى عقد صلح معى » وأرسل مراد بك الى كليبر عن طريق مندوبه حسين كاشف « انه يريد أن يعيش مع الفرنسيين فى سلام على شرط ان يضمنوا له عيشة راضية وانه يستطيع أن يقـــدم خدماته للفرنسيين للمساهمة فى وضـــع حد لمقاومة المصريين » • وتم فى ٥ أبريل سنة ١٨٠٠ التوقيع على شروط الصلح بين مراد بك والفرنسيين وكانت كلها شروطا تؤكد على خيانة وعمالة مراد بك ومن يتبعونه من أمراء المماليك وأخطر الشروط المؤكدة للخيانة السافرة البند الذى يقول (٦١) « اذا حصل هجوم على المنطقة التى يحتلها الجيش الفرنسى فعلى مراد بك أن يرسل اليها قوة من جنوده توازى على الأكثر نصف قواته » (هكذا !!) • علاوة على الشروط التى تحتم على مراد بك حرمان الثوار والأهالى من المؤن والمواد الغذائية المصرية واعطائهـــا حتى على شـــــكل هدايا للجيوش الفرنســـية •

كل هذه الاتصالات المكوكية بين كليبر ومراد بك وبالعكس كانت تجرى والثورة المصرية القاهرية على أشدها وكلما قاربت المفاوضات على النهاية كلما ارتفع القهر والتنكيل والانتقـــام الفرنسى بالشعب المصرى الثائـــر •

أما عن كليبر مع العثمانيين والثوار المصريين

استخدم كليبر فى فتح باب المفاوضــــة مع الأتـــراك مصطفى باشا كوسيط وهو قائد الجيش التركى فى موقعـــة أبى قير البرية وقد كان أسيرا لدى الفرنسيين وكان وقت ثورة القاهرة لم يزل بالأسر ولكنهـــم كانوا يحسنون معاملته • وتدخل مصطفى باشا كوسيط واقنع ناصف باشا القائد التركى بالكف عن القتال • ثم وسط الفرنسيون (٦٢) وفدا من العلماء لمشاورات الصلح بين الفرنسيين وقائد الأتراك على ان يخرج ناصف باشا والجنود العثمانية من القاهرة ويلحقوا باخوانهـــم من فلول جيش الصدر الأعظم يوسف باشا • فلما وصلت هذه المعلومات الجنود الانكشارية والأهالى تصدى الثـــوار ومعهم تهديد الأهـــالى لهذه العناصر التركية ومن على شاكلتهم ممن كانـــوا يتوقون لهذا الصـــلح وهددوهم وأهانوهم وأعادوا الاستقرار والصلابة الى صفوف المقـــاومة التى حاول مخطط كليبر أن يخدعهم حتى اذا هدأت المقاومة أمكنه أن يوجه انتقامه وتنكيله الى الشعب المصرى الثائر ، وللمصريين تجارب مع الفرنسيين فى الغدر الفرنسى • وبذلك وجدت الثـــورة المصرية نفسها بعد تخلى معظم

---

(٦١) نفس المصدر •

(٦٢) الرافعى جزء ٢ ص ١٦٩ •

أمراء المماليك وتعاونهم مع الفرنسيين وعلى رأسهم مراد بك وبعد تخاذل الجيوش العثمانية التى وجهت كل همها فى هذه اللحظة الحرجة للسلب والنهب وجبــاية الأموال عنوة من العــامة بحجـة الصرف على المقاتلين العثمانيين • ووجد الثوار المصريون ومؤسستهم الوطنية أنفسهم فى وضع وحيد يملى عليهم المقاومة لآخــر مدى وعدم التراجع مهما كانت النتائج لأنها الحل الوحيد ولا بديل له وان المقاومة والثبات عليها هى الخطوة المنشــودة نحو التحـرر الكامل مهما كانت العواقب ورفضت المؤسسة الوطنيــة الممثلة للشعب المصرى وأيدها فى ذلك الشعب المصـمم على استمرار المقاومة وعدم التســليم والضغط على العثمانيين حتى مستوى التهديد لمنعهم من التسليم أو الصلح مع الفرنسيين • ونجحت خطة قادة الثورة فان (٦٣) رؤساء العثمانيين ناصف باشــا وعثمان باشا كتخدا الدولة لم يستطيعوا السيطرة على عساكرهم وأرسلوا الى كليبر يقولون « ان العساكر لم يرضوا بالصلح ويقولون لن نرجـع عن حربهم حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا » وبذلك أخفقت المساعى وتجددت المذابح ومارس الفرنسيون أبشع أنواع الانتقام والقتل وسفك الدماء والاحراق وتدمير المنازل والمبانى بدءا من يوم ١٤ ابريل ١٨٠٠ •

الهجوم الكبير

وفى ١٤ أبريل ١٨٠٠ كان كليبر قد نجح فى استقطاب مراد بك وأتباعه من بعض أمراء المماليك وضمن ولاءهم ومساعداتهم العسكرية ضد الثوار كما كان قد أثر بشكل أو بآخر على القدرات القتاليــة للجنود العثمانية بالتفاوض مع قادتهم بالاضافة الى اعادة تنظيم وتقوية وتدعيم استعداداته العسكرية وبخاصة بعد وصــول قواته التى كانت منتشرة ببلاد ونواحى الدلتا وبعد قضائها على الثورات التى تفجرت هناك ، فقد أنذر كليبر العاصمة اذا لم تسلم • ولم يعبأ الثوار بندائه وإنذاره لعدم ثقة الشعب المصرى وقادة ثــورته فى وعود وعهــود الفرنسيين وصمموا على الجهاد الى آخر مدى • واستعمل الفرنسيون (٦٤) نوعا مبتكرا من قاذفات اللهب « فعملو فتائل مغروســة فى الزيت والقطران وكعكات غليظة ملوية على أعناقهم معموله بالنفط والميــاه المصنوعة المقطـرة التى تشتعل ويقوى لهيبها بالماء » ولسوء الحظ للمصريين كانت الأمطار تنهمر وقتها مما ساعد على انتشار الحرائق وفى نفس الوقت ركز الفرنسيون بتوجيه الضرب بمدفعيتهم وتركيزه على الأحياء الثائرة والمتاريس والمبانى دون تمييز لأحداث الدمار الشامل وقام الجنود الفرنسيون باشـــعال

---

(٦٣) الرافعى جزء ٢ ص ١٦٩ و ١٧٠ •

(٦٤) الجبرتى جزء ٣ ص ١٠١ •

النيران في كل ما قابلوه في طريقهم » فكانوا (٦٥) يلهبون السقائفو ضرف (أبواب) الحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة شيئا فشيئا وبذل الثوار والعامة أقصى همتهم في الجهاد وفي هذا الجحيم استمرت المفاوضات مرة أخرى بين ناصف باشا القائد التركي وبين كليبر بتوسيط الخائن مراد بك ، وفي يوم ١٥ ابريل ١٨٠٠ (٦٦) كانت معظم أحياء القاهرة مازالت في أيدى الثوار • وركز كليبر هجومه ضد حي بولاق الذى استبسل في القتال ورفض التسليم وكان أشد الأحياء قتالا ومقاومة بفضل زعيمه البشتيلي • وأخذ الفرنسيون يضربون حي بولاق بالمدفعية بشكل مركز ومستمر وحطمت المدفعية في النهاية المتاريس القائمة على مدخل الحى وأحدثت تغرة كبيرة تدفق منها جنود الفرنسيين ونفذوا الى شوارع بولاق وأحرقوا النار في البيوت فاشتعلت واتسع مداها بفضل قذائف اللهب المبتكرة (٦٧) واحترقت المنازل والمخازن والوكائل ومحلات التجارة واحترقت بولاق ودمر الحى الكبير ومستودعاته التى كانت عامرة بالسلع والأغذية واحترقت الدور بسكانها وأصبح معظم السكان جثثا تحت الأنقاض فكانت مأساة مروعة أما عن النهب والسلب والتعذيب فقد ذكر الجبرتي عن ممارسات الفرنسيين المتوحشة « فمن لم يجدوا عنده سلاحا نهبوا متاعه وعروه من ثيابه •• وأصبح من بقي من ضعفاء أهل بولاق وأهلها وأعيانها •• فقراء لايملكون ما يستر عورتهم » •

استمرار المقاومة

بعد أن خمدت المقاومة في حي بولاق وبعد الدمار والخراب الشامل أمر كليبر بالهجوم العام المركز على جميع مواقع الثوار في باقى أحياء القاهرة وتصاعد هذا الهجوم يوم ١٨ ابريل ١٨٠٠ وتركز من جهة الناصرية وباب بولاق والمدابغ والفجالة وكوم أبي الريش وباب الشعرية واخفق الفرنسيون في احتلالها في بادىء الأمر لشدة المقاومة وأخفق الجنرال دونزلو Donzelo في هجومه على حى المدابغ عندما اعترضه خندق عميق يحيط بالمنازل التي يحتلها الثوار المسلحون فانسحب واشتدت المقاومة في أحياء الأزبكية والفجالة وكوم أبي الريش وباب الشعرية فكان القتال سجالا ولم تتوقف مقاومة الثوار الا بعد نفاذ ذخائرهم وكثرة قتلاهم وتدمير منازلهم وهدم متاريسهم ودفاعاتهم وأصيب الجنرال بليار بجرح بليغ •

---

(٦٥) نفس المصدر السابق •

(٦٦) بونابرت في مصر كريستوفر هارولد ص ٣٧١ •

(٦٧) عبد الرحمن الرافعي جزء ٢ ص ١٧٠ ـ ١٧١ ـ ١٧٢ ـ ١٧٣ •

وحشية الانتقام الفرنسى

وأصبح منظر القاهرة مزعجا يملأ القلوب الانسانية بالحزن والأسى بعدما حل بها من التخريب والاحراق والتدمير وسفك الدماء «فتهدمت(٦٨) جميع ما هناك من الدور والمبانى المطلة على البركة واحترقت جميع البيوت وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة واستولى الفرنسيون على الخانات والوكائل ونهبوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات (الهوانم) والصبيان والبنات وأما بركة الرطلى وما حولها من الدور والمتنزهات والبساتين فانهــا كلها صارت تلالا وخرائب وكيمان أتربة ··· وكانت رائحة العفونة (٦٩) تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم وزاد هذا المنظر فظاعة أن الجنود مدفوعين بفكرة النهب وكانوا ينبشون الجثث من تحت الأنقاض من الخرائب فكلما أظهروا جثة زاد هؤلاء فظاعة سوء المنظر » · ومن أفظع ما ارتكبه (٧٠) الفرنسيون فى قسوة انهم عندما قبضوا على بطل بولاق مصطفى البشتيلى خلعوا عنه الثياب وأرغموا زمره من أعوانه تحت التهديد بالقتل على ضربه بالنبابيت وهو عار حتى الموت وعلى مرأى من أتباعه وأهله ومات البطل مصطفى البشتيلى شهيدا رغم أنف الخونة والأعداء ·

استنزاف مصر

بعد استسلام القاهرة تفاوض المشايخ مع كليبر وكان كليبر مصمما على ان « يعصر مصر كما يعصر الشربتلى الليمونة » (٧١) وذلك حسب تعبيره فاعتزم البقاء فى الديار المصرية وادارة شئونها الى ما شاء الله كمستعمرة فرنسية بعد أن كان يتعجل التفاوض على الرحيل بشرف وذلك قبل ثورة القاهرة الثانية وبعد تصوره أنه أخمد الثورة ولذلك صمم على أن يبعث الرهبة فى نفوس الشعب المصرى فتعمد اقامة عرض عسكرى بالغ فيه فى تعمد اذلال المصريين وابراز سيادة وعلو مكانة الفرنسيين فأقام احتفالا عرض فيه قواته عرض الظافرين مبالغ فى الزينة واتخذ من أمراء المماليك الخونة شبه حراس له أثناء الحفل للتدليل للشعب المصرى على مدى ارتباط أمراء المماليك وهم أسياد البلاد بالمحتل الفرنسى والولاء له · وبعد ذلك أمعن فى امتصاص ثروات مصر والمصريين وكأنه يعصر الليمونة تماما على حد تعبير كليبر وحتى يتمكن بهذه الأموال من

---

(٦٨) الجبرتى جزء ٣ ص ١٠٢ و ١٠٣ ·

(٦٩) نفس المصدر ·

(٧٠) من كتاب صورة مصر أثناء اقامة الجيش الفرنسى للمسيو جالان ·

(٧١) بونابرت فى مصر ـ كريستوفر هيرولد ص ٣٧٢ ·

الصرف على جيشه بالكامل وقام باعتصـــار دماء المصريين واموالهم التى منحها اياه حليفه مراد بك وفى الوليمة التىأقامها راد لهم(٧٢)بقصره وكانت عبارة عن أربعة آلاف رأس غنم كان مراد بك قد نهبها من الشعب بعدما صادرها وهى مرسلة للشعب أثناء ثورته من درويش باشا وذلك أثناء حصار القاهرة وكان كل من الهادى والمهدى اليـــه يمعنون فى تجويع الشعب ٠ ثم بدأ كليبر يجمع أعضـاء الديوان وافتتح الاجتماع بتوبيخهم على موقفهم السلبى والعدائى أثناء الثورة واتهم بعضهم بزعامته للثوار وتعرض تلميحا لموقف الشيخ السادات وكاد يتهم الشيخ السادات صراحة ثم أفادهم بانه فضل ان يستولى على ثرواتهم بدلا من الحـكم باعدامهـم فقال حسب تسجيل الجبرتى « فكان جزاؤكم ان نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق (٧٣) من قتلكم عن آخركم وحرق بلدكم وسبى حريمكم وأولادكم « وحيث اننا أعطيناكم الأمان فلا نقتلكم بل نأخذ منكم الأموال »٠ ودخل مباشرة فى الموضـــــوع « فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف فرنك (أى عشرة ملايين) فرنك عن كل فرنك ثمانيـة وعشرون فضة ٠٠ الخ » (ولكن المراجع الفرنسية ومنها مذكرات نابليون أجمعت على أن الغرامة كما طلبها كليبر كانت تعادل ١٢ مليون فرنك) وهكذا يكون قد فرض على المصريين غرامة قدرها اثنى عشر مليون فرنك (٧٤) بينما كل ميزانية الحملة الفرنسية التى اعتمدتها الحكومة الفرنسـية كانت تسعة ملايين فرنك فقط ٠ وفى نفس الاجتماع مع أعضاء الديوان أعلن عن توزيع هذه الغرامة الباهظة باسلوب تعسفى كما يلى (٧٥) تكون منها (الغرامة) ٥٣٥٠٠٠ على الشيخ السادات و ٥٠٠٠٠ على الشيخ محمد ابن الجوهرى وأخيه الشيخ فتوح ٥٠٠٠٠ والشيخ مصطفى الصـاوى ٥٠٠٠٠ (٧٦) والشيخ العنانى ٢٥٠٠٠٠ ألفا » ثم أباح نهب منازل وأموال من هرب من أعضاء الديوان وبخاصة الشيخ المحروقى والسيد عمر مكرم وحسين أغا شنن ثم أباح لأعضاء الديوان جمع باقى الغرامة من الأهالى « وما بقى تدبرون رأيكم فيه وتوزعونه على أهل البلد » ٠ ثم استبقى من المشـايخ أعضاء الديوان خمسة عشر شخصا دون مأكل أوراحه كرهائن وذلك امعانا فى الارهاب والاهانة فأمرهم « وتتركون عندنا منكم خمسـة عشر شخصا رهينة عندنا حتى تغلقوا (تسددوا) ذلك المبلغ » ٠ ووقفت الحراسية (الحراس) على الباب الآخر يمنعون من يخرج من الجالسين »٠

(٧٢) الجبرتى جزء ٣ ص ١٠٦ ٠

(٧٣) الجبرتى الجزء ٣ ص ١٠٧ ٠

(٧٤) ودخلت الخيل الأزهر ــ جلال كشك عن مورهيد ص ٣٤٧ ٠

(٧٥) الجبرتى جزء ٣ ص ١٠٧ ٠

(٧٦) نفس المصدر السابق ص ١٠٧ ٠

أما أعضـاء الديوان الذين خرجـوا ولم يحتجزوا فقد « شرعوا يبيعون ما يملكون لتسديد ما عليهم من الغرامة المفروضة » أما باقى المبالغ المطلوبة فقد « وزعوها على الملتزمين وأصحاب الحرف حتى على الحواه والقردانية والمحبظين (المشخصتية أو البهلونات وما فى حكمهـم) والتجـار وأهل الغورية وخان الخليلى والصاغة (٧٧) والنحاسين والدلالين والقبانيـة وقضاة المحاكم وغيرهم من بياعى التنباك والدخـان والصابون والخردجية والعطارين والشواؤون (الحاتى) والجزارون والمزينون » ... « وعلى ملاك العقارات والدور على ان يدفعوا أجرة سنة كاملة » وأفرج الفرنسيون عن المشايخ الذين يسددون ما فرض عليهم أما الذى لم يسدد ما عليه من غـرامة فكان الفرنسيون « يلزمون به جمـاعة من العسـكر حتى يغلق (يسدد) المطلوب منه » • ومن هرب من المشايخ المفروض عليه الغرامة كالعنانى « فاضافوا غرامته على غرامة الشيخ السادات » (لأن كليبر كان يضطهد الشيخ السادات لأنه اعتبره زعيم الثـورة ولم يتجـرأ على قتله خشية اثارة الرأى العام) • فالغرامة الفادحـة التى فرضـها كليبر على القاهرة « أنهكت المصريين على اختلاف طبقاتهم الأغنياء والفقراء والمعدمين وقد هال سكان القاهرة فداحة تلك الغرامة فزادت مصائبهم وآلامهـم مما حدث لهم من أهوال القتل والنهب والسلب وسفك الدماء والحريق والتدمير والمجاعة فخربت بيوت كانت عامرة وباع كثير متاعهم ومات كثير فى السجن وهاجر البعض فرارا من الظلم والاضطهاد » • ومن أسـوأ ما مارسه الفرنسيون بعد ثورة القاهرة انهم « فتكوا بأهلهـا وغنموا أموالها (٧٨) وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات وصرن مأسورات عندهم فزينوهن بزى نسائهم وأجروهن طريقتهن فى كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء »وهذا جانب « مما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال » • هذا هو الاستنزاف المفروض • أما معظم جنود الحملة الفرنسية فقد قلدوا قائدهم كليبر فى النهب وقاموا هم أيضا سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم (٧٩) بالنهب والسلب لحسابهم الخاص وفرضوا الغرامات •

الانفجار نتيجة الضغط

اعتقد كليبر بعد تصفية ثورة القاهرة الثانيـة بالقسوة والبطش والتمادى فى فرض الغرامات واهانة قادة الشعب وبخاصة المشايخ وعلماء الأزهـر فقد تعمد فى الانتقـام من الشيخ السادات بالذات بأن يغالى فى

---

(٧٧) نفس المصدر ص ١٠٨ •
(٧٨) الجبرتى جزء ٣ ص ١٦٢ •
(٧٩) الجبرتى جزء ٣ ص ١٦٢ و ١٦٣ •

أعمال أجهزة التعسس والتجسس الفرنسية والتى أكدت له أن الشيخ السادات وبعض أعضاء الديوان من المشايخ كانوا يشكلون الجهاز السرى للمؤسسة الوطنية الثورية وخشى كليبر أن ينفذ فيهم وفى الشيخ السادات بالذات حكم الاعدام خوفا من اثارة الشعب مرة أخرى لمكانة الشيخ السادات المبجلة فى نفوس العامة فتعمد ان يحطم السادات ماديا ومعنويا ففرض الغرامة الفادحة التى لايمكن سدادها وكان البديل لذلك هو الاعتقال والسجن المهين والضرب أمام العامة حتى يحقق اهتزاز صورته فى نظر العامة اذا ما أدى كل ذلك الى انهياره وتذلله لهم فتسقط مكانته فى أعين الناس • كل هذه الممارسات فى حالة مصر المحتلة مرحلة جديدة فى مراحل الثورة والانفجار وهذه هى طبيعة المقاومة فى حروب التحرير لأن قسوة الحاكم يقابلها دائما العنف من المحكومين •

ويمكننا ذكر اسلوب كليبر والفرنسيين فى المبالغة فى اضطهاد الشيخ السادات :

فقد خصه الجنرال كليبر بأكبر غرامة (٨٠) والتى من المستحيل تسديدها •

وكانت النتيجة انه تم اعتقاله « فاصعدوه الى القلعة وحبسوه فى حاصل لينام على التراب ويتوسد بحجر ، وضربوه » فاضطر الى بيع متاعه وأيضا لم يمكن تسديد المبلغ « ثم قدموا ما وجدوه من المصاغ والفضيات والفراوى والملابس وغير ذلك بابخس الأثمان » وأيضا لم يوف كل ذلك جزء من الغرامة المفروضة « ثم نقلوه الى بيت قائمقام ماشيا وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا فى الصباح ومثلها فى الليل وطلبوا من زوجته وابنه الحضور وحبسوا زوجته معه فكانوا يضربونه بحضرتها وهى تبكى وتصيح » •

ويقول نابليون فى مذكراته عند الكلام عن اخماد ثورة القاهرة الثانية (٨١) « ان السادات قد خصه كليبر بغرامة فادحة ، وكان معروفا عنه كرهه للفرنسيين على انهم أسرفوا فى اهانته لدرجة انهم نسوا مقامه المستمد من نسبه ومولده ••• فأمر كليبر بضربه بالعصا فى السجن وهكذ ضرب السادات وعم السخط رجال الشرع والعلماء والشعب وكانت معاملة كليبر له على النقيض منمعاملة نابليون للسادات عقب ثورة القاهرة الأولى ١٧٩٨ فقد قابله بونابرت بالعفو والتسامح مع قيام البينات عليه بأنه زعيم الثورة » (٨٢) •

---

(٨٠) الجبرتى جزء ٣ ص ١٠٨ و ١٠٩ و ١١٠ •

(٨١) الرافعى جزء ٢ ص ١٨١ و ١٨٢ •

(٨٢) الرافعى جزء ٢ ص ١٨١ و ١٨٢ •

واستمر الشيخ السادات معتقلا فى القلعة ولم يفرج عنه الا فى ١٩ يونيه ١٨٠٠ بعد مصرع كليبر على يد سليمان الحلبى وتـولى مينو القيـادة ٠

الانتقام القومى

نتيجة القسوة والامعان فى اهانة الشيخ الســـادات كانت هناك عناصر شابه عربية تدبر بمعرفة المؤسسة الوطنيـــة السرية الانتقام من كليبر نفسه فقد جاء فى مذكرات نابليون التى أملاها وهو فى منفاه على الجنرال برتران « ان الشيخ السادات هذا هو الذى أمر الجنرال كليبر بتعذيبه وضربه واهانتـــه وكان هذا من أهم الأســـباب التى أدت الى مقتل كليبر » ٠

وفى هذه المرة قام بالعمل (٨٣) الايجابى (٨٤) شاب طالب علم مسلم من حلب عمره أربع وعشرون سنة اسمه سليمان الحلبى وأبوه تاجر من حلب بالشام غادر بلدته فى ســوريا وحضر الى القاهرة مارا ببيت المقدس والخليل وغزة وهدفه قتل القائد الأجنبي الظالم كليبر الذى ظلم واستبد وحرق وذبح اخـوانه المســلمين بمصر وأمعن فى اهانة الزعيم الروحى للثورة فى مصر الشيخ السادات هذه الثورة التى شـــارك فيها مجاهدون من المغرب العربى فى البحيرة على يد المجاهد العربى مولاى محمد (المهدى) وفى مرحلة طويلة فى المقاومة فى الصعيد شـــارك المجاهدون المكيون فى المقاومة المستمرة وهاهو شاب سورى تلقى العلم ثلاث سنوات فى الأزهر وارتوى من منهله أصول الدين الذى يحض على الجهاد على يد أساتذة أفاضــل بلغ مدى ما ناله أكبرهم علما ومقاما ووطنيـة الشيخ السدات من الظلم والضرب والاهانة فحضر للانتقـام لاخـوانه المصريين ولأساتذته الأزهريين ولا شـك ان حركة سليمان الحلبى ما هى الا ثورة قومية يضيف الى عناصر قوميتها هـذا الحادث الشجاع من هـذا الشاب العربى ٠ ويقول نابليون أيضا فى مذكراته (٨٥) « ان لاضطهاد السادات دخلا فى مقتل كليبر لأنه لا يمكن أن يجهل علماء الأزهر ما كان ينويه سليمان الحلبى من اغتيال كليبر فقد قضى بالأزهر ثلاثين يوما مصمما على القتل ولكنهم تجاهلوا نية القاتل وتجاهلوا كل ما له علاقة به لأنهم كانوا يودون الانتقام من كليبر » ٠

---

(٨٣) نفس المصدر من ص ١٨٥ الى ص ١٩١ ٠

(٨٤) الشرق الأوسط والعرب للأستاذ الغتيت ٠

(٨٥) الرافعى جزء ٢ ص ١٨٢ ٠

مقتل كليبر والمحاكمة

حضر المجاهد سليمان الحلبي وسنه ٢٤ سنة الى القاهرة فى ١٤ مايو ١٨٠٠ ونزل عند وصوله بمنزل مدرسة السابق مصطفى آفندى البورصلى (نسبه الى مدينة بورصة بتركيا) وهو شيخ فى الثمانين من عمره ولم يحدثه سليمان الحلبى عن سبب حضوره وبات عنده ليلة واحدة ثم انتقل للاقامة بالجامع الأزهر ومكث بالأزهر نحو ثلاثين يوما حتى تاريخ اغتياله لكليبر واتصل أثناء اقامته بالأزهر بأربعة من الطلبة العرب وهم محمد الغزى وأحمد الوالى وعبد الله الغزى وعبد القادر الغزى وفى يوم ١٤ يونيو ١٨٠٠ تربص لكليبر ومرافقه المهندس مسيو بروتان Protaian وأثناء سيرهما فى ممر الحديقة بين دار القيادة العامة ومنزل الجنرال ديماس ظهر سليمان الحلبى فجأة من مكمنه ولم يكد يلتفت اليه كليبر حتى عاجله (٨٦) سليمان بطعنة خنجر مميته أصابته فى مقتل وحاول مرافق كليبر بروتان الامساك به فطعنه هو الآخر فسقط على الأرض جريحا ومغشيا عليه وهرب المجاهد سليمان الحلبى وأخيرا أمكن القبض عليه داخل أشجار الحديقة ومعه آلة القتل وهى خنجر ووجدت آثار الدماء على ملابسه وانتشر الخبر بسرعة بالقاهرة وأجرى التحقيق باسرع ما يمكن وكان المحققون يحاولون الصاق تهمة التحريض زورا بمشايخ الأزهر وخاصة بشيخ الأزهر الشيخ الشرقاوى انتقاما من مشايخ الأزهر لشكهم بان المشايخ وعلى رأسهم الشيخ الشرقاوى هم المحرضون على هذا القتل ولكن أثناء التحقيق مع الخمسة الذين اعترف المجاهد سليمان الحلبى بأنه اتصل بهم (فقد تمكن أحدهم وهو عبد القادر الغزى من الهرب) وقبض على الباقين واعترفوا تحت قسوة الضرب والتعذيب بأن سليمان الحلبى أبلغهم بأنه حضر الى مصر ناويا على الجهاد فى سبيل الله بقتل ظالم أمته الجنرال كليبر ولكنهم لم يبلغوا السلطات بذلك ونفوا أى صلة بين القاتل وشيخ الجامع الشيخ عبد الله الشرقاوى أو أى صلة بينهم وبين الشيخ الشرقاوى ذلك تحت الحاح المحقق للايقاع بالشيخ الشرقاوى . أما المدرس مصطفى أفندى البورصلى فقد ثبت من التحقيق ان سليمان الحلبى لم يذكر له أى شيء عن مهمته . وكان الحكم هو احراق يد سليمان الحلبى اليمنى ثم اعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها الطيور الجارحة واعدام الأربعة الشهود (الذى كان أحدهم قد هرب) وذلك بقطع رؤوسهم واحراق جثثهم وبراءة المعلم مصطفى البورصلى . ونفذ فيهم الحكم عقب دفن جثة الجنرال كليبر يوم ١٧ يونيو ١٨٠٠ على تل أبو الريش . ورغم ان المجاهد سليمان الحلبى

(٨٦) مد سليمان يده الى كليبر كأنه يطلب احسانا فقال له كليبر « ماليش » فامسكه سليمان بيده اليسرى ثم طعنه عدة طعنات .

فد ذكر أثناء التحقيق ان الذى حرضه على القتل هو ضابط تركى اسمه أحمد أغا انتقاما لهزيمة الجيش التركى على يد كليبر فى عين شمس وقد صدق المحقق هذا السبب لدرجة اصداره منشــــور بأن المحرض على قتل الجنرال كليبر هم رؤســاء الجيش العثمانى ـ الا أن ملابســات أقوال المجاهد سليمان الحلبى وصلابتــه رغم قسوة الضرب بعدم الاعتراف على أى من شيوخ الأزهــر (أساتذته الســابقين) وكذلك من واقع أقوال الشهود الثلاثة الآخـــرين واصرارهم رغـــم التعذيب على عدم التعرف أو الصاق التهمة الى أى من مشـــايخ الأزهـــر وبالذات الشيخ عبد الله الشرقاوى (كما كان يصبو المحقق) الا أنهم فى شجاعة فائقة أعلنوا انهم يفضلون الموت على أن يلصقوا التهم زورا على الأبرياء ، كل هذا يجعل أى مواطن عربى وهو يتأمل ملابسات هذا الحادث وبعــد اعدام هؤلاء الشهداء محتفظين بسر هذا الدافع والتحريض عليه باعتباره جهادا واجبا للانتقام القومى من الغزاة الظلمة وبخاصة وبعد ان ثبت بالذات لقــادة جيوش الاحتـــلال الفرنسى انه منذ دخول الجيش الفرنسى الى القاهرة واندلاع المقاومة فى جميع أنحاء مصر من الاسكندرية الى أسوان انه كان يدير تنظيم هذه المقاومة تنظيم سرى لمؤسسة وطنية وصلت اتصالاتهــا الى الحجاز والى المغرب والى الشام وانه كان هناك خلية لايستهان بها من عدد من مشايخ الأزهر وهى التى كانت تنظم عملية هذه المقاومة وأعدم الفرنسيون الكثير منهم بعد ثورة القاهرة الأولى وعلى رأسهم رئيس رواق العميان بالأزهــر الشيخ الجوسقى وزملاؤه بأن أطلق عليهم الرصـــاص والقيت جثثهم فى النيل ـ كما تم تعذيب مشايخ الأزهر وعلى رأســهم الشيخ السادات باســلوب يفوق طاقة البشر وكذلك استشهاد سليمان الحلبى سواء بتحريض أو من غير تدبير هو انتقام قومى ثورى من ممثل الظلم فى مصر رأس المحتل الأجنبى ٠

ما بعد كليبر
تولى الجنرال مينو القيادة

عقب مقتــل كليبر كان مينو أقدم ضابط ولكن لم تكن له كفـــاءة عسكرية أو سياسية وكان هو يعلم أن القواد الفرنسيين لايرضون به كقائد ولذلك جاء أمره العسكرى بتنصيب نفسه قائدا عاما مشيرا الى انه بصفة مؤقته وذلك يوم ١٥ أكتوبر ١٨٠٠ ٠

شخصية مينو (٨٧)

كان مينو من عائلة عريقة وانتظم فى سلك الجندية قبل الثورة الفرنسية وعندما اندلعت الثورة أعلن ايمانه بها وانتخب عام ١٧٨٩ عضوا فى الجمعية العمومية وانضم الى نواب الشعب وتنازل على رتبه (بارون) وبعد حل الجمعية العمومية عاد الى الجندية وكلف بقمع الخارجين على الجمعية العمومية وفشل فاستبدلوه بنابليون بونابرت الذى أمكنه بكفاءته وعبقريته من قمع هذه الفتنة ومن يومها التصق مينو بنابليون وتقرب اليه بالنفاق لاعتقاده ان نابليون سيكون الحصان الرابح فى مستقبل فرنسا ٠

جاء مينو مع نابليون ولم يسند اليه نابليون منصبا قتاليا ولكنه عينه حاكما على رشيد وامعانا فى نفاق مينو حتى مع نفسه فقد اعتنق الاسلام ادعاءا ونزوج من سيدة مسلمة (السيدة زبيدة كريمة السيد محمد البواب من أعيان رشيد) وذلك فى ٢ مارس ١٧٩٩ ورزق منها بولد سماه (سليمان مراد جاك مينو) وكان يرمى من وراء هذه التمثيلية التظاهر بالتقرب من المصريين ومما يدل على انها كانت تمثيلية وادعاء أنه بعد ذلك لم يراع أى حقوق للزوجة واساء معاملتها بعد أن رحل من مصر فهجرها تماما وكان مينو من غلاة الاستعماريين الفرنسيين ويؤمن بأن مصر يجب أن تكون مستعمرة فرنسية ، وتصرف طوال أيام عمله بمصر على هذا الأساس وسار على منوال سلفه كليبر فى امتصاص دماء الشعب المصرى بفرض الغرامات والضرائب وجمع الاتاوات واهانة المصريين بل وبأسلوب مبالغ فيه ٠ ومن الغريب ان شخصا بهذه الصفات يعيد تشكيل الديوان بمجرد أن تولى القيادة وباسلوب فيه كثير من الملامح الديمقراطية واحترام سيادة الشعب ٠

اعادة تشكيل الديوان

أعاد مينو تشكيل الديوان (الذى كان فى حكم الملغى) وذلك فى أكتوبر ١٨٠٠ وانتخب الشيخ الشرقاوى رئيسا من التسعة أعضاء وتوسع مينو فى اختصاصات الديوان ٠

١ ـ فجعله بمثابة محكمة استئناف لها حق نقض الأحكام ٠

٢ ـ وجعله مجلسا استشاريا للحكومة للسهر على تحقيق العدالة ٠

٣ ـ النظر بالمواجهة بين الشاكين والمشكو منهم فى شكاوى العامة ٠

---

(٨٧) تاريخ الحركة القومية جزء ٢ ص ١٩٩ لعبد الرحمن الرافعى ثم ص ٢٠٠ و ٢٠١ الى ٢٠٤ ٠

٤ ـ يختص بترشيح وانتخاب القضاة لمناصبهم وطلب عزلهم ٠

وفى عهد مينو كان الديوان الى حد بعيد بمثابة نواة لتنظيم تشريعى يحقق جانبا من التعبير عما يشعر به الشعب ٠

الأحداث السياسية أيام مينو

أعدت تركيا وانجلترا حملة مشتركة لمحاربة فرنسا واجلائها عن مصر وكانت الخطة ٠

(أ) أن يزحف الجيش العثمانى برا عن طريق العريش ٠

(ب) فى نفس الوقت ينزل الجيش الانجليزى التركى فى أبى قير ٠

(ج) ينزل جيش بريطانى بالسويس قادما من الهند محمولا على الاسطول البريطانى وبذلك يتم تطويق الجيش الفرنسى فى مصر ٠

● وصلت الحملة الانجليزية العثمانية الى مصر أولا فى أبى قير بدءا من أول مارس ١٨٠١ وانتصرت القوات العثمانية والبريطانية على القوات الفرنسية لضعف قيادة مينو وعدم أخذه برأى قادته الآخرين واضطر الجيش الفرنسى للتقهقر وتلكأ الجيش الانجليزى فى تقدمه نحو القاهرة وتباطأ لمدة ٤٠ يوما (أربعين يوما) ٠

● ثم انهزم الفرنسيون فى معركة كانوب فى ٢١ مارس ١٨٠١ وهى موقع بين الاسكندرية وأبى قير ٠

● واحتلت القوات التركية الانجليزية رشيد فى ابريل ١٨٠١ ٠

● ثم انهزمت القوات الفرنسية فى الرحمانية فى ٦ مايو ١٨٠١ ٠

● وعلى أثر ذلك تراجعت القوات الفرنسية الى القاهرة وانقطعت المواصلات بين مصر والاسكندرية وساءت حالة جنود الجيش الفرنسى واشتدت المجاعة فى الاسكندرية لانقطاع مواصلاتها بالداخل ٠

● وزادت البلبلة فى وسط العامة بالقاهرة وتمادت السلطات الفرنسية فى القاهرة فى اعتقال قادة الشعب مخافة معاونتهم الغزاة الأتراك والانجليز باثارة القلاقل ٠

● واصل العثمانيون والانجليز تقدمهم على شاطىء النيل قاصدين القاهرة ٠

● وفى نفس الوقت تقدم الجيش التركى القادم برا عن طريق العريش دون مقاومة من القوات الفرنسية ٠

● وتحرج موقف الفرنسيين عامة وبخاصـــة فى القـاهرة التى تجمعت معظم قواتهم فيها وزاد من تحـرج موقفهم موت حليفهم مراد بك فجأة بالطاعون فى ١٨ ابريل ١٨٠١ وكانوا يعتمدون كثيرا على مساعدابه طبقا للتحالف ٠

● وخلف مراد بك الأمير عثمان الطنبورجى الذى قلده الفرنسيون امارة الصعيد ولكنه سرعان ما انقلب عليهم بانباعه الاسلوب المملوكى فى التقلب حسب المنفعة وذلك عندما شعر برجحان كفة العثمانيين والانجليز وأخذ يعيد اتصالاته وولائه الى ابراهيم بك الذى عاد مع جيش الصـــدر الأعظم التركى ٠

فتح باب التفاوض :

● ازاء كل هذه المصاعب للقوات الفرنســـية وشـعورهم بضيق الحلقات حولهم فقد أخذ الجنرال بليار قائد قوات القاهرة المبادرة وقبل استفحال الزحف العثمانى الانجليزى وقيامهما بالهجوم العام على القاهرة فأرسل مندوبه الى المعسكر الانجليزى فى ٢٢ يونيـو ١٨٠١ وطلب وقف القتـال وفتح باب المفاوضـــة للجلاء عن القاهرة ووقعت الاتفاقيـــة فى ٢٧ يونيو ١٨٠١ ٠

● وبموجب هذه الاتفاقية تم جلاء القوات الفرنســية من القاهرة متجهة الى الاسكندرية بكامل أسلحتهم ومعداتهم وأمتعتهم وذخائرهم وكذلك أعضـاء المجمع العلمى وأوراقه وذلك عن طريق فرع رشـــيد وعلى نفقة الأتراك والانجليز ٠

● وسمحت الاتفاقية للمصريين الراغبين فى الرحيل مع الجيش الفرنسى ان يرحلوا معه وبذلك تمكن معظم الخونة المصريين المتعاونين مع القوات الفرنسية من الهروب دون انتقام الشعب المصرى منهم ٠

● وفى يـوم ٣١ أغسطس ١٨٠١ أبرمت اتفاقيـــة الجلاء الكامل ووقعها كل من الجنرال هتشنسون عن الانجليز وحسن باشا القبطان عن العثمانيين والجنرال مينو عن الفرنسيين ٠

● ورحلت القوات الفرنسية على سفن الانجليز والأتراك وكان آخر فوج رحل منهم يوم ١٨ أكتوبر ١٨٠١ ٠

خاتمة الحملة الفرنسية (ومرحلة التغيير فى مصر الثائرة)

وبذلك حققت مصر أهداف ثورتها الوطنية سواء التى حدثت بالقاهرة أو بجميع نواحى مصر من الاسكندرية ودميـاط شـمالا الى أسوان جنوبا بجانب العوامل الخارجية الأخـرى من التدخـــل العثمانى الانجليزى ٠ حققت ثورة مصر أهداف هؤلاء الثوار الشجعان وأهداف المؤسسة الوطنية

المصرية والمؤسسة القومية العربيـــة متمثلة بالمجاهدين المكيين ومجاهدى الصحراء الغربية وفتى حلب (سليمان الحلبي) وزملائه العـرب الثلاثة الشهداء بفضل حكمة وتنظيم الزعماء الروحانيين مشايخ الأزهر والذى نفذ فى كثير منهم حكم الاعدام لكونهم قواد المقاومة برميهم بالرصاص وقذفهم فى النيل أو بضربهم بالنبابيت حتى الموت مثل الشهيد مصطفى البشتيلى ٠

وبرحيل الفرنسيين عن مصر بفضل ثورة شعبها بعثت مصر من جديد وعلى رأس شعبها مؤسسته الوطنية الصلبة فقد صمد الشعب ومؤسسته الوطنية الدينية طول مدة الاحتلال الفرنسي وقاوم بشدة وجوده ولم تغفل عينه ثلاث سنوات وأزيد قليلا ولم تخمد المقاومة والثورة والتى اندلعت ليس فى القاهرة وحدها ولكن فى جميع أنحاء البلاد وحققت هذه الثورة هدفها الأساسى وهو جلاء المحتلين الفرنسيين عن أرض مصر بعد مدة تعتبر بمقاييس الثـورات فى العالم مدة قياســـية ٠ وخـرج الشعب المصرى ومؤسسته الوطنية من هذه الأعمال الثورية أصلب عودا وأكثر خبرة وكان نابليون قائد الجيوش المحتلة حريصـــا على ان يخطب ود هذا الشعب وقادته ـ كمـا اعتاد وتعود الشعب المصرى على مقـاومة الاضطهاد والظلم وسنرى ذلك واضحا فى مقاومته بعد جلاء الفرنسيين فى تعامله مع المماليك بعد عودة سلطانهم ومع الأتراك بعـد عودة ولاتهـم ثم مع الانجليز الذين حاولوا انتهاز الفرصة لاحتـــلال مصر ٠ وكان أيضـا ما اكتسبه الشعب المصرى نتيجة هذه المقاومة الناجحة اقتناعه بأهمية العلم بالنسبة لأى أمه وهو ما لمسـه ووعاه بمخالطة المحتل والتعرف على مدى اهتمامه بالعلوم وبخاصة ما استحضره من علمـاء وأجهزة علميـــة وتكوين المجلس العلمى واعتبر الشعب المصرى ان العلم والمعرفة هى أساس الحياة والحرية فكان حريصا على التزود بهما والمطالبة بهما ـ كما أثبت الشعب من طول المقاومة أنه لايمل الجهـاد ـ كما أظهـرت المحن ان الشعب المصرى لاينخدع أبدا ممن يحاولون خداعه فكان موقفه من المماليك الخونة ومواطنيه الخونة وحتى بعض المستضعفين من قادته فسرعان ما تخلى عنهم بمجرد احساسه ان فى الأمر خيانة فسرعان ما كان ينصرف عنهم وبسرعة مذهلة والأمثلة كثيرة منها مواقف مراد بك عندما أراد الخيـانة وتحالف مع الفرنسيين وكذلك مواقف الشيخ المهدى عندما حاول هو أيضـــا اقناع الثوار بالتسليم فى ثورة القاهرة الثانية ٠

كذلك برزت الشخصية المصرية المتميزة تماما والتى أصبحت تتطلع الى الاستقلال التام بعيدا عن ســيطرة المماليك أو الأتراك أو الانجليز فيما بعد بعد أن ثبت للشعب انهم عديمو النفع للبلاد وللشعب بل بالعكس ثبت أن وجودهم لاينتج عنه ســوى ارهاق الشعب وتخلفـه وافلاســه وافقـاره ٠

مواجهة الشعب المصرى للقوى المستغلة الجديدة

بعد رحيل الفرنسيين ازدادت ثقة الشعب المصرى فى نفسه وفى قادته وخاصة بعد ان عاد رئيس المؤسسة الوطنية المصرية الزعيم البطل النقيب عمر مكرم من هجرته وتدعمت بعودته صلابة مقاومة الشعب المصرى وانتعشت المؤسسة الوطنية المصرية واستعدت للوقوف فى وجه الظالم فى شتى صوره وقد كانت المؤسسة الوطنية ومن خلفها الشعب المجاهد الذى صقلته آلام ثورتى القاهرة الأولى والثانية وثورات الأقاليم كما صقلته ظروف تمرسه على مراجعة السلطات الحاكمة وخاصة فى معاصرة آخر ديوان (أو برلمان) أيام حكم مينو وأصبح للشعب حق الشكوى أمام هيئة الديوان وتولد بذلك حق الرقابة الشعبية على السلطات المختلفة وحق التعبير عن المعاناة الشعبية ، لذلك وقف الشعب المصرى وعلى رأسه مؤسسته الوطنية مراقبين لتصرفات السلطات المتحكمة الجديدة . وهى الانجليز والأتراك وأمراء المماليك والذين عادوا للتحكم بعد جلاء الغزو الفرنسى عن البلاد ـ وثار الشعب فى وجه هذه السلطات أو القوى الجديدة ولم يستكن الشعب لهم وكانت هذه السلطات هى :

(أ) **الانجليز** احتلت القوات الانجليز التى اشتركت فى الغزو مع الجيش العثمانى مواقع مهمة على شواطىء مصر (٨٨) فى البحر الأحمر والبحر الأبيض لتضمن السيادة على البحار وعلى مصر • وكانت قوات انجلترا بقيادة (هتشنسون) ومع ان المعاهدة التى عقدت بين تركيا وبريطانيا كانت تقضى بطرد الفرنسيين فقط من مصر الا أنه كان بها شرط يحقق للانجليز التلاعب وحق استمرار بقاء قواتهم بمصر لأى مدة بمقتضى شرط ملحق بالمعاهدة ينص على أن « الجيش الانجليزى لايجلو عن مصر الا بعد أن يستتب الأمن فى ربوعها » • وبموجب هذا الشرط طال تواجد القوات الانجليزية وبعد ابرام صلح (اميان) Amiens فى ٢٧ مارس ١٨٠٢ بين فرنسا وانجلترا وهولندا وأسبانيا كان من شروطه ضرورة جلاء الانجليز عن مصر • أخذ بونابرت على العمل على اجلائهم وأرسل مندوبه الكولونيل (سباستبانى) ليتعرف على نيات الانجليز وقابله المصريون وقادتهم كمبعوث فرنسى بالاهتمام وفى شبه مظاهرة ودية فيها معنى تأييد الشعب المصرى لفكرة ضرورة انسحاب الانجليز من أرضهم وساعد على ذلك أيضا موقف السلطات التركية فى مصر والتى كانت فى نفس الوقت تبارك التخلص من الانجليز كضيف ثقيل ينافسهم فى سلطانهم •وأخذ الجانب البريطانى يلعب بخبث وذلك بتحريض المماليك بوعدهم بالانفراد بالحكم • ولكن زيارةهذا المبعوث الفرنسى أحدثت رأى عام شعبى مصرى وبعد عودته قدم المبعوث تقريره الى بونابرت وبادر

(٨٨) الرافعى جزء ٢ من تاريخ الحركة القومية ص ٢٥٨ و ٢٥٦ •

بونابرت بمطالبة انجلترا بالجلاء عن مصر مسلما بالرأى العـــام المصرى وبالفعل تم جلاء الانجليز عن مصر فى ديسمبر ١٨٠٢ ٠

(ب) **المماليك** وثورة الشعب (مارس ١٨٠٤) ٠

بعد أن تخلص عثمان البرديسي من زميله الألفى وكلاهما كان من أتباع مراد بك تولى البرديسى امارة البـــلاد وأعاد مســيرة أمراء المماليك ومشايخ البلد فى نهب الشعب بكل السبل وفى الوقت الذى عم القحط بالبلاد نتيجة نقص مياه النيـــل فى أغسطس ١٨٠٣ وندرة المحاصـــيل وارتفاع الأسعار وتفشى الغلاء والفساد الادارى وتحت ضغط مطالبة الجنود الأتراك براوتبهم بتحريض من محمد على لاحراج أمير البلاد عثمان البرديسى ٠

مراحل الثورة ضد المماليك

أولا : مرحلة استغلال الأقلية للأغلبية

ازاء مطالب الجنود الأتراك برواتبها وخلو الخزانة وحالة الكساد فرض عثمان البرديسى ضرائب جديدة فى مارس ١٨٠٤ على جميع الأهالى وفرضها على العقارات والبيوت على شكل أجرة سنة دفعة واحدة على الملاك والمستأجرين وكلف عمال الحكومة تحت حماية جنود المماليك بجمع هذه الأموال بأسلوب استبدادى ظالم ودون رحمة رغم ارتفاع الأسعار ونقص الخبز فى الأسواق وحل الضيق بالفقراء وأواسط الناس مع استمرار النهب والسلب والاعتداء من الجنود الأتراك والمماليك .

ثانيا : مرحلة الوعى الشعبى بالظلم

فبدأ الناس يتذمرون وامتنع كثير من الناس عن دفع المطلوب منهم من ضرائب لعجزهم عن السداد واستنكارا لهذا الظلم والتحكم ، فوقعت الاشتباكات بين عمال الحكومة والأهالى « فاحتشدوا يوم ٢٥ ذى القعدة ١٢١٨ هـ) أواخر مارس ١٨٠٤ واشتد سخطهم وعلا صياحهم وامتنعوا عن دفع الضرائب وخرج الناس من بيوتهم (٨٩) يضجون ويصخبون واحتشدوا فى الشوارع حاملين الرايات والدفوف والطبول وأخذوا يستمطرون اللعنات على الحكام (المماليك) ... فأخذت جموعهم تنادى-

---

(٨٩) الجبرتى جزء ٣ ص ٢٨٣ .

(ايش تاخد يا برديسى من تفليسى) وأغلق التجـــار وكالاتهـــم ودكاكينهم واتجهت جموع المتذمرين الى الأزهر » •

ثالثا : دور المؤسسة الوطنية

وفى الأزهر قابلت جموع الشعب المتذمر المشايخ والزعيم الشعبى السيد عمر مكرم وناشـدوهم المعونة وتمثيلهم لدى الحـاكم للشفاعة فى رفع الظلم بالغاء الضرائب ووقع اعتـداء عساكر المماليك عليهم • وقام المشايخ زعماء الشعب بمواجهة أمراء المماليك وراوغ البرديسى بعد اتخاذ بعض الاجراءات المظهرية لتهدئة نفوس الشعب ثم سرعان ما عاد وتمادى فى أسلوب التعسف فى جمع هذه الضرائب الظالمة •

(رابعا) العمل الايجابى (الثورة)

لم ينطـل خـداع البرديسى على الشعب المتذمر وقادته فقـد (٩٠) « انتشر عمال الحكومة ومعهم طوائف من جنود المماليك فى أحياء القاهرة وشوارعها يطالبون الملاك والتجار بدفع حصصهم فى الضريبة فوريا وبدأت المطالبة هادئة ومع رفض الأهـالى للدفع وامعان الجنـــود فى التحرش فما لبثت أن ارتفعت الاحتجاجات واشتدت المناقشة وعلا الصخب واحتشد الناس ثم لم يلبث الشعب أن تجمع بأعداد غفيرة فى الشوارع واتجهوا الى المساجد » واضطرب عثمان البرديسى وزاد فى اضطرابه وذعره انضـمام الجنود الأرناؤود للثوار بتدبير (*) من محمد على الذى أسرع بدهاء وامتص غضب الأهالى الموزع فى نفس الوقت ضد مساوىء الجنود الأرناؤود ونزل محمد على الى ساحة الثوار وجعل العسكر الارناؤود تنضم للثوار « وصاروا يقولون (٩١) لهم انا معكم سواء وأنتم الرعية ونحن العسكر ولم نرض بهذه الضريبة وروواتبنا على الميرى لا عليكم ـ وأنتم ناس فقـراء » ونادى رجال محمد على بهذا الكلام فى الأسواق ففرح الناس وأيدوا العســـاكر

---

(٩٠) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الرافعى جزء ٢ ص ٣٢٤ عن « كتاب مصر الحديثة » تاليف مسير (بولابل) والذى عاصر تلك الأحداث •

(*) حضر محمد على الى مصر مع قوة جندها حاكم قولة وعلى راسها نجله على آغا يعاونه محمد على وكانوا ضمن قوة تركية حضرت الى ساحل أبو قير على ظهر البواخر التركية بقيادة حسين قبطان باشا لمحاربة الفرنسيين فى مصر بالاشتراك مع جيش بريطانيا وبتحريضها وترقى فى مصر الى رتبة البكباشى ثم اللواء وظهرت مواهبه السياسية وذكاؤه بانحيازه للشعب المصرى وزعمائه باسلوب سياسى جديد على الحكم التركى وحقق بهذا الاسلوب أطماعه بالوصول الى قمة السلطة فى مصر بتأييد وتفويض الشعب المصرى وزعمائه له فى مواجهة القوة المتصارعة على السلطة (تاريخ الحركة القومية جزء ٢ للأستاذ الرافعى ص ٢٨٦ الى ص ٢٩٠) •

(٩١) الجبرتى ص ٢٨٣ جزء ٣ •

وجعلوهم ينضمون اليهم » وكانت هذه الفعلة (٩٢) من جملة الدسائس الشيطانية من محمد علي » وسرعان ما ارتفعت حماسة الجماهير وتركز غضبهم على جباة الضرائب لتشددهم مع الأهالي ـ كان كل هذا التصرف هو رد الفعل الثوري الشعبي الذي اكتسبوه من سابق خبرتهم من ثورتهم على القهر أثناء الحملة الفرنسية وكذلك كان بفضل الدور القيادي الثوري لمشايخهم وقادتهم أعضاء المؤسسة الوطنية وسرعان ما تصرف محمد علي بخبثه وذكائه الفطري فاغتنم الفرصة لخدمة برنامجه واستفاد من هذا الموقف المتأزم بين الشعب والمماليك فانضم الى المشايخ زعماء الشعب واختلط بالعامة ووعد ببذل جهوده للتدخل ولو بالقوة لرفع هذه الضريبة • وفي نفس الوقت بعد أن ظهر للمماليك مدى خطورة قضية العامة وثورتهم فقد لجؤوا هم كذلك الى وساطة المشايخ زعماء الشعب (المؤسسة الوطنية) وهنا كانت اللحظة التي ظهر فيها مدى قوة الشعب متمثلة في زعمائه المشايخ علماء الأزهر وبخاصة عندما كانت الأطراف المعادية للشعب تتودد اليهم عند اللزوم •

(خامسا) تحقيق أهداف الثورة

ونادى المشايخ زعماء الشعب بقرارهم الثوري « بابطال الضريبة ورفعها » أما البرديسي « فقد أظهر الغيظ وخرج من بيته مغضبا الى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر •••• لأنهم لم يمتثلوا لأوامره » ونسى البرديسي والمماليك أن روحا جديدة قد دبت في نفوس الشعب المصري الذي أخذ يتطلع للحرية والكرامة الانسانية واستعد المماليك للانتقام من ثورة الشعب ـ وانتهز محمد علي الفرصة معتمدا على غضبة الشعب وثورته وتأييد المشايخ فجمع جنوده وهاجم المماليك وحاصر منازلهم وأسقط في أيدي المماليك ووجدوا أنفسهم محصورين بين قوتين ثورة الأهالي من جهة وجنود محمد علي من جهة أخرى وفروا من القاهرة بعد أن قتل من المماليك الكثيرين وفر البرديسي وابراهيم بك • ثم فر جنود المماليك المتحصنين في قلعة الجبل بعد أن علموا بفرار أمرائهم (٩٣) وغلب عليهم (المماليك) الخوف والحرص على الحياة والجبن وخابت فيهم الظنون ، وذهبت (٩٤) نفختهم في الفارغ ، وجازاهم الله ببغيهم وظلمهم وغرورهم ، ونزل بهم مانزل ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله ولكنهم خرجوا من القاهرة على أسوأ حال وذهبوا الى (٩٥) الوجه القبلي ينهبون من القرى

---

(٩٢) نفس المصدر السابق •

(٩٣) الجبرتي جزء ٣ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ •

(٩٤) عبد الرحمن الرافعي جزء ٢ ص ٣٢٦

(٩٥) نفس المصدر السابق •

ويفرضون عليها الغرامات والاتاوات ـ وانتفض الشعب في رشيد ودمياط وسائر العواصم على الحكام والمماليك من سناجق وكشافين وأتابك فهربوا هم الآخرين الى الصعيد ، ودالت دولتهم وانقضى حكمهم من البلاد ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة وأبطلت الضريبة • كل ذلك بفضل ثورة الشعب المصرى الذى أخذ يثبت وجوده •

(ج) الأتراك •• وثورة الشعب عليهم (٩ يوليو ١٨٠٤) :

بعد تمام جلاء الفرنسيين عن مصر في ١٨ أكتوبر ١٨٠١ كان الأتراك هم مركز القوة الثالثة المتبقية في مصر بعد الانجليز والمماليك ـ ورحل الانجليز عن مصر في ديسمبر ١٨٠٢ بموجب اتفاقيـة صلح امبـان Amien ٢٧ مارس ١٨٠٢ التي تمسك بونابرت بضرورة تنفيذها وكان للظاهرة الشعبية التي قابل بها الشعب المصرى وقادته مبعوث نابليون المسيو سباستيان وفيها الكثير من معنى السخط على بقاء الانجليز بمصر • كان لكل ذلك الفضـل في رحيل الانجليز ـ ثم تبع ذلك ثـورة الشعب المصرى وعلى رأسه مؤسسته الوطنية (مشايخ الأزهر بقيادة زعيم الثورات المصرية الحديثة دون منازع السيد عمر مكرم) ضـد سلطات المماليك وتسلطهم وعودة رذائلهم وأمكن لثورة الشعب هذه أن تقضى على آخر مظهر من مظاهر حكمهم ممثلا في فرار شيخ البلد (عثمان البرديسى) وترك هذه الوظيفة شاغرة من وقتها (رئيس الوزراء) وكذلك القضاء على سـناجقة وكاشفيه وهم طبقة المحافظين ووكلاء المحافظات • وحققت هذه الثـورة أهدافها بعد التخلص من سيطرة المماليك في مارس ١٨٠٤ وبذلك تبقى مركز القوة الثالث وهم الأتراك ممثلين في مركز الوالى التركى ولأجـل التسلسل لفهم هذه الثورة الشعبية المصرية ضد الحملة الفرنسـية حيث وضعت هذه الثورة أساس حقوق الانسـان المصرى قبـل مدة كبيرة من مناداة العالم رسميا بحقوق الانسـان كما أنها وضعت أول **تشريع مدنى مصرى ديمقراطى** يؤكد على حق الشعب المصرى في مراقبة حكامه كما أكدت على حق ممثلى الشعب فى المشاركة في الحكم لذلك وجدت من الواجب القاء الضـوء على أحـوال مصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى زامنت ما قبل هذه الثورة ووقتها وبعد عودة التواجد العثمانى بمصر فقد كانت **تركيا تطمع في عودة فرض** سـيادتها الكاملة على مصر رغم أن مصر من معايشة هؤلاء الحكام فيما قبل الحملة الفرنسية ولمدة طويلة قد تحملت ظلمهم وفسادهم والتخبط والجهل والتعسف وسوء الادارة • ولكن شعب مصر بعد طول التمرس بثوراته ضد ظلم وتعسف ونهب الفرنسيين ثم فى ثورته ضد وضاعة وجلافة المماليك وتحكمهم كل ذلك جعلهم يواجهـون باصرار وصلابة مساوىء وظلم الأتراك بكفاءة وتنظيم واحكام وأثبتوا أن

الشعب المصرى وقتها ١٨٠٤ ـ ١٨٠٥ لم يعد قادرا على تحمـل مظـالم وسخافة ورذالة أى حاكم ظالم وبخاصة اذا كان دخيلا عليه ٠

وكانت وقتها القوات العثمانية فى مصر عبـارة عن جيشين الأول تعداده ما بين ٢٥ الى ٣٠ الف مقاتل بقيادة الصدر الأعظم ويتألف معظمه من الجنود الانكشارية ويقيم بالقاهرة وببعض بنادر الدلتا والصعيد ٠

أما الجزء الثانى فكان بقيـادة حسين قبطان باشـا قائد الأسـطول العثمانى الذى يرسو فى خليج أبى قير وكان عدده ٦٠٠٠ سـتة آلاف مقاتل معظمهم من الارناؤود وبعض الانكشارية ويحتلون مواقع قريبة من مرسى الأسطول ٠

تعاقب الولاة الأتراك ودور محمد على

كان **خسرو باشا** هو أول والى عثمانى يعين بمصر بعد جلاء الفرنسيين وأخذت سلطاته تتآكل بتأثير مؤمرات محمـد على القائـد الفعلى لقوات الارناؤوود (٤٠٠٠ مقاتل) وانتهت خطط محمد على باعتقال خسرو باشا فى أول مايو ١٨٠٣ وسجنه بالقلعة وكانت لقوات الارناؤود الفضل فى التخلص من خسرو باشا وكان سيء التدبير (٩٦) لايحسن التصرف ويميل الى سفك الدماء ولا يضع أى شيء فى محله » ونادى العلماء **بطاهر باشا** واليا مؤقتا على مصر باختيارهم وذلك فى ٦ مايو ١٨٠٣ لحين أن تحضر اليه الولاية بالفرمان السلطانى وكان طاهر باشا حاكما ظالما فاطلق لجنوده الألبانيين والارناؤود عنان السلب والنهب وفرض الغرامات الفادحة على الأهالى والتجار وتمكن أخيرا محمد على بدسائسه ومكره وبحسن استخدام حالة تذمر جنود الانكشارية لتأخر صرف مرتباتهـم وجعلهم ذلك يفتكون بطاهر باشا بقطع رأسه والقاء جثته من الشباك يوم ٢٦ مايو ١٨٠٣ ٠

وبادر جنود الانكشارية باختيار واحـد من جيشهم هو **احمد باشا** والى المدينة المنورة وكان موجودا وقتها بالقاهرة فعملوا على تعيينه واليا على مصر ـ فى الوقت الذى أصبح فيه محمـد عـلى بعـد مقتل طاهر باشا القـائد الفعلى لجنـود الأرناؤود (حـوالى ٤٠٠٠ مقـاتل) وبواسـطتهم أمكنه طرد أحمـد باشا فكانت مدة ولايته يوما وليـلة فقط وعينت الحكومة العثمانية **على باشا الجزايرلى** واليا على مصر وسافر فى طريقه الى القاهرة حيث وصل الى الاسكندرية فى أول يوليو ١٨٠٣ ولكن محمد على أسرع وتآمر ضده قبل أن يصل الى القلعة (مقر الحكم) فحرض عليه أمراء المماليك الذين ضبطوا مكاتبات تدل على تآمر على باشا الجزائرلى

---

(٩٦) الأستاذ الرافعى جزء ٢ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ثم الى ص ٣١٧ ٠

عليهم فقبضوا عليه وقرروا نفيه خارج مصر وساروا به فى اتجـــاه غزة ولكنهم قتلوه عندما وصل الى شلقان (بالقليوبية) فى يناير ١٨٠٤ وفى سبيل استكمال خطته الذكية بادر محمد على باختيـــار الوالى السابق خسرو باشا (السجين بالقلعة فقد أسرع محمد على بالافراج عن خسرو باشا وجعل المشايخ زعماء الشعب يباركون تنصيب خسرو باشا واليا على مصر فى ينـــاير ١٨٠٤ وأصـــبح بذلك خسروا باشا لعبـــة رمزية يحركه محمد على كيفما يشاء ولمصلحته وبذلك أصبح محمد على هو الحاكم الفعلى والوالى المقتدر بفضل تأييد زعماء الشعب له والذى أخذ يتقرب لهم منذ البداية ويستشيرهم فى كل خطواته السياسية ويستخدم جنوده الأرناؤوط وقت اللزوم لتأييد مطالب زعماء الشعب ، وازداد الشعب المصرى تعلقا بمحمد على لما رأى فيه من التعفف عن تولى السلطة (تظاهرا منه بذلك) وفى نفس الوقت اكتسب محمد على عطف الباب العالى (السلطان) باعادته الوالى الشرعى خسروا باشا الى كرسى الولاية محاولا أن يثبت أنه برىء من الفتنة التى تسببت فى عزل خسروا باشا ومن قبل على باشا الجزائرلى ٠

تعيين خورشيد باشا واليا

بادر أقارب طاهر باشا انتقاما من محمد على وقاموا بعزل خسرو باشا ورحلوه الى الاستانة ولم يعارضهم محمد على واشترط عليهم أن يعين مكانه احد الولاة الأتراك ورشح لزعماء الشعب خورشيد محـــافظ الاسكندرية مترفعا هو نفسه عن طلب هذا المركز فاجتمع الشيوخ وزعماء الجند ونادوا بخورشيد باشا واليا على مصر وبمحمد على قائمقاما (مساعدا) وتولى أمور الولاية فى ٢٠ مايو ١٨٠٤ وكان خورشـــيد باشا على جانب كبير مـن الدهاء ولكن ليس فى مستوى دهاء محمد على وبادر بتنفيذ خطة للتخلص من محمد على فاســتصدر من الاستانة فرمانا بعودة الجنـــود الألبانيين (الارناؤود) وقائدهم محمـــد على الى بلادهم (وكانت هذه هى القوات التركية التى تشكل خطورة على الوالى خورشيد باشا) وفهم محمد على أنه هو المقصود بهذا الابعاد وتظاهر بالاذعان بيد أنه بأسلوب ذكى أو بآخر جعل العلماء يعلمون بأمر هذا الفرمان وطلبوا من محمد على باجماع الشعب البقاء فى مصر لأنهم سـبق وجربوه فى الملمات ولما عهدوه فيه من العدل والاستقامة وتمكن من ردع الجنود الأتراك من الاعتداء على الأهالى وتجاوبت القاهرة مع هذا الطلب بشـــكل تظاهرى عندما أقفلت الدكاكين وثارت النفوس مما جعل محمد على يوافق على طلب العلماء وأعلن عن بقائه نزولا على طلب الرأى العام ــ وأسقط فى يد خورشيد باشا٠وكانت الظروف مهيأة للتخلص مؤقتا من وجوده بالقاهرة ــ لأن المماليك كان قد بدأ يشـــتد

ساعدهم مرة أخرى في فترة ضعف الولاة المغلوبين على أمرهم فعادوا مرة أخرى الى الجيزة بقيـادة عثمان البرديسي وابراهيم بك ـ يريدون اعادة الاستيلاء على السلطة بالقاهرة وتفرقت جماعات منهم في شتى المديريات يعيثون في الأرض فسادا من نهب وسلب وفرض غـرامات واتـاوات ثم رحلوا الى الصعيد بعد أن يئسوا من حصار القاهرة ـ وأصدر خورشيد باشا أمرا الى محمد على وجنوده بالتوجه الى الصعيد لمحاربة المماليك وكان معه حوالى (٣٠٠٠) من جنـود الارناؤود وأراد الوالى ألا تكون قوات محمد على وحدها بالصعيد فأرسل معه قوة بقيادة سلحداره ٤٠٠٠ مقاتل وطاردت هذه القوات المماليك ونجحت بفضل محمـد على بالاستيلاء على المنيا في ١٥ مارس ١٨٠٥ بعد حصار أكثر من شهرين ٠

وتمادى خورشيد باشا في التآمر على محمد على فطلب من السلطان قوات لتدعيم قواته بمصر للقضاء على المماليك وأجابه السلطان وأرسل له وبتوصية منه قوة كبيرة **من الدلاة** (٣٠٠٠ مقاتل) ليمكنه بهم التغلب على محمد على **والدلاه** وهى كلمة تركية معنـاها المجـانين لشهرتهم بالتهور والبسالة في القتال ومعظمهم من الأكراد ـ وبمجرد أن علم محمد على بخبر وصول هذا الجيش من **الدلاه** فهم المقصود منهم بالضبط لتحقيق أهداف غريمه خورشيد باشا فعجل بالعودة هو وزميله **حسن باشا** الى القاهرة ليحبط سياسة خورشيد باشا قبل أن يستقر جيش الدلاه ويحكم سيطرته على البلاد ٠ وبذلك أثبت خورشيد باشا أنه داهيه ولكن ليس في مستوى دهاء محمد على بجانب تمتع محمد على بقدرته على الاستحواذ على ثقة أهل البلاد وزعمائهم المشـايخ وحسن اسـتخدامه لقـدرات هذا الشعب في تحقيق مصالحه سواء باللجوء للمواقف السلبية أو المواقف الايجابية حسب مقتضيات ومختلف المواقف وكانت كل أساليبه الايجابيـة تنحصر في مساعدة ثورات الشعب ومطالبه عسكريا باسـتخدام قواته في تحقيق مطالب الشعب من رفع الظلم والقهر والنهب من تعسف الجنود العثمانية الجائرة وعنجهية أمراء المماليك وتمسكه في كل هذه التصرفات بالتحرك برأى قادة الشعب المصرى ومشايخه أعضاء المؤسسة الوطنية المصرية وعلى الجانب الآخر فان خورشيد باشا الوالى العثمانى من ناحية أسلوب حكمه كان سيء الرأى فاسـد التدبير ميالا الى الظلم غير مكترث باحترام الشعب واحترام ارادته معتمدا على القوة الغشوم ٠

الثورة على الأتراك (٩ يوليو ١٨٠٥)

في هـذه الثـورة الشعبية المصرية على الحـكم التركى الجائر نجد أن ما قسمناه سابقا من مراحل كانت تمر بها ثورات مصر السابقة نجد هذه المراحل في هـذه الثـورة متداخلة في بعضها البعض ويرجع ذلك أن

الشعب المصرى منذ الحملة الفرنسية مرت عليه محن الظلم والاستغلال وتمرس فى اسلوب المقاومة المستمرة والمنظمة بفضل مؤسسته الوطنية وكان لديه الصبر وطول النفس حتى تعاقبت مواقفه المعارضة للظلم والتعسف ولم يفقد حماسه أبدا كما أن منظمته الوطنية كانت منظمه أحسن تنظيم وتتحلى بطاقة كبيرة من الايمان بفضل تعاليم الاسلام التى كانت من مكونات ثقافتهم وشحنتهم بطاقه غير محدودة المدى من رفض الظلم واحترام انسانية الانسان وعدم الخضوع والجنوح للاستعباد وعدم الخوف الا من الخالق ووجوب مقاومة الحاكم وعدم طاعته مادام يعصى الله وكلها مستمدة من دستور المسلمين الشامل والوحيد وهو القرآن الكريم وهذه المؤسسة بأفرادها كانت متواجدة مع الشعب فى كل الأزمات ولم تتقاعس أبدا عن دورها الوطنى أو عن مركزها القيادى وصلابتها وشجاعتها وصراحتها فى مواجهة الظلم والظالمين بجانب أنها حاصرت وعارضت وقاومت سخافات وامتهانات وظلم قوات الاحتلال الفرنسى ثم عاصرت عناصر السلطة الغاشمة بعد جلاء الفرنسيين وهى الانجليز والمماليك والأتراك • فقد تدربت العامة مع رد الفعل السريع بمقاومة الظلم الذى يصدر من أى أقلية متحكمة ولذلك ولتوالى سرعة الأحداث غالبا ما كانت المراحل الثورية تتداخل فى بعضها • فعندما كانت العامة تبحث عن دور المؤسسة الوطنية فسريعا ما كانت تجدها فى الانتظار وعلى أتم الاستعداد لتلبية النداء لتمارس دورها فى الوقت والمكان المطلوبين حتى قبل أن يطلب ذلك منها الثوار وبخاصة مراحل الثورة ضد الأتراك فكانت تتداخل فى بعضها رغم أن كل مرحلة كانت قائمة بذاتها فكان الظلم والوحشية فى المعاملة يتبعه مباشرة احتجاج يعبر عن الشعور بهذا الظلم ويؤدى بنفس السرعة الى تدخل المؤسسة الوطنية لدى الظالم فاذا راوغ الظالم وأمعن فى الظلم كانت القيادة تقوم بسرعة بدورها لتزعم التمرد أو الثورة بتتابع ووضع سريع يكاد يجعل ظاهرة المراحل تبدو كأنها مرحلة واحدة •

(أولا) مرحلة تحكم واستغلال الأقلية للأغلبية

شغل خورشيد باشا منصب الوالى منذ ٢٠ مايو ١٨٠٤ « وفى منتصف مايو فرض أتاوه جديدة على أرباب الحرف » (١) •

(ثانيا) ـ مرحلة شعور الأغلبية بظلم الأقلية

« فضجوا (الشعب) من شدة الضيق وسوء الحال واقفلوا حوانيتهم» وتعددت فى عهد الوالى خورشيد باشا الانتفاضات الشعبية •

(ثالثا) ـ دور المؤسسة الوطنية

« فتدخل العلماء غير مرة لرفعها (المظالم) عن الناس »

---

(١) الأستاذ الرافعى جزء ٢ ص ٣٣٠ •

(وبعد فرضه الضرائب الظالمة استمرت الخواطر فى هياج وخاصة (يوم ٢٩ مايو ١٨٠٤) « واشتد الهياج (١) وأقفلت الدكاكين والأسواق واحتشد جموع الصناع وأرباب الحرف وجماهير الناس بالجامع الأزهر (مقر المؤسسة الوطنية) ومعهم الطبول فوصل دوى ندائهم الى نواح بعيدة فى المدينة وسمعه الوالى وهو بالقلعة ووصل له خبر التجمهر فأرسل الى السيد عمر نقيب الأشراف (قيادة المؤسسة الوطنية) رسولا ينبؤه (يبلغه) بأنه رفع الاتاوة عن الفقراء منهم ويطلب منهم فض الجماهير » وذهب له السيد عمر مكرم وواجهه بقوله (ان هؤلاء الناس وأرباب الحرف والصناع كلهم فقراء وكفاهم ما هم فيه من الكساد وسوء الحال حتى يطلبون منهم مغارم رواتب العسكر ٠

ورفع الوالى خورشيد باشا الاتاوة ولكن لمدة يوم فقط ٠

مرة اخرى (اولا) تحكم الأقلية فى الأغلبية

وعادت جنود الوالى من جيش الدلاه لسيرتهم السيئة مرة ثانية فأخذوا يعيثون فى الأرض فسادا ويرتكبون الجرائم ويعتدون على الأموال والأرزاق والأعراض والأرواح « فدخلوا بيوت الناس وأخرجوا منها أهلها وكانوا اذا سكنوا دارا أخربوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم فاذا صارت خرابا تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك ٠٠٠ حتى عم الخراب سائر النواحى » ٠

« وتمادى قبائح العسكر بما لا تحيط به الأوراق والدخائر بحيث لايخلو يوم من زعجات (٩٧) ورجفات وكرشات فى غالب الجهات اما لأجل امرأة أو أمرد (صبى) أو خطف شىء أو تنازع شر بأدنى سبب مع العامة أو الباعة أو مشاحنة مع السوقه ٠٠٠٠ وتعطل أسباب المعايش وغلو الأسعار فى كل شىء » ٠

ثالثا ـ المؤسسة الوطنية

« فى يوم ٢ مايو ١٨٠٥ اجتمع علماء الأزهر وأضربوا عن القاء الدروس وأقفلت دكاكين المدينة وأسواقها واحتشدت الجماهير فى الشوارع والميادين يصيحون ويصخبون فأرسل الوالى وكيله بصحبة رئيس الانكشاريه

---

(١) الأستاذ الرافعى ص ٣٣٠ ٠

(٩٧) الجبرتى جزء ٣ ص ٢٩٨ ٠

« المحافظ » للتفاهم مع العلماء زعماء الشعب وقابلوه فى منزل الشيخ الشرقاوى وأغلظوا له فى القول ـ وعند خروجه من منزل الشيخ الشرقاوى انهال عليه الأهالى رجما بالحجارة ولم يتدخل العلماء وامتنعوا عن مقابلة الوالى واعتبروه عاصيا واستمر الحال على هذا المنوال لمدة أسبوع وتوقفت (٩٨) الأعمال والتجارة والعلم وأخيرا اتفقت جمعية العلماء (المؤسسة الوطنية) على املاء شروطهم على خورشيد باشا لتهدئة الحالة بوجوب طرد الجنود الدلاه من القاهرة وضواحيها فى مدة ثلاثة أيام وأبلغوا هذه الشروط للوالى خورشيد باشا » وكان العلماء يعلمون مدى صعوبة تنفيذ هذا الشرط لأن الدلاه كانوا يطالبون برواتب ثلاثة أشهر متأخرة وكانت خزانة الوالى خالية » ـ كل ذلك ومحمد على يقف متفرجا سلبيا ولم يتدخل فى الخلاف .

استمر فى التردد على كبار الشيوخ ووعدهم ببذل جهوده ووساطته لتأييدهم ولكنه لم يقم بها مكتفيا بتوثيق صلاته بالمؤسسة الوطنية .

محاولة الوالى التخلص من محمد على

أثناء كل هذه الاضطرابات وصل فرمان الوالى من الاستانة فى مايو ١٨٠٤ بتعيين محمد على واليا لجده وكان ذلك بتدبير خورشيد باشا لابعاد محمد على من مصر وأبلغ محتوى هذا الفرمان لمحمد على يوم ٣ مايو ولكن بأسلوب محمد على فى الدهاء جعل زعماء الشعب والمشايخ يعلمون بمضمون خطط الوالى والفرمان .

(رابعا) ـ العمل الايجابى (الثورة)

انتهت الفترة التى حددها العلماء لجلاء الجنود الدلاه عن المدينة يوم السبت ١١ مايو وأبعد الوالى بعضهم ولكن بقى بالقاهرة ١٥٠٠ منهم وعلم زعماء الشعب أنهم ممتنعون عن الجلاء حتى تدفع رواتبهم وأنه لاسبيل الى دفعها لخلو الخزانة من المال والا بفرض ضريبة جديدة ـ وبشكل أو بآخر أحيط الشعب الهائج علما بذلك فأحدثت هذه الأنباء هياجا (٩٩) عظيما فى الخواطر ووعد الزعماء الشعب بأنهم سوف يتشاورون فيما يجب اتخاذه من قرارات فى صالح الشعب وفى صباح يوم ١٢ مايو ١٨٠٥ بلغ الزعماء الشعب بانهم سيجتمعون فى دار المحكمة الكبرى (بيت القاضى) لاختصام الوالى واصدار قراراتهم فى مجلس الشرع ـ

---

(٩٨) الأستاذ الرافعى جزء ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .
(٩٩) الرافعى جزء ٢ ص ٣٣٢ .
(١٠٠) نفس المصدر السابق ص ٣٣٥ .

وفي سرعة فائقة احتشدت الجماهير الصاخبة والتي أقبلت من كل صوب في فناء بيت القاضي ومجلس الشرع (١٠٠) وحول الفنـــاء بلغ عددها أربعين ألفا وكان اجتماعهم واجتماع القـادة فى مقـر العدل بمقام توثيق شرعى للثورة الحقيقية وكان الشعب ينادى ويصـــيح « يارب يامتجلى اهلك (١٠١) العثملى » دليل على السخط الثورى على الحـكم التركى والاصرار على التخلص منه ٠

أما الزعماء فقد اسـتدعوا بمعرفة القاضى وكلاء الوالى للمثول أمام مجلس الشرع فى هيئة محكمة وحضر الوكلاء وعرض الزعماء عليهم (١٠٢) ظلامة الشعب وحرروا مطالبهم وهى :

١ ــ ألا تفرض بعد اليــوم أى ضريبــة على المدينـــة وعلى الأهالى الا اذ أقرها العلماء وكبار الأعيان ٠

٢ ــ أن تجلو الجنود التركية من القاهرة وتنتقل حامية المدينــة الى الجيزة ٠

٣ ــ ألا يسمح بدخول أى جندى الى المدينة حاملا سلاحه ٠

٤ ــ أن تعاد المواصلات فورا بين القاهرة والوجه القبلى وسلموا صـــورة المطالب الى القاضى وانصرف وكلاء الوالى وبلغوها بدورهم الى خورشيد باشا بالقلعة ٠

« وكان السيد عمر مكرم فى مقدمة صفوف المجاهدين الذين رآهم الشعب المصرى لأول مرة يدافعون عن مصلحته ، فأراد الوالى أن يلقى القبض عليه ويعتقله بالقلعة ليشل الحركة القائمة فى المدينة فأرسل يستدعى القاضى ومعه السيد عمر مكرم والعلماء الى القلعة للتشاور لكن السيد عمر مكرم فطن الى مقاصد الوالى ورفض الذهاب الى القلعة » (*) ٠

(خامسا) نجاح الثورة (العمل الايجابى)

رفض الوالى خورشيد باشا اجابة مطالب مجلس الشرع (المؤسسة الوطنية الثورية) فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء ونقباء الصناع يوم ١٣ مايو ١٨٠٥ بدار المحكمة (مجلس الشرع) أيضا للتداول فى شأن رفض الوالى لطلبـات الشعب واحتشـــدت الجماهير حول دار المحكمة واتفقت كلمة نواب الشعب وأجمعوا رأيهم على عزل خورشيد باشا وتعيين

---

(١٠١) الجبرتى جزء ٣ ص ٢٩٩ ٠

(١٠٢) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الرافعى ص ٢٣٧ ٠

(*) الرافعى جزء ٢ ص ٣٣٦ عن كتاب مسيو فولايل ــ (مصر الحديثة) ٠

محمد على واليا بدله ونادى السيد عمر مكرم بالنيابة عن المجلس وعن الشعب فى حضور محمد على اننا خلعناه من (١٠٣) الولاية » ولما سأله محمد على « ومن تريدون واليا » ردد الجميع فى صوت واحد « لا نرضى الا بك وتكون واليا (١٠٤) بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » وأخذوا عليه العهود والمواثيق أن يسير بالعدل وألا يبرم أمرا الا بمشورتهم وقبل محمد على الولاية بارادة الشعب •

ورفض خورشيد باشا قرارات مجلس الشرع (المؤسسة الوطنية) قائلا فى تعال وغطرسة « انى مولى(١٠٥) من طرف السلطان » فلا أعزل بأمر من الفلاحين ولا أنزل من القلعة الا بأمر السلطان » ويوم عزل خورشيد باشا أصدر المجلس وثيقة شرعية « ان للشعوب طبقا لما جرى به العرف قديما ولما تقضى به أحكام الشريعة الاسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم اذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة » •

وصمم خورشيد باشا على تحدى الثورة وأصدر أمره بالمقاومة بعد أن تحصن بالقلعة ــ وفى مواجهته اعتمد الشعب على نفسه وأخرج السلاح وباع الناس أمتعتهم للحصول على الأسلحة وقام لا يقل عن ٤٠ر٠٠٠ أربعين ألف نسمة من الشعب حاملى السلاح بتناوب الحصار حول القلعة فكانت الثورة من أولها حتى نهايتها ثورة مصرية شعبية صرفه حققت كل أهدافها وأكثر دون الاستعانة بأى قوة خارجية (١٠٦) لأنه حتى محمد على الذى نادى الشعب الثائر به واليا على مصر وكان فى يده قوة عسكرية من الارناؤود لايستهان بها لم يتدخل اطلاقا فى هذا الحصار حرصا على علاقته بالسلطان واستمرت الحرب الثورية بين الشعب المصرى والوالى مباشرة الى أن جاء القاهرة من الاستانة يوم ٩ يوليو ١٨٠٥ رسولا يحمل فرمانا يتضمن الخطاب الى محمد على باشا والى جده سابقا بتثبيته واليا على مصر •

---

(١٠٣) الرافعى الجزء ٢ ص ٣٣٧ •

(١٠٤) التاكيد على سلطة السيادة ممثلة فى الشعب ولوابه بشكل جمعية عمومية أو برلمان (سلطة تشريعية) •

(١٠٥) تاكيد آخر (لشروطنا) على قوة الرأى العام وتمسكه بفرض شروطه •

(١٠٦) كان قائد هذا الحصار حول القلعة هو الوطنى الثائر « حجاج الحضرى » وقد كافاه محمد على بعد أن توطد مركزه كوالى على مصر بشنقه •

حول أهداف ومعالم الثورة على الحكم التركي

كانت أهداف العامة منذ شعورهم بظلم وقهر واستبداد الأقلية الحاكمة (الأتراك) تتركز كلها في ايقاف ورفع الضرائب والمغارم والاتاوات التي فرضها الوالي خورشيد باشا بالاضافة الى طلب كف الجنود الأتراك وبخاصة الدلاة عن ممارسة السلب والنهب والضرب والاهانة ثم تدرجت المطالب الى ايقاف اعتداء واحتلال الجنود الأتراك على منازل المصريين وقصورهم وأمتعتهم وحرق أخشاب منازلهم باستهانة تفوق استهانة المحتل الفرنسي السابق ولكن على يد زعماء الشعب وبخاصة زعيمهم جميعا السيد عمر مكرم تحولت هذه الأهداف الى طلب استقلال مصر بالكامل والتخلص من أى مظهر من مظاهر السيادة العثمانية (أى طلب عزل الوالي) وتعيين والي جديد بارادة الأمة ويلتزم بشروط ممثلي الشعب وبذلك تخطت المؤسسة الوطنية الثورية المصرية أهداف الشعب القريبة الى أهدافه البعيدة ·

حقق الشعب الثائر ومؤسسته الوطنية وضع الأسس والضمانات الضرورية لعدم تكرار الحكم الفاسد الذى يؤدى الى الظلم واستغلال الأقلية الحاكمة للأغلبية وذلك بأن أملوا شروطهم على الوالي الجديد محمد على الذى نصبوه بارادة الثوار · وبذلك سلمت المؤسسة الوطنية المصرية السيادة الى الشعب المصري بعد أن أدت دورها الثوري وكانت الشروط كالآتي :

١ ـ عدم فرض أى ضرائب الا بعد عرضها على ممثلي الشعب واقرارها بمعرفتهم ·

٢ ـ التزام الوالي الجديد أو أي والي آخر بشروط الشعب الثائر وممثليه وهى الالتزام بالعدل وعدم استخدام القهر والجنود في

جمع الضرائب بل وسـحب كل مظاهر التحكم العسـكرى من القاهرة كلهـا .

٣ ـ اعتراف الحاكم أيا كان(١) بالعدالة كقيمة (سيادية) .

٤ ـ تقنين وتشريع فكرة وسـلطة ممثلى الشعب واعتـراف الحاكم بها .

٥ ـ احترام الحاكم لحكم القضاء وذلك باصرار المؤسسة الوطنية على مناقشـة ودراسـة مطالب الشعب الذين يمثلونه فى دار القضـاء (بيت القاضى) واتخاذ القرارات بأسلوب قانونى شرعى مؤيـدا بقانون ودستور المسلمين (القرآن) وأصروا على رفعه للحاكم عن طريق السلطة القضائية .

٦ ـ وضعت المؤسسة الوطنية الثورية أول أسس للحكم النيابى فى مصر وقررت فيه حق الرقابة الشعبية على السلطة التنفيذية واعتبرت دار القضاء (بيت القاضى) هو مجلس الشرع أى مجلس نيابى (السلطة التشريعية) .

٧ ـ قررت الثورة حق الشعب ممثلا فى مجلس الشرع (مجلس النواب) فى عزل وتعيين الولاة واعلان ذلك فى وثيقة شرعية مستندة فى تحريرها الى الشريعة الاسلامية فلأول مرة يقع تغيير سياسى جذرى فى أسلوب تعيين وعزل الولاة فى احدى ولايات السلطنة العثمانية (مصر) بحق ارادة الشعب وباسم الشعب .

٨ ـ تضمنت قرارات مجلس الشرع مبـدأ تشريعيـا دستوريا وهو ارغام الحاكم المعين بارادة الشعب على التعهد علنـا أمام ممثلى الشعب باتباع العدل والاعتراف بحق هذا الشعب فى مراقبة أعمال الحكومة وبذلك حققت الثورة المصرية بهـذه الخطوة مبدأ اعادة تسلم سـلطة السيادة الى الشعب .

كما خلصت مصر نهائيـا من تسلط الحكم العثمانى المستبد فكان خورشيد باشا آخر الولاة العثمانيين الذين حكموا مصر بارادة الفرمانات العثمانية من الاستانة فتحقق بذلك الاستقلال والحرية لشعب مصر .

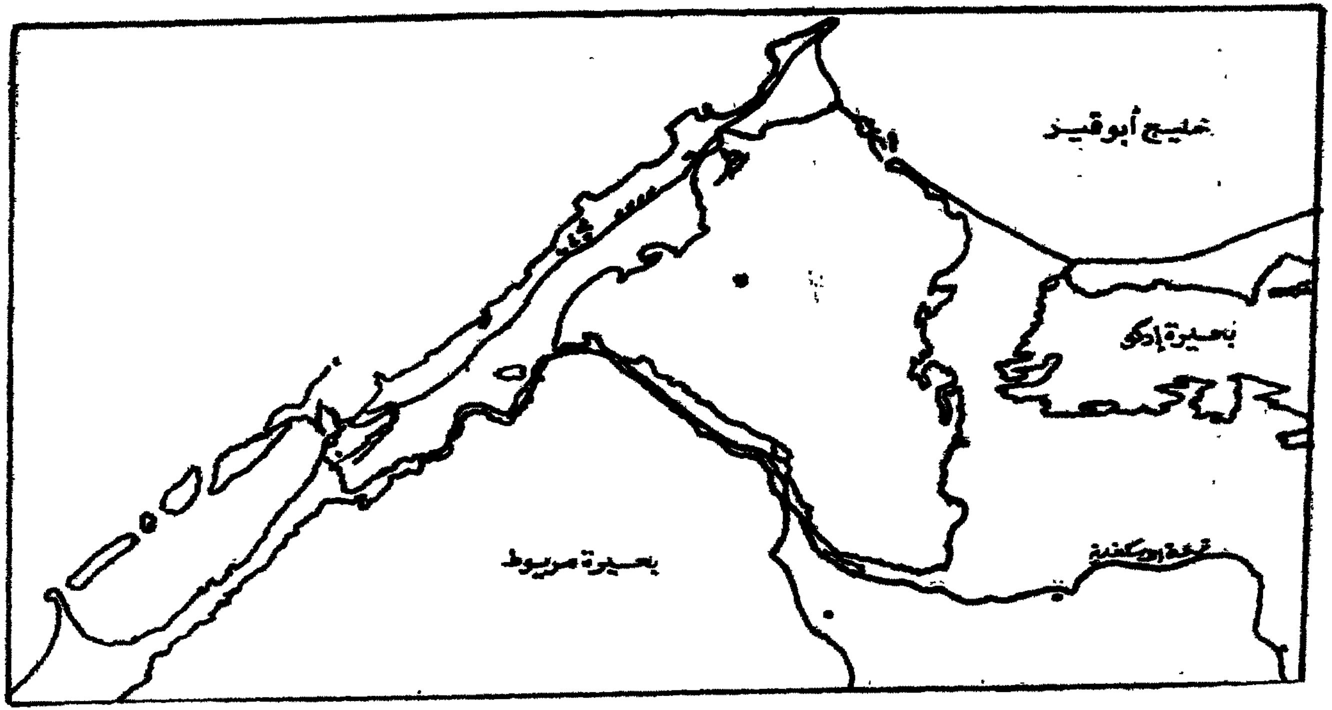
(١) يحق لمصر فعلا اعتبار هذه المبادىء بمثابة أول دستور مصرى شعبى على ان يصير أول وثيقة تاريخية مصرية دستورية فى مبنى البرلمان (مجلس الشعب) أقوى من وثيقة الماجناكارتا البريطانية .

حملة فريزر الانجليزية على مصر
ومقاومة الشعب

توالت انتصارات الثورات الشعبية المصرية بجلاء الفرنسيين فى أكتوبر ١٨٠١ ثم جلاء الانجليز فى ديسمبر ١٨٠٢ بعد محاولة استمرارهم فى مصر بعد الحملة التركية الانجليزية ثم بعد أن ثارت على المماليك وقضت على آخر مظهر من مظاهر دولة المماليك فى مصر فى مارس ١٨٠٤ .

ثم عزل الوالى التركى وتنصيب محمد على واليا على مصر بارادة الشعب وممثلى الشعب فى ٩ يوليو ١٨٠٥ .

وأصبحت مصر مستقلة وعلى رأسها والى تم تعيينه بمعرفة الشعب وتنصيبه اسميا بمباركة فرمان تركى استكمالا للشكل فقط وانتزعت سلطة الولاية التركية على مصر كلية . ولم يمر وقت طويل حتى عادت أطماع الأطراف الثلاثة فى حكم مصر ـ فالمماليك من جانب كدأبهم فى التعاون مع أعداء البلاد عاودوا تآمرهم ونضالهم مع الفرنسيين والانجليز والأتراك بغرض الحصول على التأييد المادى والعسكرى والمعنوى لأجل اعادة سلطاتهم فى مصر ـ والفرنسيون كان تآمرهم بغرض منع الانجليز من احتلال مصر بأى ثمن وذلك انتقاما منهم ـ والأتراك كان غرضهم العودة لحكم مصر وعزل محمد على والانتقام من الشعب المصرى الذى ثار على حكمهم وواليهم خورشيد باشا فأخذ الأتراك يعدون جيشا وأسطولا لغزو مصر عام ١٨٠٦ ووصلت قواتهم على أسطولهم الى مصر فى يوليو ١٨٠٦ وبمجرد وصول الأتراك عاود المماليك الاتصال بهم وغرضهما التخلص من محمد على وتأديب الشعب المصرى الثائر وأرسل محمد على



بين الاسكندرية وأبو قير (تخطيط سنة ١٨٠١)

وترى فى الخريطة بعض المواقع التى مر ذكرها ، كترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) والقطع الذى احدثه الانجليز فى سد أبو قير بين بحيرة أبو قير وبحيرة مريوط (١ ابريل سنة ١٨٠١) وقرى بركة (غطاس) والكريون وكفر سليم ، والبيضاء ، ثم موقع الاسكندرية وسورها والميناء الشرقية والميناء الغربية بحسب تخطيطهما فى ذلك العهد ، ورأس التين وجزيرة العجمى وبرج العجمى ثم باب رشيد ويليه مسجد سيدى جابر ، ويليه قيصر (قصر القياصرة) ، وبحيرة أبو قير وكانوا يسمونها (المعدية) ، وهى الآن أرض جافة زراعية وفتحتها على البحر ، والجسر الذى كان يقيها

قوات لمقابلة القوات التركية والمماوكية فى النجيله بالبحيرة وانهزم الجيش التركى وخرج من الرحمانية واستدار المماليك بقيادة الألفى بك لمحاربة محمد على ودافعت المقاومة الشعبية عن دمنهور وانسحب جيش محمد على من النجيلة فى ١٨٠٦/٨/١٢ وحاصر المماليك مدينة دمنهور لمدة شهرين وقاومهم الشعب بفضل امدادات ومعونات ثوار القاهرة وزعيمهم عمر مكرم وفى النهاية انسحب المماليك كلهم من الميادين وخاصة بعد موت أميرهم عثمان البرديسى فى ١٩ نوفمبر ١٨٠٦ ۰ وفى نفس الوقت بعد انسحاب جيش محمد على من المعركة شبه مهزوم استخدم سلاح الرشوة مع قواد الأتراك واستعاد سلطانه وحكمه وتثبيت ولايته على مصر وبذلك ساد الهدوء مصر نسبيا ولكن محمد على لم يهدأ له بال بل أخذ فى مطاردة المماليك فى معقلهم بالصعيد منذ آخر عام ١٨٠٦ ۰

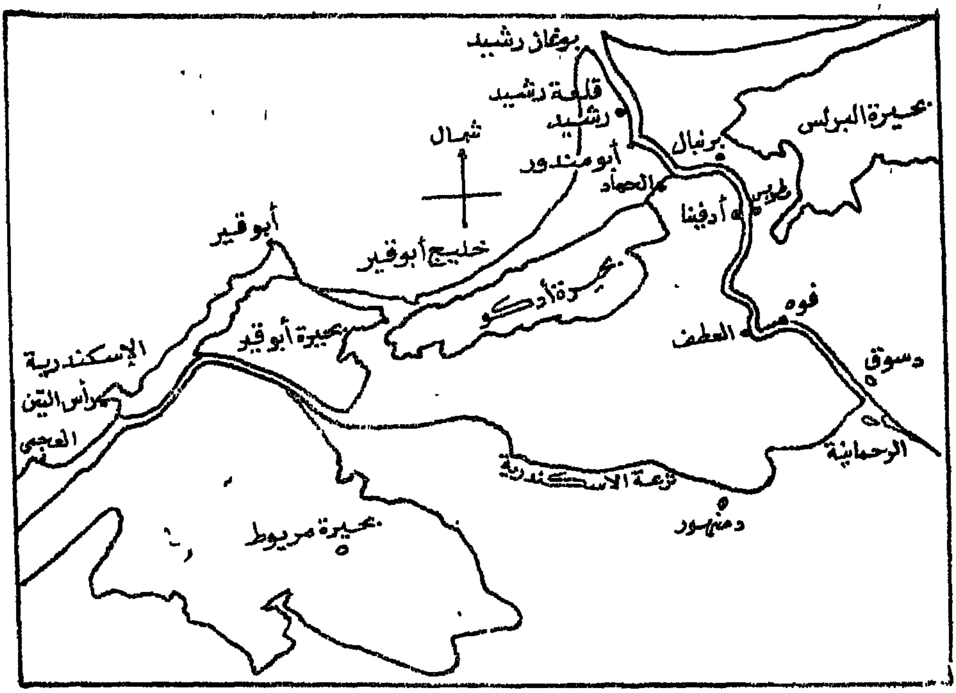
الغزو الانجليزى

دب الخلاف فى آخر عام ١٨٠٦ بين الانجليز والأتراك عندما انحازت تركيا لفرنسا وانتهت العلاقات باعلان انجلترا الحرب على تركيا فعزمت انجلترا أن تضرب تركيا فى مصر وبصفة أساسية انتهزتها فرصة لتحقيق أطماعها التاريخية فى مصر ۰ وقد كانت انجلترا تعتمد اعتمادا كبيرا على تحالفها مع أمير المماليك محمد بك الألفى الذى كان فى كل وقت مستعدا للتحالف مع الشيطان وخيانة بلاده فى سبيل السلطة ولاعادة سيادته وسيادة المماليك على امارة مصر ۰

وتنبه الشعب المصرى الى هذه المؤامرات بفضل الروح الفتية التى دبت فى الكيان الشعبى المصرى من طول التمرس على المقاومة والثورة على الاستعباد والظلم والقهر الداخلى والخارجى ۰ وبمجرد أن وصلت أخبار الحملة الانجليزية من الرسائل الواردة من الاستانة فى شهر فبراير ١٨٠٧ وقبل قدوم هذه الحملة « شرع أهل الاسكندرية فى تحصين قلاعها وأبراجها (١٠٧) وكذلك أبو قير وأرسل كتخدا بك (نائب الوالى محمد على باشا) من يتعين ببناء قلعة البرلس وحصل بمصر قلق ولغط ۰۰۰۰ وعملوا جمعيات (اجتماعات) فى بيت كتخدا بك وبيت السيد عمر مكرم النقيب واتفقوا على ارسال تلك المراسلات الى محمد على بالجهة القبلية (فى الصعيد حيث كان مشغولا بمطاردة المماليك) صحبة ديوان أفندى (سكرتيره) » ۰

وأقبل الأسطول البريطانى الى الاسكندرية فى ١٧ مارس ١٨٠٧ ووصلت الأخبار الى القاهرة فأرسلوا الأخبار الى محمد على فى الصعيد حيث كان يقاتل المماليك ۰ أما الانجليز فكانوا يتوقعون مقاتلة حليفهم المملوك الألفى بك فى الاسكندرية عند وصولهم ليعاونهم بقواته فى الغزو

(١٠٧) الجبرتى جزء ٤ ص ٢٣ ۰



خريطة مواقع الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧

وترى فيها البلاد المواقع التى ورد ذكرها فى الفصل الثانى ، والجهات التى مرت بها الحملة منذ نزول الجنود الانجليزية بشاطىء العجمى (غربى الاسكندرية) الى هزيمتهم فى رشيد والحماد ، والخريطة مرسومة حسب تخطيط سنة ١٨٠٧ ، ونجد بها ترعة الاسكندرية التى كانت موجودة فى ذلك العهد وانشئت مكانها ترعة المحمودية سنة ١٨١٩ وقد اشرنا الى تخطيطها فى الخريطة بخط منقوط .

ولكنه كان قد مات قبل أن يصلوا مياه الاسكندرية ، وقبل أن يستكمل حلقات خياناته .

واستعاض الانجليز بدلا من الألفى بخائن آخر وهو محافظ ثغر (١٠٨) الاسكندرية أمين أغا والذى كان متواطئا مع الانجليز من قبل فسهل للقوات البريطانية عملية النزول وسلم لهم المدينة دون أى مقاومة نظير رشوة من المال وكان الوسيط فى هذه العملية هو قنصل انجلترا فى الثغر ففى مساء يوم ١٧ مارس ١٨٠٧ أخذ جنود الحملة الانجليزية ينزلون الى البر بشاطىء العجمى ثم رجعت باقى القوات الى الاسكندرية

---

(١٠٨) الرافعى (عصر محمد على) ص ٥٧ عن كتاب المسيو مالجان .

وعسكروا فيها وأرسلوا قوة أخـرى لاحتلال قلعة أبى قير وسلم محافظ الاسكندرية التركى نفســـه كاسير حرب ومعه حامية المدينة وعددها ٣٠٠ مقاتل وتم احتلال الانجليز لثغر الاسكندرية ليلة ٢١ مارس ١٨٠٧ وكانت الحملة الانجليزية مؤلفة من ٦٠٠٠ مقاتل (ستة آلاف مقاتل) بقيادة الجنرال فريزر Fraser ومكونة من فرقتين أحداهما بقيادة جنرال ستوارت Stuart والأخرى بقيادة جنرال ويكوب Wacop

ولما بلغت القاهرة هذه الأنباء أحدثت انزعاجا شديدا بين الناس وخاصة لما علموا بخيانة محافظ الاسكندرية أمين اغا وتسليمه المدينـــة دون قتـــال واجتمع زعمـــاء الشعب واتخذوا قرارا شـــعبيا ثـــوريا بدعوة الشعب الى التطوع لمقاومة الغزو البريطـــانى لبلادهم (١٠٩) . ثم اجمع رأيهم على ارسال الخبر بذلك الى محمد على باشا ويطلبونه للحضـــور وهو ومن بصحبته من العساكر (كانوا يحاربون المماليك فى الصعيد) ليستعدوا لما هو أولى وأحق بالاهتمام » .

انتصار المقاومة الشعبية فى معركة رشيد

حيث أن مقاومة الشعب لأى غزو أجنبى تعتبر حرب تحرير وحرب التحرير تمثل بجميع الأبعاد ثورة حقيقية فيمكن تطبيق ذلك على مراحل المقاومة الشعبية فى رشيد .

كما طبقناها فى مقاومة الحملة الفرنسية تماما .

(أولا) مرحلة تحكم وقهر الاقلية للاغلبية

حضرت القوات الانجليزية وهى أقليـــة تعدادها لايزيد عن ٦٠٠٠ ستة آلاف مقاتل لقهر الشعب المصرى بأكمله والتحكم فيه وكان وقتئذ تعداده كأغلبية ما بين ٥ر٢ الى ٣ مليون ومظهر نزول جنود الاسطول فى الاسكندرية كان تحدى لاســـتقلال البلاد حيث جـاء على لسان القائد الانجليزى لحكام البلاد وهو لايزال فى عرض البحـــر وبعد أن عارض المصريون نزولهم بالبحر الا بأمر سلطانى قال القائد البريطـــانى « أننا أحضرنا بصحبتنا خمسة آلاف من العسكر ... فاما أن تسمحوا لنا فى الطلوع بالرضا والتسليم واما بالقهر والحرب » ثم توجه الانجليز بجزء من قواتهم الى رشـــيد لاحتـــلالها بالقهر لتكون قاعدة للوثوب على كل أنحاء البلاد .

---

(١٠٩) الجبرتى جزء ٤ ص ٤٤ .

(ثانيا) الوعي الشعبي (*)

(وثالثا) تكوين المؤسسة الوطنية

أمر الجنرال فريزر الجنرال ويكوب بالزحف على رشيد يوم ٢٩ مارس ١٨٠٧ بقوة ٢٠٠٠ مقاتل لاتخاذها قاعدة حربية يتزود منها الجيش ومنها يزحف الى داخل البلاد وأخذت هذه القوة الاستعداد لدخول رشيد يوم ٣١ مارس ١٨٠٧ وقد كان شعب رشيد على علم تام بهذه الخطة أولا بأول بفضل محافظها وقتئذ على بك السلانكلي الذى كون فى الحال من نفسه ومن أعيان رشيد ورجال الدين فيها ومن قيادة حامية رشيد مؤسسة وطنية قررت بعد المشورة اشتراك الجنود ال ٧٠٠ الموجودين تحت قيادة المحافظ على بك السلانكلي مع الحامية مع قوات الشعب الكبيرة العدد بالدخول الى المنازل والتحصن (الكرنكه) فى الأسطح وخلف الشبابيك وخلف ٠٠٠ المتاريس داخل المنازل وانتظار دخول جنود الاحتلال الانجليزى مطمئنين داخل الشوارع الخالية ثم الانقضاض عليهم بالنيران بأمر واحد من القائد الشجاع المحافظ على بك السلانكلي الذى أمر بثاقب نظره جميع مراكب التعديه بالرجوع الى البر الشرقي للنيل حتى لايعتمد رجال الحامية والجنود على وسيلة تؤدى الى مجرد التفكير في الارتداد أو الانسحاب وذلك كله بغرض الاستماتة فى القتال مقتديا بأسلوب القائد العربى طارق بن زياد يجعل العدو من أمام جنوده والبحر من خلفهم ــ وبذلك كان شعب رشيد ومن خلفه شعب مصر على وعى كامل بابعاد العدوان الانجليزى فقد قرر وجوب مقاومته وكان له مؤسسته الوطنية المحلية بقيادة الرجل الشجاع على بك السلانكلي والمؤسسة الوطنية من مشايخ ونواب شعب القاهرة ٠ وحان وقت مرحلة العمل الايجابى ٠

(رابعا) مرحلة العمل الايجابي (المقاومة الثورية)

تقدم الانجليز ولما لم يجدوا أثرا للمقاومة خارج البلد اعتقدوا أن حاميتها قد اعتزمت اخلاؤها وتسليمها فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين وهم فى شدة الاعياء بعد طول السير من الاسكندرية الى رشيد فانتشروا فى الطرق والأسواق ٠ ولكنهم ما كادوا يجوسون خلال الديار حتى أصدر قائد المقاومة على بك السلانكلي أمره باطلاق النار دفعة واحدة فأخذوا على غرة وعمل فيهم الرصاص بالقتل والاصابة وأخذ الأهلون والجنود يتبادلون النيران من النوافذ والأسطح فدب الرعب فى قلوب الجنود

(*) الجبرتى جزء ٤ ص ٤٤ ، ص ٤٥ ٠

(١) الجبرتى جزء ٤ ص ٤٧ ٠

الانجليز وسقط الكثير منهم صرعى فى الشـــوارع وقتـــل قائد الفرقة المهاجمة الجنرال ويكوب Wacop كمـــا قتل الكثير من ضباطه فاستولى الذعر على الجنود الانجليز ولاذوا بالفرار وانتهت الموقعة بهزيمة الجيش الانجليزى وتقهقره الى الإسكندرية وذلك بفضل المقاومة الشعبية والتي تكفل بها الشعب وحده دون أى مساعدة عسكرية حتى من الوالى محمد على نفسه لأنه عندما وصلت أخبار الغزو الى الوالى محمد على تباطأ فى الحضور والنجدة فلما صدرت الأوامر « بتحصين الثغور أرسل الباشا سليمان أغا ... الى أهالى الثغور اذا كانوا محتاجين الى عساكر فيرسل لهم الباشا » فأجاب أهل رشيد بأن فيهم الكفاية ولا يحتاجون الى عساكر زيادة تأتيهم فانهم اذا كثروا فى البلد تأتى منهم الفساد والافساد » (*) .

واحتفلت القاهرة بنصر اخوانهـم ثوار رشيد وخرج أهالى القاهرة للفرجة على أسرى الانجليز وكان منهم ضابطين كبيرين وكثير من جرحاهم.

وبعد وصول أخبار انتصار أهل رشيد وصلت أخبار من المسئولين فى رشيد بأن الانجليز يستعدون للانتقام ويحشدون قواتهم مرة أخرى لمعاودة القتال عند رشيد فاستنفر الشيوخ وفى مقدمتهم السيد عمر مكرم أهل القاهرة للتطوع للقتال (١١٠) .

معركة الحماد (٢١ ابريل ١٨٠٧)

« وفى يوم السبت (١١ ابريل ١٨٠٧) ثانى صفر (١) وردت مكاتبة أيضا من ثغر رشيد وعليها امضاء على بك السلانكلى حاكم الثغر وطاهر باشا وأحمـد أغا المعـروف ببونابرت .... ويذكرون فيه أن الانجليز ملكوا كوم الأفراح وأبو مندور ويستعجلون النجدة » .

(أولا) قهر الأقلية للأغلبية

(وفى يوم الخميس غايته) ورد مكتوب من السـيد حسن كريت نقيب الأشراف برشيد يذكر فيه « أن الانجليز لما وقع لهم ما وقع برشيد ورجعوا فى هزيمتهم الى الاسكندرية استعدوا وحفروا الى ناحية حماد قبلى رشيد (١١١) ومعهم المدافع الهائلة والعدد ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر الى الجبل عرضا وذلك ليلة الثلاثاء ثامن وعشرين ... ونرجـو

---

(١) الجبرتى جزء ٤ ص ٤٧ ، ص ٥٠

(*) الجبرتى جزء ٤ ص ٤٤ .

(١١٠) الجبرتى جزء ٤ ص ٤٧ .

(١١١) نفس المصدر السابق ص ٥٠ .

الاســــعاف والامداد بالرجـــال والجبخانة والعدة والعدد وعدم التأني والاهمـــال » ٠

(ثانيا) شعور الأغلبية بتعسف الأقلية

(ثالثا) تجاوب المؤسسة الوطنية

« فلما وصل ذلك الجواب قرأه السيد عمر مكرم (١١٢) (النقيب وزعيم المؤسسة الوطنية) وحثهم على التأهب والخروج للجهاد فأمتثلوا (المقاومة الشعبية) ولبسوا الأسلحة وجمع اليه طائفة المغاربة وأتراك خان الخليلي وكثير من العدوية والأسيوطية وأولاد البلد وركب في صبحها الى كتخدا بك (وكيل محمد على) واستأذنه في الذهاب » وذهب الكثير من المتطوعين المجاهدين من شعب القاهرة (الثائـر) الى منطقة القتـال بالقرب من رشـــيد (الحماد) وكانت الحملة الانجليزية في هذه المرة بقيادة الجنرال ستيوارات ووصل محمد على الى القاهرة من الصعيد في ١٢ ابريل ١٨٠٧ واطلع على الأنباء فأمر بعمل الاستحكامات حول القاهرة واستعان بالشعب وقادته في الاسراع في عمل التجهيزات الدفاعية تحسبا لأي تقـدم انجليزي مستقبلا ، وفي نفس الوقت أخـذ يجهز قوة كبيرة وعاونه السيد عمر مكرم في جمع التبرعات الشعبية لنفقات الجيش الذي كان يلح أهل رشيد في طلبه للنجدة وتم تجهيز أربعة آلاف مقاتل من المشاه وألف وخمسمائة من الفرســان وساروا قاصـدين رشيد بقيادة طبوز أوغلي (١١٣) (كتخدا بك نائب محمد على) ٠ أما جيش الجنرال سيتوارت فكان عدده أربعة آلاف مقاتل قد تمكن من احتلال حماد جنوب رشيد في أول ابريل بغرض تطويق رشيد وذلك في عام ١٨٠٧ ثم احتل مرتفعات (أبي مندور) ونصبوا عليها المدافع لضرب رشيد وحصارها ومنذ ٧ ابريل ١٨٠٧ بدأ ضرب رشيد بالمدافع وأنذر القائد البريطـاني الأهالي بالتسليم ولكن الأهالي صمدوا وصمموا على المقاومة بالرغم من فداحة الخسائر ، وكان عدد لا يستهان به من الفدائيين المجاهدين من الأهالي يخرجون من آن لآخر من المدينة لمناوشة القوات البريطانية واستمر الحصار والضرب نحو اثني عشر يوما دون أن يفوز الانجليز حتى ببوادر النصر(١١٤) ٠ وقال الجنرال سيتوارت في خطاب أرسله الى قائده فريزر « قد تبين لنا ان الأعداء (شعب رشيد) لايكترثون بالمصائب التي تنزل بهم وأغلبهم

---

(١١٢) الجبرتي جزء ٤ ص ٥٠ ٠

(١١٣) كتخدا بك هو محمد بك لاظ المشهور بـ « لاظ أوغلي » وهو قائد مذبحة القلعة ومنفذها ضد المماليك لحساب محمد على ٠

(١١٤) عصر محمد على للرافعي ص ٦٩ عن وثائق الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ للمسبو دوان رقم ٤٦ ٠

من الأهالى المسلحين » ٠٠ وصمدت رشيد الى ان جاء المدد الذى أرسله محمد على وعمر مكرم فى صباح يوم ٢٠ ابريل ١٨٠٧ وتقدمته طلائع الجيش المصرى من الفرسان (من فرقة حسن باشا) وساروا فى اتجاه مواقع الانجليز فى الحماد وبمجرد ان أشرف فرسان الجيش المصرى على الحماد انسحب الانجليز دون نظام وأحاط بهم فرسان القوات المصرية وأحدثت بهم خسائر كبيرة وحضر على أثر ذلك مدد للقوات الانجليزية ووصلت الى الحماد ولكن دفاعهم لم يكن من المناعة بحيث يصمد لهجمات القوات المصرية المتفوقة عددا وعده واستماتت قوات الانجليز فى الدفاع على أمل أن يصلهم المدد من المماليك كما كان الاتفاق بينهما ٠ وصمم الجنرال ستيورات على انه اذا لم تصله النجدة من المماليك ان ينسحب قبل أى اشتباك وذلك فى غضون ٢١ و ٢٢ ابريل ولكن قوات لاظ أوغلى (طبوز أوغلى) تمكنت من عبور النيل يوم ٢٠ ابريل ليلا وبقوات كثيرة العدد وانضموا الى فرقة حسن باشا وحصلت المفاجأة لقائد الجيش الانجليز (كولونيل ماكلود) وذلك عندما أصبح يوم ٢١ ابريل ولاحظ ان القوات المصرية قد تكاثر عددها وامتلأ السهل برجالها ، وبلغ ذلك الى الجنرال ستيوارت فأمره بالانسحاب الى مواقع الجيش الانجليزى حول رشيد ، ولكن فرسان القوات المصرية انسابوا من السهل وقطعوا المواصلات بين الحماد ورشيد وتفرقت قوات الانجليز وتمكنت فرسان المصريين من الفتك بهم فى الوقت الذى تمكنت منه مشاه المصريين من احتلال الحماد ٠ وطاردت قوات الفرسان المصرية قوات الانجليز المنسحبة فقتل معظم رجال الانجليز وقتل معهم قائد المعركة (الكولونيل ماكلود) وطاردت القوات المصرية ميمنة الجيش الانجليزى أيضا فقتل معظم جنودها وقائدهم (الكابتن ترلتون) ولم يبق من قوات هذه الميمنة سوى خمسون جنديا وقعوا جميعا فى الأسر ٠ وأما الميسرة الانجليزية فلم ير قائدها (الميجور جلسند) بدا من التسليم فسلم هو وبقية قوات الانجليز ٠ وكان هذا هو ختام المعركة ـ فسارع الجنرال ستيورات برفع الحصار عن رشيد بعد تأكده من هذه النكبة وبادر بالانسحاب قبل أن تنقض عليه القوات المصرية ٠ ولكن الأهالى قاموا بهذه المهمة وأحدثوا بالقوات الانجليزية المنسحبة دون تسليم أعظم الخسائر ٠

ولما بلغت فلول قوات الجنرال ستيوارت أبى قير كانت فى غاية الاجهاد واستقل الجنرال ستيوارت هو ومن بقى معه من قوات السفن الانجليزية الى الاسكندرية ٠ ووصل محمد على الى دمنهور على رأس جيش من ثلاثة آلاف مقاتل وألف من الفرسان والتقى هنـاك مع الجنرال الانجليزى (جنرال شيربروك) والمفوض من القائد الانجليزى فريزر لابرام معاهدة الصلح التى تمت فى ١٤ سبتمبر ١٨٠٧ وتقضى بجلاء الانجليز نهائيا عن الأراضى المصرية من الاسكندرية فى مقابل استرجاع

أسراهم وجرحاهم ونفذ محمد على هذا الشرط وتم جـــلاء الانجليز عن الاسكندرية وعن أرض مصر فى يوم ١٩ سبتمبر ١٨٠٧ . وكان الفضل أولا وأخيرا يرجع الى الشعب المصرى وقادة الشعب المصرى حيث اعتمدت المقاومة على قوات هذا الشعب ونجحت جميع ثورات مصر وشعب مصر ضد المحتل الفرنسى أولا ثم ضد الحكام المتصلتين من المماليك ثانيا ثم من الولاه الأتراك وجيوشهم ثالثا وفى النهاية تخلصت من الوجود الانجليزى بالكامل بعد أن هزمتهم فى آخر المطاف وانتصرت على حملة فريزر ١٨٠٧ .

هـــذا الـــكاتب :

ولد بحلوان الحمامات بالقرب من القـــاهرة فى ٢٨ أبريل ســنة ١٩٢١ ٠

تخـرج ضابطا بالجيش المصرى عام ١٩٤٢ ثم درس القانون فى أعقاب التخرج ٠

شارك فى الدفاع عن مصر خلال الحرب العالمية الثانية ٠

اشترك فى حرب فلسطين ونال ترقية استثنائية لرتبة اليوزباشى ٠

أســهم فى العمليات والتنظيمات السرية للضـــباط الوطنيين منذ الأربعينـــات ٠

انتقل للعمل فى جهاز المخابرات المصرية وشارك أثنائها فى تنظيم وادارة المقاومة ضد قوات الاحتلال بالقتال ونال عقبها على وسام النجمة العســـكرية ٠

وترقى فى المخـــابرات المصرية الى أن أصبح فى عام ١٩٦٦ نائبا لرئيس المخابرات العامة ٠

كلف بادارة الصراع السرى ضد حلف بغداد والحلف المركزى وكذلك ادارة العمليات السرية ضد اسرائيل منذ منتصف عام ١٩٥٧ ٠

عمل أمينا عاما لأمانة الصحافة والنشر ومشرفا على شئون الأعضـاء بالاتحاد الاشتراكى العربى ٠ ثم عين مستشارا فى رئاسة الجمهورية ٠

ومـن مؤلفـــاته :

١ ــ الاستعمار الجديد والدول النامية ٠

٢ ــ أبعاد المعركة مع اسرائيل ٠

٣ ــ كنت نائبا لرئيس المخابرات ٠

٤ ــ تأملات فى ثورات مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية ٠

وتحـت الطبـــع :

٥ ــ تأملات فى ثورات مصر (الثورة العرابية) ٠

٦ ــ تأملات فى ثورات مصر (ثورة ١٩١٩) ٠

٧ ــ تأملات فى ثورات مصر ارهاصات ما بين ثورة ١٩١٩ وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ٠

٨ ــ تأملات فى ثورات مصر ثورة ٢٣ يوليو حتى آخـر العدوان الثـــلاثى ٠

٩ ــ تأملات فى ثورات مصر ، ثورة ٢٣ يوليو من بعد العدوان الثلاثى حتى وفاة الرئيس جمال عبد الناصر ٠

فهـــرس

مقـــدمة ٥

تأملات فى ثورات مصر على ضوء قراءات تاريخيـــة . . ٩

الكتاب الأول : مقاومة الحملة الفرنسية ١١

تمهيـــد واجب ٢٧

مصر وحكم العثمانيين ٢٩

الغزو الفرنسى لمصر والتفاعلات الشعبية ٤٥

الحملة الفرنسية وأهدافها ٤٧

ثورة القاهرة الأولى ٦٢

اندلاع الثورة في كل مصر ٨٣

ثورة القاهرة الثانية ١٠٩

مراحل الثورة ضد المماليك ١٣٠

حول أهداف ومعالم الثورة على الحكم التركى . . . ١٤٢

حملة فريزر الانجليزية على مصر ومقاومة الشعب . . ١٤٤

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٢/٧٤٤٥

ISBN — 977 — 01 — 3122 — 9

تصويبات

رقم الصحيفة	رقم السطر	ترتيب الكلمة	الخطأ	الصواب
٤٧	الأخير	٢	العبارة	العمارة
٤٨	١٦	٦	الاغلبية	الأقلية
٥٠	٢	٥	الجيزة	البحيرة
٥٦	١٣	٨	بعد أشغاله	بعض أشغاله
٦٣	١٢	٩	انحراق	حرق
٦٧	١٨	٥	لتشكل	لشكل
٧٣	٤	٣	٥	٤
٨٤	١٧	٤	★	★★
٩٥	١٩	١	ص (١٤١)	ص (٨١)

تأملات فى ثورات مصر كتاب عن ثورة الشعب المصرى ضد الاحتلال الفرنسى والتى بفضلها تم جلاء هذا المحتل عن مصر بعد ثلاث سنوات فقط بالاضافة إلى تعريف بالشخصية المصرية تاريخيا من أيام الفراعنة وتسجيلا لثورات هذه الشخصية ضد الظلم والقهر على مر التاريخ ويعتبر هذا الكتاب تسجيلا لثورات مصر فى العصر الحديث بدءا من الحملة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ثم الثورة على حكام مصر المماليك والاتراك ثم ضد حملة فريزر البريطانية على رشيد مع اعتبار أن حرب التحرير هذه فى رشيد هى قمة الثورة الشعبية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٢٥ قرشا